

رحيل في بدايات الألفيّة  
الجزء الثالث.

# بوابات المواجهيد

روايه

صديقي شعباني



ماستر

# رحيل في بدايات الألفية

## الجزء الثالث

### بوابات المواجهيد

صدق شعباني

تصميم الغلاف  
بيشوى ظريف

الجمع والإخراج  
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/١٠٨٧٣/٢٠٢٠ م

ISBN: 978-977-85710-9-7

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر



© ماستر

م ٢٠٢٠

Email: master.publisher@hotmail.com  
Facebook: facebook.com/Master.PH  
Smashwords: smashwords.com/master.ph  
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

## الإهداء

إلى الأستاذ مصطفى فاروق  
الذي لولاه لما كان لهذا الجزء أن يتم... إليه مع مطلق الاحترام  
والعرفان لأنه أعاد لي شوق الأدب بعد أن كان يخفت في داخلي.





---

## تصدير

\*\* «أشار لحظي بعين علمٍ بخالصٍ من خَفِيٍّ وَهَمٍّ ولانْحٍ لاحٍ في ضميري أدقَّ من فهمٍ وهمٍ همِّيٍّ وخَضْتُ في لَجٍّ بحرٍ فكري أمرُ فيه كمرِّ سهمٍ وطار قلبي بريشٍ شوقي مركَّبٍ في جناحٍ عزمي إلى الذي عن سُنُلْتُ عنه رمزت رمزاً ولم اسمي حتَّى إذا جُزْتُ كلَّ حدٍّ في فلوات الدنْوَ أهْمِي نظرت إذ ذاك في سَجَالٍ فما تجاوزتُ حدَّ رَسْمِي فجئتُ مستسلماً إليه حدَّ قيادي بكفِّ سلْمِي قد وسم الحبِّ منه قلبي بميسمِ الشوق أي وسم وغاب عني شهود ذاتي بالقرب حتَّى نسيْتُ اسمي.»

الحلاج

\*\* «قد أوحى الله لمحمَّد: «أيها النَّبِيُّ لا تجالس إلا العشَّاق، وابتعد عن غيرهم.» مهما أضاءت شعلتك العالم. فالنَّار تموت بمرافقة الرَّماد. ينعم المؤمنون والعادلون بالحياة الأبدية. الرُّوح النَّقيَّة تتقبَّل الموت ليست عقاباً أو ظلماً ذلك الموت، بل تجلِّ: قبل الموت، كانت الروح تحتضر، تلك كانت ألامها. اذهبوا بي عند موتي، سلِّموا معشوقي جسدي. إن قبَّل شفَّتي الجافَّتَيْن، ثمَّ ردَّ إليَّ الحياة، لا تتعجبوا!»

جلال الدِّين الرُّومي

---

---

---

((الجزء الثالث))

بوابات المواجهيد وديوان العشق  
(الأسرار والطّواسين)

---

---

## ١. العتبة

((في البدء كانت الحكاية/الحكاية المنسيّة))

١

**\*\* الليلة الثانية بعد الألف من ألف ليلة وليلتين:**

.. الليلة التي كانت مجرد خاطرة عابرة في ذهن شهرزاد حينما كانت تنوي حكايتها للملك شهريار بمناسبة مرور سنتين على زواجهما . هذا الزواج الذي تمكّن به الملك من مصالحة نفسه سيّما بعدما أنجبت له شهرزاد بنتين... ولكنّ الملك الآن قد توفّي دون أن يخلف أثرا من أيّ نوع... دون أن يخلف وصيّة... أو إلزاما من نوع ما لزوجته... وظلّت شهرزاد طاوية ذهنها على الحكاية الأخيرة... الحكاية أغرب ممّا يمكن أن يتخيّله إنسان... فيها من العجب، وفيها من السّحر الشّيء الكثير... وقد كانت شهرزاد تحتفظ من بين أشياءها الكثيرة بخاتم صغير كان أهداها إياه والدها الوزير... ونحن إذ نذكر الخاتم هنا فلأنّه خاتم عجيب وغريب، وليس كباقي الخواتم في المملكة، ولا يوجد له مثيل إلّا في مدينة النّحاس وبغداد علاء الدّين... لقد كان الخاتم مرصودا لجنيّ من الطبقة الثّالثة في مملكة الجنّ... وهذا الجنيّ، وإن كان لا يستطيع أن يبني قصورا في يوم وليلة، أو أن يحوّل النّحاس إلى ذهب، فإنّه قادر على التنقل بيسر بين البلدان... وكان هذا الجنيّ يدعى «يرفع صاحب الخاتم»؛ وقد كانت شهرزاد لا تعلم عن هذا شيئا، ولكن بالأمر المقدّر سنحت سوانح وطرائط طوارئ... فبينما كانت شهرزاد تتلقّع بشال من شالاتها مرّت أصابعها فجأة على الخاتم في يدها، وفجأة انطلق من

---

الخاتم طيف لمارد ليس بالطويل ولا القصير... أحمر كأحمر ثمود... له عثنون وشارب صغير... كان يمكن لشهرزاد أن ترتعب كما ارتعب علاء الدين حين ظهر له جنّي المصباح، ولكنها كانت تربّت على حكايات وأساطير الشياطين والجنّ التي كانت تروى لها وهي صغيرة مربّيتها العجوز نسرين...

قال لها الخاتم في نبرة بين الشدّة والخفوت:

.شبيك لبّيك، عبدك يرفع بين يديك...

قالت شهرزاد بشيء من السخريّة:

.وما معنى ذلك؟!!

قال الجنّي:

.معناه أنّي طوع أمرك أفعل ما تأمريني به...

قالت شهرزاد:

.ما أمرك به ولو كان خارقا!!!

قال الجنّي:

.هذا يتوقّف على ما تأمرين به، فأنا جنّي، هذا صحيح، ولكنّ

إمكاناتي لا تتجاوز حدّا معيّنًا، فأنا مثالا لا أستطيع أن أبني قصورا في

يوم وليلة كما كان يفعل «زيبوباب»...

هنا اوقفته شهرزاد بحركة من يدها قائلة:

.ومن «زيبوباب» هذا... هل هو ملك الذّباب؟!!

فردّ الجنّي في خوف:

.لا تقولي هذا، يا سيّدي، فهو جنّي من الطبقة الأولى، وهو ملك

على كلّ الجنّ في مملكة الجنّ.

هنا قالت شهرزاد:

.فماذا يمكنك أن تفعل؟!!

قال الجنّي بفخرواعتزاز:

.أكثر شيء يعجبني أن أتسقط الأخبار بين البلدان... فأنا جوابة لا

---

يضارع وسابح من السّوابح...

سألت شهرزاد:

.وهل الأمر يحتاج إلى وقت كثير؟

فأجاب الجنيّ، مشيراً إلى صدره دلالة الفخار:

.ما بين طرفة عين وانتباهتها، أكون قد عبرت الأقيانوس...

هنا أوقفته شهرزاد مرّة أخرى قائلة:

.وما هذا أيضاً؟!

قال الجنيّ:

.لا أدري، يا سيّدي، سمعتم يقولون ذلك في بلدي، فأصبحت

أردّده.

قالت شهرزاد:

.وكنت تردّد الأشياء ولا تسأل عن معناها؟!

قال الجنيّ:

.كنت أوثر السّلامة، يا سيّدي، فقد قيل . لا أعلم في أيّ موضع

من الطّومار الذي ورثته عن والدي: «إذا كان الكلام من حديد فإنّ

الصّمّت من نحاس.»

هنا قالت شهرزاد بين الغاضبة والمازحة:

.أنت قطعاً لا تعلم ما تقول، يا خادمي، فنحن نقول: «إذا كان

الكلام من فضّة فإنّ الصّمّت من ذهب.»

كان الجنيّ الذي لا يمكنه أن يأتي بخوارق كثيرة، فاغر الفم متحيراً

في أمره... كان يريد أن يسأل ولا يريد في نفس الوقت، وكان يريد أن

يتقرّب من سيّده الجديدة ويريد إرضاءها بأيّ شكل من الأشكال،

ولذلك كان يخاف الإلحاح عليهما... أخيراً انتصر على خوفه وسأل

بحياء:

.وما هذان؟!

قالت شهرزاد:

---

.وأَيّ هذان؟

قال الجَنِّي:

.الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ؟

قالت شهرزاد:

.معدنان... لِلنِّسَاءِ الذَّهَبَ، وَلِلرِّجَالِ الفِضَّةَ.

فقال الجَنِّي:

.نحن... هناك... لا نعلم من أمرهما شيئا... على كلِّ حال، أترغبين

في هذه اللَّحظة، يا سَيِّدتي أن أتيك بخبر أو حكاية أو ما شابه...؟

قالت شهرزاد:

.هذه المرَّة، لا أريدك أن تأتيني بخبر. ولكن أريد منك أن تنقل إلى

العالم حكاية.

قال الجَنِّي:

أَيَّةَ حكاية، يا سَيِّدتي؟

قالت شهرزاد:

.الحكاية الَّتِي لم يطلع عليها الصَّبَّاح... الحكاية الَّتِي لم تجعلني

أسكت عن الكلام المباح... الحكاية الَّتِي لم يدركني صباح الدَّيِّك

متلبَّسة بنهايتها...

قال الجَنِّي:

.وأَيَّةَ حكاية؟!

قالت شهرزاد:

.ستفهم حين يحين ذلك...

ولكن للأسف الشَّدِيد، لم يحن ذلك...فإنَّ الموت الفَتَّان الَّذِي كان

أخذ زوجها قد أخذها هي أيضا على أكفَّ أُرديَّة من الموسلين الوردِيّ

الَّتِي كانت تحفَّ حفيفا... وتوقَّيت شهرزاد على السَّاعة البنفسجيَّة

الَّتِي كان النَّاسُ حديثي عهد بها آنذاك... وظلَّ الجَنِّي يرفع صاحب

الخاتم شريدا، بلا سيِّد يخدمه، وكانت مأساته بلا حدود: فلا هو قادر

على الرجوع إلى الخاتم، ولا هو قادر على الذهاب إلى أي مكان آخر...!!  
فكيف تسرّبت الحكاية... كيف صارت الحكاية المنسيّة حديث  
النّاس وشاغلة دنياهم... ومن ملأ بها الأسماع والأفواه... تقول  
«السّبيلا» عرّافة كلّ الأزمان: «كان هناك في زمن ما، على مشارف  
حدود بلد ما، رجل ككلّ الرجال، مات له ولدان وعاش له ولدان،  
وماتت تحته زوجتان وعاشت له زوجتان، وسكن بيتين واحترق له  
بيتان، وكان يحبّ القيان والمدام، ويحبّ الاستماع إلى الطّنبور،  
ويستببه حسن الحور.... (هنا تقف السّبيلا قليلا لتوضّح الأمر لأنّه  
ملتبس بعض الشّيء، فتقول: «والحور هنا حور الدّنيا، وهنّ القيان  
ذوات الأفنان، والعصف والريحان.....  
«فبأيّ الآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبان...»)

لم تكن العرّافة تدرك أنّ آخر نبوءة لها لن تكتمل أبدا، وأنّ  
الموت الفتان، الذي لا يمكن أن يفّر منه إنسان، في كلّ زمان ومكان،  
سيأخذها في منتصف نبوءتها أو حكايتها الأثيرة... فمن كان إذن لهذه  
الحكاية يتعهدها ويرمّم خللها على امتداد فترات من الزّمن سيّما وأنها  
أخذت وقتا وحيّزا زمنيّين كبيرين حتّى تصلا إلينا...

المرجّح أو شبه الأكيد أنّ هناك شخصا ما، في زمان ما، في زمان ما،  
نتيجة ظروف ما، هو الذي نقلها إلينا حتّى بات الواحد منا يعرفها كما  
يعرف أبناءه... وأشياءه... وأسماء الأشياء التي يمتلكها... وحسراته...  
وغصصه... وأحلامه التي لا يتذكّر أكثرها... والحديث يطول... ((نقطة  
إلى السّطر.))

يزعمون أنّه عربيّ... ليس عربيّا قحّا من أقحاح العرب، ولكنّه  
عربيّ بالحلف، جاب أحد أحياء العرب فجاور إحدى قبائلها وطلب  
حلفهم فحالفوه... ويقول أحد المؤرّخين العرب قد يكون هو ابن  
جرير الطّبري... أو اليعقوبيّ... أو ابن كثير... ولا يستبعد أيضا أن  
يكون ابن الأثير... أو مسكويه... أو الإمام الهمام صاحب المقام سيدي

عبد الرّحمان... أو ابن قزمان الّذي ترك لنا من بين ما ترك رحلة في مخطوط إلى بلاد الرّنجان والسّودان... أقول يقول أحد المؤرّخين إنّه جاء من بلاد «البيلاروس» وأنّه «طاجيك»، كان يجوب الأصقاع في آسية بين بورما وجاكرتا وسومطره، وفي المشرق بين الكرخ والرّصافة، وفي تونس بين جربة ومطماطة، وفي الجزائر بين غرداية والعاتر وفي السّوس بين جبال الأطلس والعيون... و«طاجيك» هذا لا يعرف له أب أو أمّ، وقصارى ما يعرفه عنه من كان يلمّ به أنّه كان يتردّد إلى رجل تبخّر في العلوم من فلك وطبّ وحديث وسيرة وفقه وأصول وكيمياء وفيزياء وسحر وعلم نجوم، وقد بلي هذا الرّجل في أخر حياته بلوثات في عقله فكان يزيد في الحديث فضّعفه أهل الجرح والتّعديل، وكان يخلط في عناصر الكيمياء فلم يتوصّل أبدا إلى الحصول ولو على ذرة واحدة من الذهب فازدراه جابر الحّيّان وسخرمنه... (ولكنّ شيخه، أي شيخ جابر الحّيّان، سيّدي جعفر الصّادق لم يسخرمنه لأنّه من أهل البيت رضي الله تعالى عنهم وكان يترفّع عن الصّغائر)... وكان يخبط في الفيزياء خبط عشواء... وفي الطبّ مات على يديه عشرات الولدان فازدراه ابن سينا ومن جاء بعده أو جاء قبله من أمثال الرّازي والرّهراوي... و«ابن كتونة». وهنا أستمحكم عنذرا سادتي فمن نقل إلى اسم هذا الطّبيب لم يكن متأكّدا من اسمه، وأنا أقول لكم هذا من باب الحيطة والأمانة حتّى لا تظنّوا بي الظّنون... وكان يخلط بين الرّهرة وعطارد، وبين زحل والمشتري، ويقول «الكافر» إنّه صعد إلى القمر وشهد الكسوف من على قمّة ربوة في المرّخ، وكان يقول بالثنويّة ثمّ انتقل إلى التّثليث، وفي الكلام كان على دين الجماعة من أمثال الجبائيّ والنّظام وابن هذيل العلاف، وكان يقول مثلهم بالخلق، وبجبر الله تعالى على العدل («الزّنديق»).

«طاجيك» لا يقول إنّه أخذ الحكاية من سيّده، وأرجو من الله تعالى أن لا يكون الأمر كذلك، لأنّ الأمر إذا كان كذلك فلا حول ولا قوّة إلّا

---

بالله وبالله الشدّة وعلى الله الاتكال... سيذهب الجهد سدى، وستضيع الحكاية بين تلافيف النسيان... سنفترض أنّ «طاجيك» حينما كتب كتابه الموسوم بـ «دليل الحيران إلى منابع النسيان»، والذي أودعه حكاية شهرزاد المنسيّة، إنّما كانت مصادره بعيدة كلّ البعد عن ذلك الشّيخ صاحب اللّوثات، وبما أنّه كان رحّالة لا يشقّ له غبار، فربّما يكون أخذ الحكاية عن حبر أو جهبذ أو مرزبان صاحب طيلسان أو عن قلم سعدي أو سيّدي جلال البلخيّ المعروف بالروميّ لكونه ذهب إلى قونيّة وأقام بها على عهد السّلاجقة الروم....

قال «طاجيك»، وقد أخذته العبرة والشهقة، وسحت دموعه نواهل، وهو يتأبط كتابه الذي كتبه في ظروف تألبت فيها عليه الخطوب، وتعاورته المحن والإحن: «قبّح الله سوسان بن نصر، لقد غشني وأوهمني كذبا أنّ شهرزاد قد ماتت... سوسان جعلته في سلسلة سند لخبر أورده عن أحدهم في الزمان السالف، وقد كان سوسان هو أوّل هذه السلسلة فكذب عليّ ودلّس أيما تدليس، ولو كان بجاني الآن لقرصت أذنه، ولضربت أنفه بمنشّتي، ولقلت له بكلّ قسوة وشدة: «كيف تجرؤ، أيها اليهودي، على الكذب عليّ!!؟!»! شهرزاد لم تمت، وكلّ ما في الأمر أنّها شرقت بحرفين من حروف الأبجدية فظلاً في حلقها حتّى اختنقت بهما فظنّ الناس أنّها ماتت فقاموا بتكفيها ودفنها حتّى أنقذها ذلك الطّبيب... كانت شهرزاد أوفر حظاً من سلامة مغنيّة يزيد بن عبد الملك التي غصت بحبيبة رمان فهلكت وظلّ يزيد حزينا عليها إلى أن قضى وواراه التراب... أمّا أمر الطّبيب فلم يكن مشهوراً، ومن كان يعرفه لا يكاد يتجاوز أصابع اليد الواحدة... لقد كان ذلك الطّبيب تستهويه التّزهة والتّريّض بقرب المقبرة الوحيدة على مشارف الرّصافة قبل أن يحرقها هولاًكو على إثر هجومه على بغداد..... (ابن العلقمي هو الذي كاتب هولاًكو وأغراه بالمجيء إلى بغداد، وكان هولاًكو ينوي غزو بلاد الفرنجة!!) سمع الطّبيب أنينا فظنّ أنّه يتوهّم، وقد كان اللّيل أرخى سدوله على الكون بكلّ ما فيه من مساحي، ومحاريث، وروث بهائم، وأوساخ في الطّريق... والأوساخ التي كانت عالقة بثياب الضّرفاء، والأدران التي كانت تلفّ قلوب الأمراء والوزراء، باستثناء سيدي الخليفة رفع الله تعالى شأنه، مولاي وابن مولاي، وأخ مولاي،

وابن عمّ مولاي، وابن مولاتي الأمة التّركيّة الّتي تسرّاهما مولاي، فأعجب منها مولاي، وكلّ مواليّ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، مولاي المستعين أحمد بن محمّد — وقد نسيت بقية النّسب، إلّا أنّه صحيح نسب ونسبته إلى سيّدي العباس رضي الله تعالى عنه وأرضاه... وكان اللّيل أيضا قد أرخى سدوله على كلّ الأتراك الكبار: بغا الصّغير وبغا الكبير، وعلى مواشيهم، وبيضائهم وصفرائهم، وعلى قصورهم ومظاميرهم الّتي كانوا يضعون فيها كلّ شيء لديهم حتّى أسرارهم الّتي كانوا يسرقونها من أسرار الخليفة وأهل بيته.... لقد كان الخليفة مسكينا مغلوبا على أمره، وكان دائما يقول: «أقبلوني يرحمكم الله، ولكنهم كانوا يسخرون منه ويحملونه أحيانا زقّفونا فيفقأون عينيه أو يقطعون يديه ورجليه وهو يصبح بأعلى صوته: «أليس من الغرائب أنّ مثلي يرى ما قلّ ممتنعا عليه/ وتجمع باسمه الدّنيا جميعا وما من ذلك شيء في يديه... المهمّ أنّ اللّيل كان ليلا أليل وكانت به حمرة قانية على خديّه وكانّ أحدا قد ضربه بنعله، فالليل كذلك مسكين ومغلوب على أمره كسيّدي الخليفة فرّج الله تعالى كربته... ولم يكن للّيل سيف أو خنجر أو ما شابه، فهوليل مسالم، كأبناء إمبراطوريّة «زفتي» العظيمة الّتي قامت في التّاريخ وتجاهلها سيّدي الهمام عبد الرّحمان لأنّها كانت لا تؤمن بالعصبية، وإنّما تؤمن بـ «دعه يهرب... اتركه يفرّ».... فلمّا سمع الطّبيب الأنيب اتّجه إلى مصدره، وبالكاد كان يرى الأشياء من حوله، وعلى ضوء زيز صغير كان يمرّ بالمصادفة من هناك، ألقى قبرا يتبعثر شيئا فشيئا وتخرج منه امرأة على الرّغم من كثرة الغبار من حولها لم تكن شعئا ولا غبراء، وإنّما كانت لا تزال على جمال وكمال، وعقل ودلال، فسبحان الكريم المتّان، الّذي جعلها في أحسن اعتدال... لقد كان يمكن للطّبيب أن يخاف وأن يرتعب، وحتّى أن يفعل أشياء أخرى لا يعرفها إلّا الجبناء من أمثال ابن «برسيّة» وابن «قرمون» وابن «أبي الشّناتر»، ولكنّه مجرّب، ولا يخاف حتّى من أكثر الأشياء شراسة

---

في هذا العالم — لقد قال له أصدقائه المقربون يوماً، وهم قليل على كلِّ حال: «ألا تعلم، يا إسحاق (وكان ذلك اسمه) أنّ عنترة بن شدّاد العبسيّ كان قادراً على الفتك بالأسد بيد واحدة؟!» فما كان من الطّبيب إسحاق إلاّ أنّه أخرج من جيب قفطانه أسدين كبيرين جعدين ولوى عنقهما في الحال وشرب من دمهما قائلاً لأصحابه: «أنتم لا شك لا تعرفون أنّي أنا إسحاق يمكنني أن أكون عاشبا ولاحما وشيئا بين ذلك وشيئا لم يكتشفه علم الأحياء بعد... وسأكل إذا أردت فلانا وفلانا.» ولم يصرح خوفاً من اللّيل الذي يخفي في طبّاته أذان وأعين سيّدي أعزّه الله تعالى...

كانت المرأة غريبة عليه نوعاً ما، ولم يذكر أنّه رآها في درب الرّواسين أو درب الحمّالين أو درب الدّبّاغين أو درب البرّازين أو أيّ درب من دروب المحروسة بغداد رفع الله تعالى مقامها على المحروسة القاهرة لأنّها كانت دوماً عشيّاً جميلاً لبني عبّيد لا رفع الله تعالى ذكرهم أبداً... ((عجبا، ثمّ عجبا، ثمّ عجبا، كيف يستطيع هذا «العبد الله ابن ميمون القدّاح» اليهودي أن يضحك على ذقونهم جميعاً ويفتري عليهم الفرية إثر الفرية ويوهمهم أنّه من نسل البتول الطّاهرة المطهّرة رضي الله تعالى عنها وأرضاها - إنّه صقّاق خقّاق مزواج مطلق، لا يخجل أن يقفش القفشة إثر القفشة قبّحه الله من عتلّ زنيماً مشاءً بنميم)) قال الطّبيب يسأل المرأة، وهو يحاول أن يهدئ من روعها. ففاجأته بأنّها هدأت من روعه، لأنّها كانت تحمل في يدها ذلك الخاتم الذي ليس كمثله المصباح، فكانت خفيفة كالأثير وتكاد تطير:

من أنت يا أمة الله؟

قالت:

قبل القبر كانوا يسمّونني شهرزاد.

قال الطّبيب مستغرباً:

وهلّ اختلف اسمك بعد القبر؟!

---

قالت:

. الحياة أويقات وساعات ولا يخلو الأمر من تغيّرات وتبدّلات... ألا تعلم أنّ اللّيل يلج في النّهار، والنّهار يلج في اللّيل، وكذلك الأسماء، اسم يلج في اسم، واسم يلبس اسما، ويلبسه قميصه، وجواربه، ويعطيه أزراره وأسراره...

قال الطّبيب:

. وما حكايتك، يا أمة الله، في هذه اللّيلة اللّيلة، والفضاء الخلاء؟!

قالت:

. سامح الله والدي، لقد علّمني الحروف، ولكنّه لم يعلمني كيف أبوح، فغصصت بحرفين من حروف الكلام...

قال الطّبيب:

. وأيّ حرفين، يا أمة الله؟!

قالت:

. الهمزة والهاء، وهما حرفان. والعياذ بالله. مثل الحجارة لصعوبة

نطقهما!!!

قال الطّبيب:

. أحمد الله على سلامتك، أتريدين أن أوصلك إلى مكان؟!

قالت:

. لا داعي... وفركت الخاتم قليلا، فظهر فجأة يرفغ صاحب العثنون

وقال بكلّ وقار وفخار:

. شبّيك لبّيك، خادمك الأمين بين يديك، اطلبي وتميّي، يا سيّدي.

قالت شهزاد دون أن تفكّر، وبسرعة البرق:

. انطلق بنا إلى مدينة النّحاس!!

كتب في الهامش من ذلك الكتاب، كتب بلوعة وحسرة، وهو يدرك أنّ الهوامش والحواشي ليست للاعتذارات والأسف، ولكنّه معذور، يشعر كأنّه فقد شيئا عزيزا، وأنّ عليه أن يفضفض في هذا الهامش، وسيكون عليه أيضا أن يعتذر في حاشية الحواشي، سيحكي عن «أربعاء الرماد»، سيعبر «الأرض اليباب»، وسيسافر مع المسافرين، وسيحطّ الرّحال مع شدّاذ الأفاق، وسيبكي الأطلال، والديار، وسيبحث عن كلّ من ماتوا من الشّعراء، وسيتلو عليهم الكثير ممّا كتبوه، متذرّعا بالصبر، ومعتمدا على القليل القليل ممّا بقي في قلبه من اللّوعات... أه، يا بهيّة الطّالع، أه، يا من كنت في زمن الانهيارات الثلجيّة، وانحراف المدارات، وسقوط المذنبات، وعدم تحقّق النبوءات، كنت له العضد والسّاعد، والدليل والقائد، وهو اليوم وحيد، وهو اليوم ضائع، يخبط في الأرض خبط عشواء، ويقول «يا ليت البلاء... يا ليت العزاء!!» فلا البلاء يؤول ولا العزاء يطول؛ إنّه يذكر أنّه كان على المشارف، بين مكّة والطائف، وكانت له خيمة من وبر كان يهرّبها معه دائما ويخشى عليها من أهل المدر، ولطالما أوهموه بالعدول والمثول والافتناع بالمكتوب، فما بعد حدود الأرض التي هم عليها غير البلقع واليباب، وما لا يعلم من السراب، وكان يبكي بكاء النّاقة على الفصيل، ويقول في نفسه: «أين أنتم، يا أهل الدليل؟! فقد فاضت الأشواق، وكاد يهلك العشاق!!» وهرب وحيدا، في حلقة اللّيل الوسنانة، مختفيا بين فروع تلك الشّجرة الفينانة، يحمل ركوة ماء، وعصا غليظة، كان يستند إليها شيخه الضّير، أبو الفوارس، في مقبل عمره وفي شرخ الشّباب والأيام العذاب... إنّه يشعر أنّه ارتكب جرما وأنّ الجميع يتهمونه ويشيرون إليه بالبنان، فيما

كان كتبه عن محنة الأوطان، وخيانة أهل العقد وأهل العقل لأهل الضريع وما يسوقه الربّ البديع لأهل السدّ المنيع والحصن الرفيع... يقول في ذلك الهامش، وسيعيد في تلك الحاشية، حاشية الحواشي: «يا ليتني ما قلت ولا كتبت، شلت يميني وانقطع وتيني، فأنا اليوم مطارِد ومتابع، وعفارت الأرض تقتفيني وتريد أن تشلّ يميني، فأين أنت يا سيدي أبا الفوارس لتسند ضعفي وتلهمني ما أعمل...» الليل طويل، يا أحبّي، ولا يعرف طوله إلا الهاربون، التاكلون، العابرون، وأمّا من لم يذق الصّباة، واكتنفته الدّيار والتأم بدثار، فإنّه يعيش بعيدا عن الأفكار... ماذا يعمل وكيف يقول، والطريق طويل: لقد سار الأميال الطّوال حتّى ضيّع القسّمات واكتنفته الفلوات، وبين الفينة والفينة، يفتح الكتاب، ويتفكّر في العذاب... كان ذلك الطائر يطير، ولا يتوقّف عن المسير، وهي بأوتاده متشبّثة. ولحيزومه متأبّطة. وهو يقول، بعد حين يكون الوصول، وهي ما تزال لا تعرف شيئا عن المدينة الجديدة التي تركتها صغيرة، وهي تعلم أنّ الوقت لا يرحم، والزّمن يبدّل ما لا يتبدّل، فسبحان من له الدّوام، ولا يحيط بعلمه إنسان...؛ كان «يرفع» يغّي، ويقول: «يا لا لتي...» وهي تنصت متضاحكة، لأنّها المرّة الأولى التي تسمع فيها جنّيّا يغّي... كانت مدينة النّحاس على التّخوم، وعلى نتوء من الصّخر تقوم، وهي بعيدة متباعدة، شحطها غريب، والتنامها على مبعده من المدن الأخرى عجيب، أبوابها ليست كالأبواب، وقممها يعتليها السّراب، فلا يهتدى إليها إلا بدليل، ولا يحيط بأكنافها إلا من كان له إلى العلم سبيل... في السّاعة المعلومة، حلّت الدّينونة، وعلى الأبواب وجدوا المسكين، الذي كان يحمل السّنّان في يديه ليدلّ كلّ حيران؛ اقتربت منه شهرزاد وضغطت على زرّ في جنبه فاستدار دورتين وأشار إلى جانب من الجوانب، في شرق المدينة، فدخلت يتبعها «يرفع»، غير أنّه لم يكن هناك من فارولا نافخ نار، وكان كلّ من بالمدينة قد تحوّل إلى صنم، يعتريه البكم، وكانت الأسواق مشرعة، والموازين

---

قائمة، وكلّ شيء من البضائع على حاله، وكانت الميادين شاغرة، ولكن تبدو وكأنّ أهلها غادروها قبل حين وسيعودون إليها حين تؤذن الشّمس بالغروب، وقصر السّلطان هناك، يقوم عليه العبيد إلّا أنّهم لا يتحرّكون ولا يريمون: وقالت شهرزاد:

. أتعلم ما هذه المدينة؟!

قال يرفغ:

. سمعتك تقولين إنّها مدينة النّحاس، يا سيّدتي.

قالت:

. بلى إنّها مدينة النّحاس، وقد كانت من كبار المدن في الزّمان، قبل أن يحلّ بها ما حلّ، وكان بإمكان السّاحرة التي سحرتها أن تقتل كلّ شيء، وتأخذ كلّ شيء، ولكن أرادت أن تجعلها عبرة للمعتبر، وذكرى لمن لا يتدكّر...

قاطعها يرفغ بحياء:

. وما قصّتها، يا سيّدتي؟!

قالت شهرزاد:

. إنّ قصّتها تطول، ولو كتبت لما وسعها المداد...

ثمّ سكّنت شهرزاد قليلا، وأخرجت بساطا من مكان ما في متاعها وفرشته على الأرض، وأمرت يرفغ أن يجلس على مبعده يسيرة منها، وقالت تخاطب رجلا غير منظور:

. اعلم أيّها الملك السّعيد، أنّه كان هناك مدينة عامرة، ليست هي بيت لحم ولا السّامرة، تقوم على الأطراف، يكتنفها الانثيال والانشحاط، جميلة كبيرة، وبأهلها مزدانة، ولأعرافها راعية. وبصغيرها بازة، ولكبيرها موقرة... وكان يحكم تلك المدينة ملك ليس له مثل في العدل، يحكم بالشرّعة ولا يضيّع الفريضة، كانت زوجته الملكة جنّية ساحرة، وهو لا يعلم، وأنجب منها البنات والذّراري وحرّمت عليه أن يتخذ السّراري، فعاشا في أحسن حال إلى أن أتاهم هازم اللّدات

---

ومفرق الأفراد والجماعات...!!!  
وهنا يدرك شهرزاد الصّباح، فتسكت عن الكلام المباح.  
ويقول «طاجيك» في موضع ما من كتابه «الدّليل»: «ولم يمت  
الملك شهريار...»

قال طاجيك . غفر الله تعالى له وسامحه وتجاوز عن خطاياہ وجعله من التائبين المنيبين الفائزين بجنّات النّعيم. وهو يتصفّح كتاب «الميزان ودلائل القبول والغفران» . في سنة (... ) من هجرة الرّسول سيّدنا محمّد صلى الله تعالى عليه وسلّم في دارة أحد أصحابه الواقعة في بلاد من بلدان الإسلام فيما وراء نهر بلخ، وهو يتأمل من حوله ويتفكّر في أمره... في أمر هذه الرّحلة المضنية الّتي لم تنته بعد، وقد ذكر أمر سيّدي ياقوت الحمويّ . رحمه الله تعالى ونور ظلمة قبره... أمين، وقد كتب كتاب «معجم البلدان»، وكتب من بعده «معجم الأدباء»، ويقول في نفسه الّتي انتهت إلى الرّضا بالمقسوم وكفّت عن كونها أمارة بالسوء: «إيه، يا نفسي، يا من طاوعتك كثيرا، وسرت وراءك كما يسير الظّمان في صحراء، وراء السّراب، بحثا عن جرعة ماء...»؛ وهنا يتوقّف قليلا ويذكر حكاية أمير المؤمنين سيّدي هارون الرّشيد بن سيّدي محمّد المهديّ بن سيّدي عبد الله أبي جعفر المنصور بن سيّدي محمّد ذي الثّفنات (وكان هو مبتدأ الدّعوة العبّاسيّة في مدينة السّلميّة بالشّام وهو الّذي تولّى إرسال الدّعاة والّذي تنازل له الكيسانيّة الّذين كان رأسهم سيّدي محمّد بن الحنفيّة عن حقّهم في الخلافة) بن سيّدي عليّ السّجّاد بن سيّدي عبد الله بن سيّدي العبّاس رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما. حكاية سيّدي هارون مع الّهلول الّذي لقيه ذات مرّة في شارع من شوارع المحروسة بغداد، وهو متنكّر بصحبة ذلك البرمكيّ المتأمر جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك خادّم النّوبهار، وهي نار المجوس الملائعين، وكان يتفقّد أحوال الرّعيّة ليحقّق الأمن ويحكم بالسّويّة... كان ذلك الّهلول يمتطي عصا، وهو يدور على نفسه كما يدور الشّادوف

---

أو الخذروف... وقف سيدي هارون لحظة، وهو يتأمله، وأوماً إلى ذلك اللعين أن يتأمله أيضاً — (لم يكن سيدي هارون يدرك بعد ما فعله ذلك اللعين الذي أغوى سيدي العباسة. غفر الله تعالى لها. بالزواج منه، فتزوجها وأنجب منها ولدين) — تقدّم سيدي هارون وأمسك بطرف ثوب ذلك المهلول، الذي توقّف فجأة عن الدوران دون أن تبدو عليه علائم الدهشة أو المفاجأة. قال أمير المؤمنين، الذي كان متنكراً: من أنت يرحمك الله؟

قال المهلول، وهو يرسم ابتسامة صغيرة على شفثيه لا تكاد تبين: ألم تعرفني، يا هارون؟ (ولم يقل أمير المؤمنين).  
قال سيدي:

من أنت يرحمك الله؟ وقد بلغ به العجب مبلغاً لا يتصوّر، وألقى نظرة سريعة على نفسه وعلى كلّ ما حوله... كان الذي قام بتحضير لوازم التنكر له واحداً من أربعة حدّاق في التنكر في كلّ فارس، فكيف لمجنون (ولم يقل لمهلول) أن يكشفه، وبهذه السهولة.  
قال سائلاً:

وكيف عرفتني يرحمك الله؟

قال المهلول:

سيماهم في وجوههم من أثر القعود...

هنا تدخل ذلك اللعين جعفر قائلاً:

سبحان الله! وتتقول على الله أيضاً؟! ألم يقل سبحانه في كتابه

«من أثر السجود»؟!

قال المهلول:

أناس وأناس... مثل خناس وخناس وكناس وكناس ولباس ولباس

ونفاس ونفاس واحتباس وانحباس... والقائمة تطول!!

قال أمير المؤمنين:

ماذا تعني يا رجل؟

قال الهلول:

لا تسأل... أنا عرفتك ولو تنكرت ألف مرة؛ وألقى نظرة من حوله  
فطالعته مقابر الكرخ؛ وقلّب الطّرف أيضا فطالعته قصور شامخات  
وديار عامرات... كان هناك قصر الخلد، والقصر الأبيض... والقصر  
الأحمر... والقصر الأصفر... وكانت هناك قصور بكلّ ألوان الطّيف...  
كانت الدّموع تنزل من عينيه، وكان يبسمل ويحوقل، ويكبّر، ومهلّل،  
ويتطلّع إلى الأفق من حوله وكأنّه يرى أشياء لا يراها إلّا هو... قال:

يا هارون، اتّق الله، ولا تعبد إلّا الله، ولا تعتمد إلّا على الله، فلو  
كنت ترى ما أرى لما بكيت فقط، بل لسقطت مغشياً عليك... إنّي أرى  
على اليمين دوركم وأرى على الشّمال قبوركم، فاذا كرىوما يذهب فيه  
الخلآن، وينتفي فيه الحدّثان، ويموت الحملان، ويشيب الولدان،  
وتنطفئ النّيران، وتسقط العمدان والصّلبان، وتقول يا ليتني كنت  
ترايا، يا ليتني لم تلدني أمّي، ولم أتزوج ولم يأت من صلي لا الأمين ولا  
المأمون ولا محمّد المعتصم ولا تزوّجت العصماء، ولا جمعت القيان،  
ولا أمرت بالبرابط والمزاهر وكلّ ألوان اللّهو والغناء، ولا قرّبت ذلك  
الزّنديق أبا الحسن بن هانئ أبا نواس من مجلسي ولا أمرت بربايعيات  
الخيّام أن يترجمها المترجمون وأن يكتبوها بماء الدّهب وتودع في  
خزائني...

كان سيّدي هارون يومئ إليه بالتوقّف، وكانت عيناه تسحّان  
دموعا ودما، وكان يبكي ويشهق، ويزفر، وكأنّه ولد صغير تركته والدته  
ورحلت عنه وهو جوعان، دون معين أو رفيق، في صحراء، غبراء،  
جرداء، غامرة غير عامرة.

تدخّل ذلك اللّعين، وهو يقول للهلول، وهو يريد أن يتملّق سيّدي  
أمير المؤمنين:

حسبك أيّها الرّجل، لقد أكثرت على سيّدي أمير المؤمنين!!

أوماً إليه سيّدي هارون بالتوقّف وقال للهلول:

---

. صدقت أيها الرجل. فمن أنت؟!

قال:

. أنا بهلول... أنا شملول... أنا عطبول... أنا شاقول... أنا زبلون...  
أنا الشمردل... أنا السموأل... أنا الدمرياط... أنا أصف بن برخيا هذا  
الزّمان...

ثم توقّف قليلا قائلا:

. يا هارون، ماذا تريد منّي؟!

قال سيّدي أمير المؤمنين:

. أن تعظني يرحمك الله؟

قال:

. كما تشاء...

ثمّ بعد لأي:

. هب أنّك في صحراء... لا ماء فيها ولا زرع ولا ضرع، ولا شجر، ولا  
وبر فيها ولا مدر، ولا حياة ولا بشر، وكنت عطشان، بلاري ولا رواء، ولا  
ركوة ماء، فماذا تبذل مقابل شربة، أو حتى قطرة؟!!

قال سيّدي:

. نصف ملكي وأزيد قليلا.

قال الهلول:

. ودخلت تلك القطرة إلى جوفك، وانحصر بها بطنك، فكم تعطي

لتخرج تلك القطرة منك؟

قال سيّدي هارون:

. نصف ملكي الآخر ولا أزيد فلم يبق لي ما أفتدي به نفسي.

هنا سألت عبرات الهلول، وارتفع نشيجه، ورفع رأسه إلى السّماء

وكأنّما يشهد الله تعالى أنّه قد بلّغ الرّسالة ونصح في الدّين:

. أي هارون... أي هارون... أي هارون... ما نفع ملك أولّه قطرة

وأخره بولة... يا هارون، اتّق الله تعالى في نفسك، وفي أغنامك التي أنت

---

مؤتمن عليها... إنَّ لله تعالى رجالا غيركم، لا يعجزه إن نكلتم أن يأتي بهم  
فيحلّوا محلّكم...

ورحل المهلول، وقد ترك سيدي في حالة من الرثاء، وهو في حاجة  
إلى عزاء أكبر من كلّ العزاء... كان يقول في نفسه: «ليس هذا بهلولا،  
وإنّما عاقل أعقل من كلّ العقلاء!!»  
قال طاجيك:

. يا عيني... ثمّ عيني... ثمّ عيني... يا ليتني في الأوطان أنادم الخلان...  
يا ليتني كنت راعيا في بادية من بوادي بلدي، أسرح بالتهار، وفي الليل  
أغنيّ للعذارى وللحيارى، وأقول: «يا لا لئي... يا عين جودي بالدموع  
وأكثري... فإنّي رأيت الزّمان بلا وفا... والحياة بلا هنا... ولا خير إلاّ فيمن  
اتقى... فيا ربّ اجعلنا من أهل الرّجا...» وذكر البلدان والأوطان، ومن  
حادت به الطّريق، ووجد نفسه في مضيق، وذكر المعتمد بن عبّاد  
ومقامه في أغمات، وقد تقلّب به الزّمان، فمن أمير كبير كان يملأ البرك  
بالمسك والكافور لتخوّص فيها زوجته وبناته إلى أسير طريد في إحدى  
قرى المغرب الأقصى تسرح زوجته وبناته بغزلهنّ وصوفهنّ في الأسواق  
ويتكفّفن النّاس حتّى لا يمتن جوعا...

وذكر أبياته الرائعات... وذكر بكاءه في تلك الأبيات... وأدار في نفسه  
كيف تتحوّل اللّغة من أداة للمتعة والجمال إلى مجرد آلة للبكاء  
والنّواح... أه... ثمّ أه... ثمّ أه...

«غريب بأرض المغربين أسير / سيبيكي عليه منبر وسرير\*\* وتندبه  
البيض الصّوارم والقنا / وينهلّ دمع بينهنّ غزير\*\* سيبيكيه في زاهيه  
والزّاهر النّدى / وطلابه والعرف ثمّ نكير\*\* إذا قيل في أغمات قد مات  
جوده / فما يرتجى للوجود بعد نشور\*\* فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة /  
أمامي وخلفي روضة وغدير\*\* بمنبنة الزّيتون مورثة العلاء / يغنيّ حمام  
أوترنّ طيور.»

قال طاجيك:

---

---

. وقد حدنا قليلا عن الطَّرِيق... وقد كان من أمر شهر يار أَنَّهُ لَمَّا طلع النَّهَار، كان المَغْسَلُونَ قد غَسَلُوهُ، وألبسوه أَكفانه وقد حنَطُوهُ، ثمَّ وضعوه بعد ذلك في النَّاووس، وساروا به إلى مقبرة أَجداده وراء القصر، والمشيِّعون يشيِّعون والمقرئون يقرؤون قلب القراءن وسورة الملك وأواخر الزَّمَر ويدعون له بالغفران وبتسهيل الحساب من الله تعالى ذي المنِّ غير المنقطع وذي الرَّحمة الواسعة؛ وبعد ما صلَّوا عليه صلاة الجنَازة، تركوه بين يدي مولاه، يحضِّر للقائه، ويستعدُّ لسؤال منكر ونكير، فياربِّ ثقل ميزانه وثبَّت جنانه وألهمه حسن الجواب عن السَّؤال وألهمه الشَّهادة...

ثمَّ يتأمَّل طاجيك قليلا في كتاب «الميزان» وقد سرح قليلا، ثمَّ انتبه إلى نفسه وقال:

. وكان قد أَلَمَّت بشهريار العزيمة، وحنَّ إلى اليتيمة (أي «يتيمة الدَّهر» للثعالبي). فأراد أن يطوِّف قليلا في البلاد ليعرف عادات وأعراف العباد، ولكنَّه أراد أن لا يطَّلِع أحد على عزمته، وكان له خادم أثير يشبهه في كلِّ شيء، فأطلعه على عزمته، وقال له: «سأعطيك ثيابي وتعطيني ثيابك، لأنَّني نويت الرِّحيل...» وقد كان الَّذي أراد، فرحل وترك خادمه وأثيره في حالة من السَّرور والحبور بعدما لبس شارة الملك والإمارة، ولكن، ويا للأسف ما كلَّ فرحة تدوم، فقد مات ذلك الخادم بعد رحيل شهريار بيومين، فطنَّوه هو، وقد فعلوا به ما سقناه أنفا وهم يحسبونهم ملكهم، وقد ودَّعوه بالشَّهقات والعبرات وكثير من الحسرة إلاَّ ما كان من أمر قليل من العترة الَّذين قتل شهريار نساءهم واستباح أعراضهم وحرمااتهم... فرحم الله تعالى ذلك الغلام الأثير، وطوَّل الله تعالى عمر سيدي شهريار حتى لا تضيع حكايتنا هباء...

وهنا يتوقَّف طاجيك عن الكلام فقد تناول عليه اللَّيْل، وذكر بيت فطحل شعراء العرب وقائدهم إلى جهنَّم وبئس المصير ذي القروح امرؤ القيس:

---

«تداول علينا اللّيل دمّون / دمّون نحن قوم يمانون»

—— حاشية كتاب «الميزان ودلائل الغفران» لـ «طاجيك بن لامار  
بن عمران بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السّلام.

---

... أه لكم يؤلمه هذا السكون!! هذا الصمت ما أمضه في بلد هو غريب عنه!! قالوا له حين بلغ مبلغ الرجال إنه من بيلاروس، وإن حكايته كانت عجبا من الأعاجيب، وإن القراصنة أسروه بعد أن قتلوا أبويه دون شفقة أو رحمة، ثم جلبوه إلى بغداد المحروسة. حفظها الله تعالى من كل سوء. وباعوه إلى أحد أثريائها... كان الذي اشتراه رجلا قد طعن في السنّ وكان طيبا غاية في الطيبة، وكان كذلك. لحسن حظّه هو طاجيك بن لامار. غنيا جدا، إذ كان هو أمين التجار وشهيندرسوق الصيارفة والبرازين بحى القامشلية بسوق بغداد؛ ولما كان طاجيك يختلف عن صبية بغداد، وكان وجهه مشربا ببياض تشوبه حمرة خفيفة وكان شعره أشقر مجدولا في ضفيرتين، وكان على غاية من الوسامة والجمال فقد أعجب به «أبو السعود». وكان ذلك اسم الرجل الذي اشتراه. وكاد يطير به سرورا، وقد أضمري في نفسه أن يجعله أحدا من أهل بيته، لذلك وكل به ابنته الوحيدة «بوران» التي كانت تكبره بعشر سنوات قائلا: «يا ابنتي، هذا الولد قد ساقه الله تعالى إلينا، وأنا رجل قد طعنت في السنّ، ولم يرزقني غيرك، وليس لنا من يقوم بأمرنا ويتولى مصالحنا، فأوصيك بهذا الغلام خيرا عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا...» ثم تذكّر الشيخ «أبو السعود» أنّه لم يسأل القراصنة عن اسمه حيث سلّمهم المال، وكان على عجلة من أمره، حيث كان في إثر قضاء حاجة من حوائجه العارضة التي لا تحتمل تأخيرا.

أخذ الشيخ بيد الغلام برفق وقاده إلى متكأ في وسط غرفة متوسطة الحجم، فجلس وأجلسه بجانبه ثم سأله بدمائة ولطف:

ما اسمك يا بني؟!!

---

لم يبد على الغلام أنّه فهم السّؤال، فأعاده عليه وهو يومئ ويشير إلى صدره دلالة من يريد أن يستفسر عن اسمه...  
ولكن عبثا... ومع ذلك لم ييأس، فقد سقطت يده عفوا على جيب الغلام، فاصطدمت بشيء بارز بروزا ظاهرا، وحين أدخلها سحب شيئا كالقلادة مكتوبا عليه: هذا طاجيك بن لامار، ابن الجاه والعزّ، ابن مولانا لامار بن تغز صاحب البيلاروس... وقد كانت الكتابة بلغة غير العربيّة في أعلاها، ولا يدري من ترجمها إلى تلك الكلمات العربيّة التي كانت مثبتة في أسفلها... وآلى على نفسه أن يتولّى رعايته وأن يضمّه إليه وأن يلحقه بمجالس العلم في بغداد وأن يرسله. إذا أبدى رغبة في ذلك. إلى كلّ بلاد الإسلام لينهل من علوم العصر... وتعلّم طاجيك الجبر والحساب والفقه والنحو والعربيّة بفروعها من أدب وسير وأيام ومغازي، وقد كان قبل ذلك قد حفظ القرآن على يد الشّيخ ابن مردويه بأحد الكتاتيب في حيّ المرديدن القريب من بيته ببغداد المحروسة...

وكان طاجيك كلّما ازداد تدرّجا في مراقي العرفان ازداد جماله وتفتّحت وسامته فعرفه القاصي والداني ليس في بغداد وحدها، ولكن في البصرة أيضا، وفي الكوفة، وكانت «بوران» ابنة الشّيخ «أبي السّعود»، لم تزوّج بعد، وكانت تنظر إلى نفسها في مرآة ذاتها وتقول: «إيه، يا بوران إنك لسيّنة الحظ، غاض جمالك وذهب شبابك، ولم يبق أمامك إلاّ الأمانى ومداراة السنين، والبحث عن العزاء...» وقد كانت تنظر إلى طاجيك: إلى جماله ووسامته، وإلى حسنه الأخاذ، وتقول: «سبحان الذي وهبك جمالا كجمال يوسف!!» وقد ذكرت «زليخا» وما كان من أمرها فتقول: «تبّا للنساء من الرجال وتبّا للرجال من النساء!!» وكانت مع ذلك تنظر إلى طاجيك، وتحسّ أنّه بدأ يتسلّل إلى قلبها رويدا رويدا، ولم تفرع وإنّما كانت تشعر بحنان ما عليه من مزيد تجاهه، فأزمنت أن تجعله لها ابنا وعونا على همّ الزّمان...!!

---

الآن، وهو وحيد، في هذا الركن القصي من بلاد الإسلام، في هذا  
الخان الصّغير على مفترق الدّنيا، أمامه كوب السّحلب، ودخان  
الأراكيل من حوله يغطّي فضاء الغرفة فيقول، وهو يشعر أنّ قلبه  
المتعب يكاد ينفجر ما بداخله من الغصص والحسرات: «آه، يا والدي  
أبا السّعود!! ويا والدي الحبيبة بوران!! لكم أشتاق إليكما!! أين  
تراكما تكونان؟! أفي الأحياء أنتما أم من الأموات؟! ليت لي جناحين  
فأطير إليكما... أطير إلى بغداد الحبيبة... إلى مرابع الصّبأ، ومجالس  
العلم، وإلى شيوخ الذين أحببتهم وأحبّوني!!»  
قال طاجيك:

.وبسط يرفغ يديه فصعدت شهرزاد وشهريار يتبعها...

حين طار يرفغ عاليا في الجوّ، لم تكن لديه النّيّة لينهي الرّحلة . كما كانت عادته . في بضع دقائق أو ثواني، فلم يكن مستعجلا لعلمه أنّه سيكون لديه الكثير لفعله في بغداد؛ ولم تكن شهرزاد تعلم عن نيّته شيئا، ولا ما يدور في رأس هذا الجيّ الصّغير. أمّا شهريار فقد كان يبدو عليه شيء من السّهوم، ولم يكن منتبها إلى ما يحدث حوله. لقد مرّ يرفغ وهو يجوب الأقطار ببغداد وعلم أن العبيد السّودان قد استولوا عليها، وأنهم قتلوا كلّ من فيها من الرّجال ولم يتركوا غير النّساء، أمّا من بقي من الأطفال فقد جمعوهم في براميل أحكموا إغلاقها ولم يتركوا لهم غير ثقوب صغيرة يتنفسون من خلالها... أمّا كيف حدث كلّ ذلك، وكيف تسوّى لهؤلاء العبيد أن يتخلّصوا من أسيادهم، ويفعلوا ما فعلوه، وهل كانت تلك خطّة أعدّها لها سلفا أم جاء كلّ شيء عفوا لخطر لغياب شهريار من ناحية ولحالة الحداد الّتي فرضت على المملكة منذ اختفاء ملكها، فإنّ يرفغ لم يكلف نفسه حتّى مجرد السّؤال، وقد كان في داخله سعيدا لهذا الحدث الغير المتوقّع لما سيوقّره له من بعض التّسلية في محاربة هؤلاء العبيد الّذين نسوا وهم يقومون بهذا الانقلاب المفاجئ أنّ هناك من سيكون لهم بالمرصاد وسيذيقهم الأمرين ليتعلّموا فيما بعد كيف يطيعون في صمت ويخدمون أسيادهم وعلى رؤوسهم العصيّ وعلى أقفيتهم الصّفّعات وفي صدورهم اللّكّمات...

كان يرفغ يحوّم، ويميل بجسمه ذات اليمين وذات الشّمال، وكان سعيدا، يقلّد العصافير الصّغيرة الّتي تمرّ من أمامه وهي تيمّم صوب مناطق الدّفء، فقد كان الشّتاء على وشك المداهمة؛ ويبدو

أنّه سيكون شتاء قاسيا، فقد كانت النّسّامات الّتي تهبّ من حين لآخر شديدة البرودة ومحمّلة برطوبة تنذر بوابل من المطر... في أوقات أخرى، أوقات ضاربة في مجاهل النّسيان، وحينما كان يرفع ما يزال بعد حبيس الخاتم، لم تكن له من تسلية سوى التّخيل، ولحسن حظّه فقد ورث عن والدته حضور بديهيّتها وقوّة ذاكرتها الّتي ورثتها بدورها عن أمّها، وأمّها عن أمّها... لقد كانوا من قبيل من الجنّ يقال لهم «الشّناتر»، وهؤلاء علّمتهم حياتهم الّتي لم تكن تخلو من القتل وسفك الدّماء شحذ أذهانهم لتذكّر مواطن هجومهم وكلّ التّفاصيل الّتي يمكن أن تساعد في إحراز أكبر قدر ممكن من الغنائم؛ وقد استمرّ هذا الأمر فيهم لآلاف السّنين قبل أن يغزوهم قبيل آخر كان أعظم خطرا وأشدّ بأسا هم «البوائق»، الّذين حين تمكّنوا من خصومهم لم يقتلوهم ولكن حبسوهم جميعا فيما كان بحوزتهم، فهناك من حبسوه في قماقم، ومن حبسوه في قواريرداكنة مختومة، ومن حبسوه في أزيارضيقة الأغناق، ومن حبسوه في خواتم، مثل يرفع الّذي كان في ذلك الحين صغير السنّ، ورموا الجميع بعد ذلك في البحر؛ ولحسن حظّ يرفع التقطه في البداية رجل من نيسابور وخدمه سنين، ولا يدري كيف انتقل الخاتم إلى قصرشهرزاد الّتي أصبح الآن خادمها الأمين... قالت شهرزاد تسأل يرفع حين لاحظت أنّ الرّحلة كانت أطول من المعتاد:

ويحك، يا يرفع، لماذا أنت بطيء على غير العادة؟  
كان يرفع محتارا ولم يدرحقا ما يقول، فهو لم يكن متأكّدا بعد أيخبرها بخبرالعبيد أم يترك الأمرلوقت آخر. في الأخيرقال:  
سيّدتي هناك شيء قد حدث ببغداد!  
أحسّت شهرزاد أنّها أخذت على حين غرّة. قالت في نفسها: «كيف عرف ذلك وقد كان طوال الوقت معنا ولم يغب عنّا طرفة عين؟»  
ثمّ متوجّهة إليه وهي ترمق شهرياربطرف عينها:

وماذا تراه يكون حدث؟!

قال يرقع:

. علمت، يا سيّدي، أنّ العبيد قد استغلّوا فرصة غياب سيّدي شهريار فقتلوا كلّ الرّجال وأخذوا المدينة. ونصّبوا عليهم ملكا أشدّهم بأسا وهو عبد يقال له ابن زبيبة...

قاطعته شهرزاد فجأة، وهي تضحك رغما عنها:

. أياكون هو عنتره يا ترى؟!

ثمّ وهي تتخذ سيماء الجدّ من جديد، وتتّجه صوب زوجها شهريار:  
. أسمعت ما سمعت يا سيّدي؟

كان شهريار قد ابتعد كثيرا... وفي لحظات غيابه تلك كان قد جاب العالم المعمور ثلاث مرّات، ورأى في ثواني معدودات ما لم يره طوال حياته التي تقترب الآن من خريفها الرابع والخمسين: لقد رأى التّنين وهو يرمي نيرانا من فمه كان يطلقها على حصون غاية في المناعة، ورأى بأمّ عينيه كيف كانت الحصون تتهاوى وتسقط محدثة أصواتا كأصوات الانفجار... ورأى السّبيلا عرافة الزّمان التي استوقفتها وأخبرته أنّه سيعيش خمسمائة وخمسا وتسعين سنة شمسيّة... وفي غفلة منه، ودون أن يدري كيف حصل كلّ ذلك، تزوّج أربع نساء كأنهنّ الأقمار وكنّ أخوات، ومن عجب أنّه لم يتزوّجهنّ مرّة واحدة، ولكن كان كلّما توقّيت واحدة تزوّج الأخرى، وهو لا يدري إلى الآن كيف تستى له أن يفعل ذلك في ذلك الزّمن اليسير الذي لم يكن يتجاوز بضع ثوان: وقام بثماني غزوات غنم خلالها، واستولى على خمسة عشر حصنا، وثمانى دساكر، وقصبتين... ورأى سور الصّين العظيم وتجوّل في مملكة الأباطرة وتعلّم اللّغة الصّينيّة وأطلق البارود على منغوليا المجاورة وكتب على الورق الذي كان ابتكارا في ذلك الزّمان رسالتين في الحبّ، وكتب كتابا عن رحلة قام بها في بحر اليابان وسومطرة وجاوة وشبه القارّة الهنديّة... وكانت تصله الأخبار أثناء ذلك أنّ زوجته كنّ يلدن له أولادا وبنات بلغ عددهم مائة وخمسين بين ولد وبنات، وكان

---

في كلِّ مرّة يرسل الأسماء التي ستطلق عليهم... لقد كان سعيدا، وكان يتمنى لو بقي في ذلك الحيز من تهويماته، ولو لم توقظه شهرزاد لكان الآن على أبواب غرناطة، فلم تكن بينه وبين إعادة فتحها سوى أن يطلق عليها مدافعه التي كان أحضرها معه من الصين. إنه يذكر كيف حرّر فلسطين، وحرّر قدسها الشريف، وحين فعل ذلك رأى المظفر صلاح الدين في المنام، وقال له: «الآن أنام قرير العين؛ فقد علمت أن الله تعالى لم يضع جهدي عبثا، وأنّ القدس الشريف الذي حرّرت مع رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه قد عاد إلى أهله!!»

نظر إليها شهريار في حيرة، وكان غاية ما خرج من فمه:  
هه...!!

قالت شهرزاد:

أراك قد ابتعدت كثيرا، يا سيدي، إنك لم تكن معنا!  
قال:

أجل، لقد رأيت عجبا من الأعاجيب!!

فجأة نسيت شهرزاد ما كانت ستقوله وتعلّق كلّ انتباهها بوجه زوجها، ولكن قبل أن تسأله، أمرت يرفع أن ينزل بهما في مكان ما من الواحة التي كانت على مرمى حجر منهم؛ وفي النهاية حين استقرّ بهم المكان جميعا، وكان يرفع قد أعدّ بساطا لا يدري كيف أخرجه وبسطه بكلّ عناية، وجّهز شيئا كالقبا، وأعدّ آلات السمر وما لذّ وطاب من مأكّل وشراب؛ آنئذ قالت شهرزاد:

لنجلس، يا سيدي.

ثمّ، وبعد أن اطمأنت أنّ كل شيء أصبح على ما يرام، قالت:  
هيه، يا سيدي، أخبرنا عن هذه الأعاجيب!!

قال شهريار:

اعلمي، أيتها الملكة الجليلة ذات المكانة الرفيعة أنّي رأيت...  
وهنا أدرك شهريار الصّباح فسكت عن الكلام المباح.

قال طاجيك: أه، ماذا يحدث في بخارى؟! بخارى التي ما شعرت فيها يوماً بالغبية مذ وطئتها قدماي!! كنت أطوف بأسواقها وحواريها وميادينها، وكنت في كل مرة أخرج فيها أكون قد أضفت صديقاً جديداً إلى قائمتي أو رفيقاً ستجمعني وإياه قافلة الرّحيل حين يؤذن رئيس الرّكب بذلك. بخارى تتحوّل اليوم إلى عين كبيرة تراقب الغرباء أمثالي؛ وقد سمعت منذ يومين أنّ أحد الرّعاقد قد جمع عصابته وهجموا على قصر الأمير فخرّبوا ما طالته أيديهم ونهبوا الأموال الطائلة، حتّى أنّهم كانوا يسحبون العقود واللّائى من أعناق الجوّاري... قلت في نفسي: «ربّما يكون هذا سبب هذه الشّدّة الطارئة، وانتشار الجنود البخاريّة في كلّ مكان من الإمارة.» ولذلك كنت أخرج في الصّباح من كلّ يوم فأشتري حاجاتي من السّوق ثمّ أعود إلى غرفتي في الخان ولا أعادها حتّى صباح اليوم التّالي... لقد كانت أيّاماً صعبة، ولم يكن لي في البداية من رفيق إلاّ كتيبي التي جلبتها معي وديوانا ابن الفارض وأبي الطيّب المتنبي؛ وقد علم صاحب الخان بمحنّي، وكان يعرف أنّي كاتب وخطّاط، ومن أهل الأدب، فأمر خادمه. وكان حاذقاً يحسن القراءة والكتابة. أن يلازمي ويقوم على خدمتي طيلة إقامتي، ولم يكن ينتظر أجراً، ولكيّ قلت في نفسي: «إذا كان صاحبك عسلاً فلا تأكله كلّهُ!!» واتفقت معه على قدر من المال أوّديه إليه مع أجره الخان... وقد كان هذا الخادم هديّة من السّماء جاءت في وقت بدأت فيه عيناى تضعفان، وبتّ لا أميّز الحروف جيّداً حين أقرأ؛ وقد سألت في السّوق عمّن يصنع عيونات للنّظر فأخبروني أنّه إذا كنت حقّاً في حاجة إلى ذلك لا بدّ من الدّهّاب إلى سمرقند أو بغداد، فضربت صفحاً عن الأمر

إلى حين، وقلت سأسعى في ذلك إذا عدت إلى الديار سالما؛ وذكرت سيدي أبا السَّعود ومربيتي بوران فألفيت قلبي يبكي وينوح وقلت متى يسعف الله تعالى باللقاء!! لقد كانت لي جولات لا تنسى على ضفاف دجلة والفرات، وكنت أسرح طرفي في قصور الخلفاء وأتعجب لتلك الأبهة وذلك الجمال، وكنت أقول لا بدَّ أن سيدي أمير المؤمنين وأباه من قبل قد أنفقوا ثروة لا تقدّر في بناء كل تلك القصور المنيفة التي تمتدّ على مرمى البصر... وذكرت أيضا ذلك المقهى الصّغير في أطراف الكرخ، وكنت أوي إليه في أماسي الشّتاء البعيدة، فأطلب كأسا كبيرا من البابونج، وأفتح الكتاب الذي أكون قد جلبته معي وأسرح معه، ولا أغادر حتى أكون قد أتيت عليه كلّ؛ لقد كنت أقرأ كثيرا في الزّمان القديم، قبل محنة الرّحيل والسّفر التي ابتليت بها على كبر، وكنت أقرأ في اليوم الواحد كتابين، وفي الأسبوع سبعة كتب، وما أن يجيء الشهر حتى أكون قد أتيت على عشرين كتابا في شتى العلوم، فقد كنت أقرأ في التّاريخ، وأدب الرّحلة، والسّير والمغازي، وفي الفقه والفتوى، والكيمياء، والسّحر... أه، لكم يجتاحني الحنين!! لكم أحسن أني في حاجة إلى أن أتحدّث مع شخص ما في هذا اللّيل الطّويل!! كان خادمي مسعود، قد أوى إلى فراشه مبكرا، وكنت مترددا في إيقاظه، لعلمي أنّه كان يتعب كثيرا، فهو يقضي طيلة فترة الصّباح وما بعد الظّهر مع سيده في خدمة زبائن الخان، ثمّ يأتي في المساء فأملئ عليه ما يفتح الله تعالى عليّ به...

في اللّيلة الماضية، حينما جاءني، كنت قد أخذت ورقة وبدأت أخطّ عليها شيئا، وتذكّرت شهريار وشهرزاد والجّتي يرفع، فوضعت ما بدّأته جانبا وأمرت الخادم أن يجلس ويتناول قلما ودواة ويجلس بجانب نضد في وسط الغرفة لأملئ عليه تنمة الحكاية...

«حين استقرّ المجلس بالجميع، وبعد أن أكلوا كفايتهم وشربوا ما تيسر لهم قضوا تلك اللّيلة في الواحة على أنها حال؛ وفي الصّباح، أراد يرفع أن يحلق بهم من جديد، ولكنّ شهرزاد التي لم تنس ما قاله زوجها

---

شهریار، أمرته بالمكوث حتى تسمع من زوجها بقية حديثه العجيب...  
قال شهریار:

أيتها الزوجة الحبيبة والمملكة الفريدة بين النساء، لقد رأيت قصورا وممالك... وكدت أقع في المهالك لولا أن الله ستروسلّم... ولم أكن نائما، ولكني لم أكن يقظان أيضا، ولكن يخيل إليّ أنّي كنت أرى الأشياء كما لو كنت أراها من وراء ستر خفيف أو زجاج مشوب ببعض السواد... فكنت بين اليقظان والنّعسان... وكنت أمشي وحيدا في صحراء ليس فيها إنس ولا جان... وبعد التعب والضنى وحرارة الشمس، رأيت على البعد أطيافا وسمعت أصواتا كما لو كانت تأتي من بين جبلين شامخين؛ وحينما اقتربت منّي تلك الأطيافا تبينت فيها صورة لرجال ونساء، وكانت بينهم امرأة. سبحان من صورها في تلك الصورة؛ واقترب منّي شيخ وقور، يغرق في البياض من رأسه حتى أخمص قدميه، ذو لحية بيضاء وشارب كثّ أبيض هو الآخر، ويلبس قفطانا أبيض وقباء أبيض، وقال لي بإجلال لم يكن يخفي مسرته وفرحه بلقائي:

سبحان الجبار الذي ساقك إلينا في هذه الساعة المباركة...

لقد تركني في حيرة من أمري، وتساءلت عن سبب كل هذه الحفاوة، وكنت أنوي أن أسأله، غير أنه كان أسرع منّي، فواصل قائلا:

لقد مات ملكنا منذ ساعة، ونحن أهل مدينة لا تبعد كثيرا من هنا، فرسخ أو يزيد قليلا؛ وعادتنا أنه إذا مات لنا ملك خرجنا إلى أطراف المملكة، وأول قادم يصادفنا نوليّه علينا...

أحسست كأنّ عصفير الكون تغرّد في قلبي، وأنّ فرقة من المنشدين تعزف من حولي... لقد كان يبدو أنّ مملكة القوم هي أكبر بكثير من مملكتي، وفرحت غاية الفرح، وتملّكتي سرور ما عليه من مزيد أنّي سأكون ملكا من أكبر ملوك الأرض؛ غير أنّ ذلك الرجل الوقور استوقف سلسلة أفكارني قائلا:

ولكن، يا سيدي، عليك أن تكون على علم، أنّ أيّ رجل نوليّه علينا

---

---

عليه أن يلتزم بشرطنا...  
قلت مقاطعا من فرط الفرح والدّهشة معا. وقد أضمرت أن أقبل  
هذا الشرط مهما كانت التكاليف:  
وما هو هذا الشرط أيها الرجل الطيّب؟!  
قال، وهو يشير إلى امرأة خلفه كانت متنقبة. ولم تكن تشبه بقيّة  
النساء اللاتي كنّ يحاذينها:  
أن تتزوج زوجة ملكنا الراحل...  
قلت مقاطعا مرّة أخرى:  
أنا موافق.

غير أنّه استوقفني بإشارة خفيفة من يده، ثمّ قال:  
. عليك أن تسمع الشرط إلى نهايته حتّى لا تقول إنّنا ضحكنا  
عليك...

قلت:

. صدقت. تفضّل... إنّي كلّّي أذان صاغية.

قال:

. شرطنا أن تتزوج الملكة. ولا يحقّ لك إذا ما تزوّجتها أن تطلقها أو  
تتزوج عليها...

ثمّ توقّف هنيئة، وواصل بعد قليل:

. إنّي أقول لك هذا لأنّ مملكتنا معروفة بين جميع الممالك بفتنة  
نساءها وحسنهنّ الذي لا يضارع... ونحن بشر، نميل بطبعنا إلى الحسن  
والجمال، فربّما سوّلت لك نفسك شيئا أو أمرا يكون فيه هلاكك...  
قاطعته مرتاعا:

. هلاكي؟! وماذا يعني ذلك؟!

قال بهدوء أعصاب وكأنّه سيخبر بشيء عاديّ جدًا:

. إنّ من لا يلتزم بشرطنا قذفناه في جبّ السّباع بظاهر القصر...  
وهنا أدرك شهريار الصّباح فسكت عن الكلام المباح...»

قال طاجيك: في الصّباح، حينما استيقظت، ألفت مسعود قد غادر الغرفة والتحق بالخان لخدمة الضيوف؛ وقد رأيت أنه كان مزدهما بالزّبائن، على غير العادة، في ذلك الوقت من النّهار. قلت في نفسي: «قد يكونون مثلي، وقد أحسّوا بوطأة الأيام وثقلها في بخارى بعد الذي حدث فيها!!» وانتقلت عيناى بين الضيوف في محاولة مّي للتعرف على من كنت التقيتهم أثناء إقامتي وربطتني بهم مودّة بدأت تتأكّد كلّما التقينا وتحدّثنا؛ ولكن يبدو أنّ كلّ من تعرفتهم قد اختفوا لسبب أو لآخر، ودعوت الله تعالى أن يكون قد حفظهم من عيون العسس وأيدي الجلاوزة... اجتزت عتبة الخروج، ولا أدري لماذا كانت تجتاحني آنذ مشاعر الرضا والطّمانينة رغم ما كنت فيه من الضنك والحصار، واتّجهت إلى السّوق مثلما كانت عادتي منذ ثلاثة أو أربعة أيّام. كان في السّوق رجل خياط، وكان له حانوت صغير، والصدفة وحدها هي من وضعتني في طريقه. وكان ذلك حين تمرّق قفطاني. ولم يكن لي غيره؛ وكنت مضطرا إلى إصلاحه، فمررت على حانوت «شمس الدّين». وكان ذلك اسم صاحبي؛ وحين أخبرته أنّ قفطاني هو الذي يقيني برد بخارى القارص الذي هجم في ذلك العام مبكرا، وعلى غير توقّع، وأني رجل قد دقّ عظمي وقلّ لحمي من التّجوال والضّرب في الافاق، أشار إلى كرسيّ وطيء بجانبه وأمرني بالجلوس ريثما يفرغ من إصلاح شيء كان في يده، وأشار إلى غلام له في الدكان بأن يأتيني بكوب من القرفة من المقهى المجاور لحانوته... كان يجتاحني شجن في ذلك اليوم، وكان من العمق بحيث أنّه جلب انتباه صاحبي الذي قال لي:

أيّها السيّد، اعذرني على تطقّلي؛ ولكن سأقول لك شيئا، ربّما لا

---

تكون تجهله: «خلّها على الله! فهذه الدّنيا لا أمن فيها ولا أمان، وهي آيلة إلى الزّوال، ولا يبقى فيها إلّا وجه الدّيان.»

لم أستغرب ذلك القول منه ولم أعتبره تدخّلا في شؤوني، وأنا الذي عرفت البخاريين واحترافهم بكلّ القادمين إلى بلادهم، سيّما الغرباء منهم... لقد كان يفد على بخاري في كلّ يوم عشرات الطّلبة من سمرقند ومن جرجان وطبرستان وأزجان ومن خراسان ومن الرّيّ البعيدة لشهرة علماءها الذين كانوا يدرّسون في جامعتها الكبيرشّي العلوم من فلسفة ورياضيات وفقه ونحو وكلام وأستطيقا وجغرافيا وأدب الرّحلة الذي كان مستحدثا في ذلك الرّمان؛ وكنت رغم اطلاعي وحصولي على إجازات عديدة من شّي الأمصار والبلدان ألمّ ببعض أولئك العلماء فأخذ عنهم وأحيانا أجاد لهم.

شعرت في داخلي، لأوّل مرّة بعد أيّام عديدة من الخوف والمطاردة بالسّعادة، وقلت أترك لهذا الرّجل الطّيّب أن يتكلّم، فاتّجهت صوبه مشعرا إياه أنّي كلّّي أذان صاغية، وقد وطّنت نفسي على الصّمت، إلّا أن يكون ما سأقوله ردّا على سؤال لا بدّ من الردّ عليه.

قال الرّجل:

إنّ في حياتي، أنا الرّجل الضّعيف، لعبرة؛ وإته لو كان رجل أميل إلى اليأس والإحباط لكنت أنا ذلك الرّجل، ولكنك اليوم تراني، رغم فساد الحكّام وتكالب الرّمان، راضيا بقدري صابرا على ألمي... واعلم أنّ اسمي شمس الدّين، وأنا لست من هذه البلاد، وإنّما جنّت إليها من «بيكند» بعد أن عدا اللّصوص وقطّاع الطّريق على بلادنا وسرقوا كلّ شيء فيها، ولم يكن أمامي إلّا الهروب كما هرب غيري؛ ولحسن حظّي لم أكن ثقيل الظّهر، فلا زوجة خلّفت ورائي، ولا أبناء أحمل همّ حمايتهم وإطعامهم؛ وجئت إلى بخاري...

ثمّ صمت قليلا، وهو يضع ما كان بيده على نضد قريب منه؛ وبدأ بإصلاح قفطاني، ثمّ قال بعد لأي:

---

لقد كانت بخارى، بلد الأمن والأمان، قبل أن يتغير كل شيء فيها، حتى أنهم أخذوا في اضطهاد العلماء، وكل من يقول شيئاً خارجاً عما يريد الأمرء أو يجاهر برأى لا يوافق هوى الفقهاء، وقد سمعت أن «ابن سينا» قد غادرها متخفياً بعد أن ضيقوا عليه الخناق...

وصمت قليلاً، ويبدو أنه أدرك أن الكلام قد أخذه وأنه كان ينبغي عليه أن يشركني في حديثه، فقال يسألني:

معذرة، يا أخي، فقد تركت للساني العنان، ونسيت أنك ضيفي، وكان ينبغي لي أن أتركك تتكلم بدل أن أستأثر بكل الكلام... هل لي أن أسألك: ما اسمك؟!

قلت:

اسمي طاجيك.

ربما بدا الاسم غريباً عليه، فقد لاحظت على وجهه علام الدهشة والاستغراب، ولكنه تدارك نفسه لئلا يجرحني أو يثير شكوكي ناحيته، فقال:

يبدولي أنك جئت من بلاد بعيدة!!

قلت:

نعم، أنا من بغداد.

قال يسألني:

اسمك غريب: فكيف تقول إنك من بغداد، وفي بغداد لا يسمون

أبناءهم بهذا الاسم؟!

قلت:

أنت، على حق، يا سيدي؛ فأنا قد جلبت إليها رقيقاً واشتراني رجل

طيب وضممني إلى أهل بيته فنشأت كواحد من أبنائه وعهد إلى ابنته الوحيدة أن تربيني.

قال:

فهمت الآن! فما الذي جاء بك إلى بخارى؟ هل أنت تاجر من

---

---

التَّجَار؟

قلت:

.لا. بل أنا سندباد أجوب الأمصار ورخالة في بلاد الله أبغي الفرجة  
والتَّعَرَّف على الأقطار...  
وأخذنا في أحاديث كثيرة كانت تتشعب وتتعرَّج إلى أن جاء المساء،  
وفي الأثناء جاء غلامه بأباريق وأكؤس من القرفة والزَّنجبيل كنَّا نشربها  
على وقع المطر الخفيف الذي كان ينزل في الخارج... ومن ذلك اليوم،  
صرت أتردّد على صديقي «شمس الدّين»، وقد ربطت بيننا أو اصر  
صداقة ومحبة ليس إلى انقطاعها سبيل.

الضنّى والضنك؛ ومن للغريب؟! في زاوية في غرفته بالخان، يتطلّع من الكوة الصّغيرة إلى الخارج في أواخر النهار، أو بداياته؛ فهو لا يدري تحديدا... كانت السماء تبكي في صمت، والمياه التي تنزل كانت تكوّن سواقي رقيقة في الجوار. لا يدري لماذا كان المطر دائما يبعث فيه من الحزن بقدر الذي يمنحه من الفرح؛ وهو لا يذكر إلاّ أنّه يافع في منزل سيّده ببغداد، في الأوقات الشّحيحة النّادرة التي كان ينزل فيها المطر؛ ورغم وقوف بوارن له بالمرصاد كان يغافلها ويدلف إلى الخارج فيعرض وجهه بكلّ فتنة للماء، ويندفع في الغناء بلغة أجنبيّة، لأنّه لم يكن قد تعلّم العربيّة بعد... كانت كلّ جارحة فيه تغني، وكان قلبه يتمدّد وينقبض في آن، وكان يشعر كأنّه ليس غريبا عن كلّ ما حوله؛ وأنّ بغداد بلده كما ذلك البلد الذي جاء منه، ولو أنّه لا يذكر عنه شيئا... كانت بغداد هي البدايات ولم يكن يعلم آنذاك أنّها ستكون هي التّهايات أيضا. لم يكن يعلم أنّه كان يبكي في صمت، لأنّ الدّموع تسقط على خديّه الخاسفين وتتخلّلان لحيته الصّهباء، ولكنّ شيئا في داخله كان يترقرق، ويخبره أنّ الغريب مثله إذا تأكّد لديه أنّ هناك في مكان ما من يذكره ويسأل عنه ويرسل له المراسيل، قسيكون ذلك غاية المراد؛ فأما - إذا لا قدر الله تعالى . غاب ذلك الشّخص أو رحل، فسينقلب كلّ شيء رأسا على عقب، وسيعمّ الدّنيا الفراغ، وسيكون الموت هو النّهاية المحتومة. منذ وطئت قدماه بخارى، لا يدري لماذا أدمن قراءة ابن سينا، سيّما كتبه في الفلسفة، وكان إذا تعب منها أخذ يقرأ شيئا في الطّب. كان يقف عند عبارة بعينها لا يتعدّها، وكانت تلك العبارة هي قطب الرّحى!! أه، لتلك العبارة! هل كان ابن سينا يصف وضعا؟

أم كان، على العكس من ذلك، يشير إلى النفس، يشير إلى الجروح التي في الداخل، إلى دماغ القلب، الذي إذا أعجزه النسيان كان موته وهلاكه؟! آه، لتلك العبارة: «إذا كان المرض خفيًا في الباطن استحال البرء منه وكان الهلاك.» كان قلبه يمتلئ بوالده أبي السَّعود، حتَّى وهو على أبواب الكهولة: أمَّا إذا ذكر بوران فإنَّ روحه ترقَّ وتشفَّ. ماذا لو ماتت؟ ماذا لو مات والده أبو السَّعود؟ ماذا لو مات كلٌّ من يسأل عنه؟ هو الغريب في بلد لم يعد غريبًا لديه الآن... بخارى، آه يا بخارتي! لو تعودين كما كنت! حينما دخل عليه مسعود كان ما يزال على تلك الحالة من الهميان؛ وكان الغلام يعلم عن سيِّده تلك الشُّرودات بحكم اتِّصاله به خلال إقامته في الخان، لذلك قام بترتيب الغرفة في صمت، وأعدَّ له الشَّاي، ووضعه على طاولة قصيرة القوائم في الوسط وأفرد أوراقه في انتظار أن يؤوب سيِّده أخيرًا إلى نفسه.

اتَّخذ مجلسه المعتاد، وبعد أن شمَّر كَمَّيه واعتمد بيديه على الطَّولة أخذ يملي عليه في صوت تشوبه شجنة:

قال شهريار: «وعدنا جميعًا إلى قصر لم يشهد العالم مثله، وحول ذلك القصر كانت الدَّور العامرات وكانت الحدائق المعلَّقات، وكانت الأنهار الجارية، والطَّيور الصَّادحات؛ وكانت هناك الجواري والغلمان الذين استقبلونا بالمزاهر والدَّفوف، وكانت الملكة تمسك بيدي، وتضغط عليها من حين لآخر، لتذهب عني اضطرابي، وتمحو من رأسي اكتئابي... وكانت الليالي الثلاثين التي مرَّت بعد ذلك كلِّها أعراسًا وأفراحًا، كلَّ ليلة تمرَّتكون أمتع وأجمل من التي قبلها، وأنا والملكة في الفراش لا نخرج إلَّا ماما... وكان كلُّ شيء يأتينا إلى جناح الحریم، المائل التي لم أشهد مثلها في حياتي. والمياه المروَّقة بالورد والزَّهر؛ والمغنيات المغنَّون وهم ينشدوننا إلى آخر ساعة من الليل... إلى أن زلَّت قدمي وحنَّ حينئذٍ...»

ونظر إلى مسعود من طرف خفيٍّ؛ رآه وهو يكتب ينصبُّ بكلِّ ثقله

على الطاولة وهو يحاول أن يجاربه ولا يفوته ممّا يقوله شيء. كان أجمل ما يعجبه فيه صمته، هدوؤه، انفصاله عمّا يكتب، فلا يتأثر بشيء، فكأنّما ما يكتبه لا يتجاوز سمعه إلى قلبه، أو أنّ ما يكتبه لا يعنيه فيه إلاّ أنّه سيتقاضى عليه ثمنًا... رفع رأسه إلى السّقف؛ ونازعته نفسه إلى التوقّف في تلك اللّحظات وصرف الغلام ليخلو أخيرا إلى نفسه؛ فقد كان يشعر بحزن ما عليه من مزيد؛ ثمّ عدل عن ذلك، وتطلّع إلى مسعود، وودّ لأوّل مرّة مذ حلّ ببخارى لو كان له ولد مثله يصحبه في رحلاته ويخدمه. ذكر أبا الطيّب المتنبّي وابنه محسّد، وحسده؛ وذكر آخرين كانوا إذا خرجوا أو اضطرتهم الظروف إلى المفارقة استصحبوا فلذة أكبادهم ليكونوا قربين منهم، ليذكروهم أنّهم لم يغادروا وأنّهم مقيمون... قال لمسعود: «اكتب، يا ولدي، أنّ شهرياركان لا بدّ له من يوم، وجاء ذلك اليوم أقرب ممّا كان يتوقّع؛ كانت الملكة هي أجمل النساء في المملكة، بل أجمل من كلّ النساء اللّواتي عرف في حياته؛ ولكن كان يجد عزوفا حين تقبل عليه، كان ربّما يرى جمالها من النّوع الذي لا يتخذ للعناق والتقبيل، وأنّه شيء سماويّ، لا يطال، وكانت تستهويه الجوّاري اللّواتي لم يكن جمالهنّ يساوي شيئا إلى جمالها، وكان يخلو بهنّ كلّما سنحت الفرصة في كلّ مكان. في الزّوايا المظلمة، في طرقات القصر، في المقاصير الكثيرة التي كانت تزوّد برائحة الطّيب والمسك، وحتّى في غرفة نوم الملكة حين تكون في الخارج لقضاء شأن من الشّؤون... كان يتمنّى لو طال كلّ ذلك، لو امتدّت متعته إلى أقصاها، ولو أنّ الوزير لم يقيدّه بذلك الشّروط. لا يدري ماذا اعتراه في تلك الأيام، أو لماذا كانت تقوده جوارحه إلى تلك النّساء وهو الذي يمتلك ملكة لم يجد الزّمان بمثله؛ هل هو الضّعف البشريّ أمام الجمال، أو بالأحرى أمام الشّهوة الضّابحة التي لا يملك الإنسان حيالها إلاّ أن يستسلم؟...» وتوقّف، رثا لحاله؛ لم يكن قد طرح سؤالاً من هذا النّوع على نفسه من قبل؛ ماذا عنه هو؟ ماذا عن رغباته وشهواته؟ ماذا عن

أسراره؟ وتلك البرك المظلمة بداخله؛ هو الذي لم يعرف من النساء إلا بوران، أو صديقاتها اللواتي كنّ يزرنها من حين لآخر في منزل والده أبي السعود؟... لقد كان يمرّهنّ فيخفض رأسه، يمضي في صمت دون أن يكلف نفسه حتّى عناء الاستماع إلى ما يقطن؛ هل كان يشعر أنّه إن فعل سيتورّط في إثم ما؟ ستتلوّث نفسه وسيفقد طهره وبراءته؟ كان ينظر إلى بوران ويراهها المرأة الوحيدة التي لا يشعر حيالها بالحرج؛ وكان يراها أمّا ويراهها أختا ويراهها حبيبة وكان يراها كلّ شيء؛ وكانت بوران، بشكل ما، قد أفسدت عليه علاقته بالمرأة. في بخارى، كانت تمرّ به النساء في الأسواق، وفي الأرباض، وفي كلّ مكان، ورغم أنّ كثيرات منهنّ كنّ متنقّبات، كان يعلم أنّ منهنّ من كانت تمرّ به، فتحدّ فيه بصرها، وتأمّله بإمعان، وأنّ فيهنّ من كان يجد في عيونهنّ دعوة صريحة، ولكنّه كان يغضي، كان يطرد شياطين اللذّة من حوله، ويمضي في حال سبيله. يذكر حلقات العلم في بغداد وما كان يقوله شيوخه عن العالم الرّبانيّ الحقّ؛ وكان يرى نفسه دائما من أولئك الذين لو دعتهم آلاف النساء من ذوات المال والجمال، فسيقول في ثقة: «إني أخاف الله تعالى ربّ العالمين!!» كانت تلك الأفكار تحاصره، تتعقّبه، وهو يملئ حكاية شهر يار، شهر يار الذي ضبّطته الملكة أخيرا متلبّسا مع بعض جواربها على فراشهما؛ وكانت أن أخبرت عنه الحرس فجأؤوه واقتادوه إلى بئر السّباع... كانت تنظر إليه وهو يصرخ، وهو يستغيث. وكانت تريد أن تعذّبه. أن ترى خوفه في عينيه، وفي يديه، وفي كلّ جارحة من جوارحه الأثمة، ولكنّها لم تكن تضمّره شرا، ستتركه يذهب، سوف لن تتركه يوما واحدا في المملكة، لأنّ من خان مرّة سيخون مرّات؛ ويكفيها منه أنّه ترك ببطنها بذرة ستكون مشيرا إليه ومحिला. ستعلّمه - إن كان ولدا - أن لا يسرف، أن لا يسلس قياده لشهواته، وأنّه إذا قال قولا سيكون عند عهده وإله؛ أمّا إذا كانت بنتا فستعلّمها كيف تحفظ شرفها وتصون نفسها!!

---

أه، ثمّ أه، ثمّ أه!! ما باله قد استحال فيه كلّ شيء إلى عطالة، إلى خمدة لا براء منها؛ ما بال كلّ شيء فيه قد انقلب رأسا على عقب؛ وأنّ الحياة التي كانت تساوي عنده انطلاقا وبحثا قد غدت بلا طعم... كانت الحياة فيما مضى تعني كتابا بين يديه... أو مخطوطا جديدا سيحقّقه، أو صحيفة غريبة عن الزّمن القديم سيفكّ طلاسمها؛ وكانت الحياة شيئا كبيرا سيكون عليه أن يفهمه حقّ المعرفة؛ وسوف لن يدركه قدره إلا إذا عرف سرّها، وعرف أبعادها ومرامها، وعرف جهاتها التي سيذلّها عليها اصطربلابه، وتهديه إليها بوصلته، وهو البحار الذي لا يملّ من السّفَر؛ ولا يكاد يستقرّ بببيت والده ببغداد حتّى يستدعيه هاجس السّفَر من جديد... لقد كان يستهويه السّنْدباد، ولم يتوقّف يوما عن السّؤال. لقد كان سؤالاً لجوجا، ينبت في الرّأس ويظلّ يتسامق بعنقه إلى أن يتجسّد أمامه كائنا من لحم ودم يروم افتراسه أو قتله؛ وكان ذلك السّنْدباء السّعيد هو السّبب: «هل كان السّنْدباد اسمه فعلا؛ أم أنّ التّسمية تحمل في طيّها حبا بلا حدود للمعرفة؟!»، وكان يتساءل لماذا هو بالذّات دوننا عن جميع النّاس من كان عليه أن يكون سنْدبادا؛ وهو الذي له ببغداد والد يجلّه كلّ الإجلال وامرأة هي دوننا عن جميع نساء الكون تصلح أن تكون كلّ شيء دون أن يكون ذلك منقرا أو متعارضاً... أه، يا بوران، يا من أحسنّ تجاهك أنّك بمقام أمّ، وأنك بمقام زوجة، وأنك بمقام أخت، وأنك أميرة، وأنك ملكة، وأنك حديقة فينانة تحفل بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد... كان يبكي من الدّاخل، وكانت دموعه الغير المنظورة تلتبس بالدمّ الذي كان يتدفّق مباشرة من القلب إلى الدّماغ ومن الدّماغ إلى القلب؛ وكانت يداه حين تعتربه تلك الحالة (ولا يدري لماذا) تمتدّ لإراديا إلى كتاب «الدّلِيل» وإلى كتاب «الميزان»، وكتاب «البدايات في أصل المرامات» وكتاب «التهايات في غير المحدودات»؛ وكانت نفسه في كلّ مرّة تدعوه إلى أن يتصحّح ويقلّب، وأن يدقّق وأن يلتبس بتلك السّطور التي كانت

---

---

تأخذه إلى الهلام... إلى السديم... والظلمات الأولى حين لم يكن هناك نور، ولا شمس تضيء الكون، ولا قمر ولا نجوم، ولا حركة... وكان كل شيء مجرد سديم يعضده سديم؛ وكانت الأرض والسَّماء شيئاً واحداً بلا محدّدات ولا جوازات. تساءل أكثر من مرّة... قال لنفسه، وأعاد مرّات ما يقول، كيف يأتي الشيء فجأة من اللاشيء؟ كيف تأتي الحياة من الموت؟ وهل الحياة هي الموت؟ وهل الموت إذا أراد كان حياة وكان موتاً في نفس الوقت؟ والموت إذا قرّر أن يكون حياة فلحكمة ذلك؟ أم مجرد استيهام من استيهامات الذاكرة ونزوع إلى خلق العوارض والمحاميل ومداراة الجواهر ليكون على الإنسان فيما بعد أن يكتشفها ليعيد الفروع إلى الأصول؟ حين تعتربه تلك الأسئلة يحسّ أنّ رأسه تكاد تنفجر؛ وأنّه يريد أن يستحضر جنّة وشياطين، وأنّه يريد أن يذهب إلى كواكب أخرى، يتمنّى لو كان على سطح القمر، أو في المريخ، أو بين تجاويف الزهرة... نعم «فينوس»؛ يتأثّر فجأة ويذكر أنّ فينوس هي إلهة كلّ شيء جميل، كان الرومان يعظّمونها، وكذلك اليونان الذين كانوا يسمّونها أفروديت... وكانت فينوس هي الحبّ... وكانت هي الجمال... وكانت هي الخصوبة... وكانت هي الشهوة... وكانت هي الظلمة التي لما عجز الإنسان عن السيطرة عليها أو تفسيرها خرج إلى ظلّة بيته وأخذ إزميله ومطرفته الصّغيرة ثمّ أخذ يحفر في حذق وأناة، دون أن يكون لديه في البداية أيّة فكرة عمّا يمكنه أن ينحت، وكانت يده أكثر من عقله هي التي تتحرك وتحفر التّقاطيع والعلامات الفارقة في ذلك الجسد النّافر... في ذلك الجمال الوحشيّ الذي كان مرتبطاً دائماً بزيوس وأولمبه أو جوبيتر وعامله... أه، البدايات... الجذور... أصول الأشياء وهو المحدود في الزّمان والمكان، هو المشدود إلى فطرة القصور والمحدوديّة في عالم المرامات؛ لكم كان يشعر أنّه يريد أن يفكّ قيده، أن يرى ما لا يرى؛ ماذا تراه يكون خلف تلك الجسيمات الصّغيرة المنتثرة هنا وهناك. كان يعلم أنّ النّجوم مثلاً هي أكبر... أكبر

---

بكثير ممّا تبدو عليه في الواقع؛ وأنّ القمر... والشّمس كذلك... وزحل؛  
نعم زحل الّذي كان يراه، دونما سبب واضح، وراء كلّ هذا البلاء الّذي  
يعانيه... هذا النّحس الّذي يلازمه؛ ويراه شكسا إلى أبعد الحدود ويشدّ  
كلاّبتيه حول عنقه ولا يروم فكاهه... كيف هي الأشياء على الحقيقة  
يا ترى؟! وكيف يكون الإنسان في واقعه وأنيّة حاله وحقيقته متزامنا  
ومتلازما مع واقع كائنات أخرى لا يعرف عن حقيقتها شيئا، ويكون  
ذلك في الزّمان والمكان عينهما؟ ثمّ يتفكّر قليلا: هل هما المكان والزّمان،  
هما هما، عينهما؛ وأنّ تلك الأشياء الّتي يراها موجودة في التّوّ واللّحظة  
حقيقة لا مرأى فيها، أم أنّ حقيقتها هي حقيقة أخرى وزمنها ومكانها  
أخران، يفصله عنهما منطلق ولوغوس آخر؟! لكن ما هي الحقيقة؟  
ما هو اللّوغوس؟ وهل الحقيقة وهذا اللّوغوس حقيقتان؟! والحقيقة  
هي الحقيقة من أيّ زاوية نظر؟ من أيّ منطلق؟! وهل المنظور الإنسانيّ  
هو الوحيد أو المحدّد في مثل هذه المسائل أم أنّ هناك منظورات  
أخرى لحقائق أخرى؟! وأنّ الإنسان هو مجرد نقطة في بحر المراتم؛  
وفي عالم التّهاييات لا يعدو أن يكون مجرد أثر في سفر المجرات!! ذكر  
فرياب، في آخر زيارة إلّها، وطافت أفكاره بمسجدها الجامع، وتخيل  
الفارابي الّذي غادرها منذ زمن بعيد إلى بلاط سيف الدّولة الحمدانيّ،  
وتخيّله جالسا في زاوية من زواياه، وتخيل نفسه يحاوره، بجانب  
النّافذة الكبيرة الّتي كانت تفتح على عالم النّور في الخارج؛ وكان يلقي  
إليه بأسئلته، السّؤال بعد السّؤال؛ وقد كانت أغلب أسئلته الّتي  
يطرحها عليه إنكارية لا تستوجب أجوبة أو توضيحا؛ ولكنّ بعضها  
الآخر كان أشبه بالطّنين المؤرّق، كان أشبه بالذبذبة الّتي ما تنفكّ  
تزعج وتقلق... كان يرى البسمة تعلقو شفّتي المعلّم الثّاني وهو يملّس  
بيبّاء على عثنونه ويشرد؛ وقد كان، هو طاجيك، عاجزا عن تفسير  
تلك الابتسامة. غير أنّه كان يعلم أنّ تلك الشّروقات الصّغيرة للمعلّم  
الكبير كانت تحمل همّا كهّمه، وأنّ الفلاسفة أنفسهم، مثله، تورّقهم

---

الحقائق وتشاكسهم البديهيات التي كان العامة يمرّون عليها ولا يلقون إليها بالا... حينما كان الفارابي يحاوره لم يكن همّه أن يفرض عليه رأيه، أن يجبره على اتّباعه، بل كان كمن يريد أن يصل إلى شيء محدّد معه، أن يبني وإياه منطلقاً للفهم والتّفسير، أن يصلا معاً إلى بناء نسق للحقائق، وأن يدركا ما وراء المنطق واللّوغوس؛ واختفى الفارابي فجأة وتركه لأسئلته، القلقه، ولساعات التّهار الطّويلة مع كتبه، وصحائفه، ومخطوطاته، يورد ثمّ يصدر، ويصدر ثمّ يورد؛ ولا مجال لحقيقة أخرى غير الحقيقة الإنسانيّة التي رغم أنّه لا يعرف عنها شيء الكثير إلاّ أنّها تظنّ هي الحقيقة المتوقّرة؛ أمّا حقيقة المذنبات والمجّرات والكواكب والنّجوم، وحقيقة السّماء، وحقيقة الأرض، وحقيقة الباطن، فما زال يجهل عنها الشيء الكثير... على أيّامه، كان النّاس قد اكتشفوا شيئاً كالّدخان، كانوا يسمّونه التّمباك، وكانوا يرصّونه في آلات يسمّونها الأراكيل. لم يكن رأى ذلك في بغداد، أو البصرة، أو الكوفة، أو دمشق حين زارها قبل (... هجريّة، ولكن رأى كلّ ذلك في دسكرة من دساكر ما وراء التّهر، ولم يكن ذلك في بخارى، في آخر زيارة له إليها، وكان يمرّ بالخانات التي كان يتّخذ في بعض جوانبها ما يشبه القهوة الصّغيرة كان يجتمع فيها بعض من أهل البلد أو الغريب لشرب كووس السّحلب أو القرفة أو البابونج أو اليانسون، وقد رأهم يدخّنون ذلك الشيء الذي كان يجلبه صبيان المعلّم الذي كان يقوم في آخر المكان على دكّة وطينة ويدخّن تمباكه بصمت. كان يمرّ بالمكان ويتردّد، يتساءل بينه وبين نفسه، ترى ماذا يفعلون؟ وما هو ذلك الشيء الذي كان يرتفع في فضاء المكان فيغلّفه بطبقة شفيفة أشبه بالسّراب؟ وكان يمرّ في البداية مسرعاً دون أن يسترعي المشهد انتباهه، ثمّ صار بعد ذلك كلّما مرّ أبطأ، يودّ لو يكون هناك معهم يجربّ معهم ذلك الشيء، ثمّ انتهى به المطاف أن غدا واحداً منهم... أوّل ما يدخل يشير إلى الصبيّ، فيدرك الغلام طلبه دون أن يتكلّم، ويأتيه بصينيّة

---

---

الشَّاي الثَّقِيل وبالْأرْكيلة، ثمَّ يسرح، يهيم مع أفكار الوجود، وفلسفة الخلق والبدائيات، ويصير الدَّخان ليس ذلك الدَّخان الَّذِي يدخنه ولكن مدخلا إلى عوالم الإستطيقا، ومجاهل الرِّياضيَّات وفراغات الثَّقوب السَّوداء، وفيزياء الظَّلَال، وفيزياء الكَمِّ، وملخَّصات كشوفات الفيزياء... لقد كانت الأركيلة تمنحه فرصة للاكتشاف، للهروب وراء سيول أفكاره في محاولة ربَّما للتلبَّس بالمستحيل ومعانقة المجهول السَّماويّ...

في وقت ما، لا يدري موقعه من ساعات النَّهار، أو ما إلى مسعود، لم يكن في حاجة إلى الكلام ليفهم عنه، خرج في صمت، واتَّخذ مكانه على النَّضد، كان يريد أن يهدِّئ من جيشان أفكاره بالكتابة: أخذ القلم، وراح يكتب ويكتب، وكان الملك شهريار وشهرزاد ويرفغ، ما يزالون في مكانهم، وقد أنهى الملك حكايته مع الملكة وأهل المملكة الَّذي كانوا مستعدِّين لرميه في بئر السَّبَّاع...

أخذ القلم، دون أن ينظر إلى الرِّقعة أمامه، واشْرأب بعنقه إلى السَّقْف، وراح يتأمَّل الشقوق الَّتِي كانت منتشرة في كلِّ مكان، وتساءل بينه وبين نفسه، هل هناك من غير الإنسان من يشيخ؟ وهل الإنسان الوحيد الَّذي يشعر بوطأة الزَّمن عليه؟ وهل الأشياء والجمادات عطل من الأحاسيس والمشاعر؟ أم أنَّ لها دورة تنضبط بها من الحسِّيَّات الغير المرئيَّة، لا يدركها سواها؟ وإن بدت متماسكة شامخة، فإنَّ فيها من الإشارات ما يحيل على موتها وإن ظَلَّت في مكانها لا تريم؟ هذا السَّقْف، كم عمره؟ من بناه؟ كم مرَّ عليه من سني أهل الدُّنيا؟ وهل أنَّ التَّاريخ الوحيد ما يكتبه الإنسان أم أنَّ هناك في عالم الجمادات من يكتب أيضا بلسان غير اللِّسان وعلى رقاع غير الرِّقاع؟ وهو يكتب لكائنات غير منظورة؟ فيعرف متى كانت الأشياء؟ ومتى انتهت؟ ويعرف الزَّمان الغير المرئي الَّذي هو نقيض للزَّمان الفيزيائي؟ ويعرف خارج عالم الإنسان عوالم لا يمكن أن يحيط بها اللِّسان؟ وتطرَّق إلى الحكاية

---

المنسيّة، حكاية شهرزاد التي ادّخرتها ولم تحدّث بها أحدا حتّى تناول علمها الزّمان وانبعثت من جديد لتحكي، لتقول لمن يريد أن يسمع، ولمن لا يريد على حدّ سواء؛ فالحكايات متعلّقات ستبقى، ولا يضرب بعد ذلك أن تعرف أو لا تعرف. سيقول قائل إنّ الحكايات لوثات تتلبّس بالفكر، وإنّها حالات تصيب الإنسان حين تطيف به هلوسات الجنون، وإنّها خارج تاريخ الإنسان وخارج التّاريخ البشريّ، وإنّها عقار النّسيان، وهي سلوى يهرب بها كاتبها إلى تخوم قصوى حيث يتصوّر نفسه التّاجي الوحيد بعد مهلكة أتت على كلّ شيء. ويقول طاجيك لنفسه، وهو يصعد الزّفّرات، وينسى لحين أنّه يحمل قلما وأنّ أمامه رقعة يجب عليه أن يملأها بما تنهى إليه من حكاية شهرزاد: «طيّب لنفرض أنّ الحكايات أشياء غير معقولة، بمعنى أنّها أشياء غير تاريخيّة، ولا تمتّ بوشيجة قربي إلى الزّمان أو المكان. وهي لغو من اللّغو، فكيف توصّل إليها الإنسان إذن وسبّكها على ذلك التّسّيق العقلانيّ، وأحسن إخراجها في أحسن مظهر؟...» قال طاجيك: «اللّغو ليس له منطق، وهو الوحيد غير التّاريخي، بمعنى أنّه ليس فعلا في الواقع، وأنّه ليس إخراجا من عدم الأشياء إلى نور المحسوسات؛ فكيف انوجد إذن إذا لم يكن حقيقيا؟» قال طاجيك: «ما دام الإنسان الذي أوجد، وأنّ الإنسان هو الذي قال، وما دام الإنسان واقع حال وهو حقيقة، فإنّ ما قاله أو سيقوله لا بدّ أن يكون من جنسه؛ بمعنى أنّه حقيقيّ!!» وقال: «لنضرب على ذلك مثلا، فنقول، إنّ هناك من الأشياء ما كان يعتبر خرافة وتجديفا، أو خترفة، وتوصّل الإنسان بعد ذلك إلى إثبات أنّ ذلك التّجديف أو الخترفة لم تكن سوى كمونا في حالة وجود بالقوّة لم يفعل ذلك الإنسان إلاّ أن أخرجها إلى حيّز الوجود بالفعل: فإذاً ليس هناك خطّ فاصل بين ما هو عقل وما ليس بعقل، وبين وهم وخيال وبين حقيقة، وبين ما هو موجود فعلا وما هو غير موجود، مادام في النهاية سيوجد كلّ شيء، وما لم يوجد في عصره سيوجد في عصر غيره... إذن الحقيقة مطلقة وغير

---

مطلقة. والمنطق واحد وغير واحد، والإنسان كمون وفعل، والإنسان وهم وحقيقة، والوجود وجودات، والذّات ذوات؛ وحتّى في الإنسان الواحد، لا توجد هناك ذات واحدة، وقد يكون الإنسان منطويا على عشرات الذّوات الّتي تعبّرعنه في كلّ طور من أطوار حياته!!»

ينوء بالفكرة، ترهقه العبارة، يهّم بالقيام ثمّ يجلس، ويهّم ثمّ يجلس من جديد، كان إلى جانبه كأس القرفة، قرّبه من فمه، وتمنّى للمرّة الأولى في ذلك التّهارلو كان في القهوة. حنّ إلى رائحة التّمباك؛ وإلى تلك الجلبة المحبّبة في الداخل. وكان يقلّب في نفسه أمر ذلك الرّجل صاحب القهوة. الحاضر الغائب دوما. لم يره يوما يتكلّم؛ وهو إن اشرب عنقه إلى حلقة الجلاسّ وامتدّ بصره إلى الأمام، فلا ليرى من هو أمامه أو بإزانه، وإنّما يتطلّع (كان طاجيك يرى أنّ عينيه فيهما حسرة وشجى) إلى كائنات غير مرئيّة كان يحاورها أو ربّما يتعاطى معها في صمت. طاجيك ارتدّ إلى نفسه. قال، هل أنا أختلف عن ذلك الرّجل الّذي لم يكن يعرف حتّى اسمه؟ هل أنا سعيد بمقامي في بخارى، حتّى وإن كانت بخارى أجمل من كلّ ما رأيت من البلدان والدّساكر والقصبات؟! ودّ لو كان في القهوة، ودّ لو اقترب، لو لمّح، وأبدى رغبة في القرب، يقولون إنّ الأرواح تتقارب مثلما يتقارب قطبا المغناطيس؛ والرّجل يبدو أنّه من طينته، وأنّه غريب مثله، وإن بدا مقيما... ارتدّ إلى قلمه وأوراقه ورقاعه، وقد أضمر في نفسه أن يكون شجاعا في المرّة القادمة، وأن يقدم، إن لم يكن لأجل قربي رجل من رجل، فلأجل الفضول والبحث عن حكاية جديدة يملأ بها فراغ الأيّام. كانت بين الحين والحين، تتردّد في أذنه مقاطع حيّية من أغنية لم يكن قادرا على تبيّن كلماتها، ولكن ما كان يشدّه منها نغمها الحزين، نبرها الّذي كان يحمل في طيّاته حزنا وشجى؛ ويبدو أنّها لم تكن المرّة الأولى الّتي يسمع فيها الأغنية؛ فأين سمعها؟ ومن يكون غناها؟ ما هو متأكّد منه الآن أنّ ذاك الجمال وهو يغزو كلّ ذرات بدنه ومسامه كان وخزا يحمل في طيّاته وخزا أنثويّا؛ كان

شيئا مثل الأثير الذي يرفّ فجأة كجناحي طائر ليحمّله إلى عوالم لم يرمثلها في حياته، وهو الحيران، وهو المستهام، وهو الرّجل الذي كان قلبه يتكلّم بكلّ لسان... قَرَبَ القلم من رقعته، وتخيّل، أو رأى يرفع يجلس على مبعدة من سيّده وسيّدته، وقد كان يحجم أن يبوح، بعد أن أبدى في البداية رغبة في الكلام؛ كانت نفسه تنازعه أن يتأبّى، أن يدلّ قليلا، قبل أن يقول كلّ ما لديه، لقد كان يظنّ أنّ الأمرهون من أن يتحدّث فيه، ولكن سيماطل قليلا حتّى يعطي لنفسه وقتا يكون فيه مهمّا للمرّة الثّانية على التّوالي في حياته؛ المرّة الأولى حين طلع على شهرزاد من خاتمه، وقال لها بكلّ فخر واعتزاز: «شبيك لبّيك، عبدك يرفع بين يديك! اطلبي وتميّي..» والمرّة الثّانية، في مقامه ذلك، بين السيّد والسيّدة، وهو يستعدّ في البداية ليخبرهما كيف استولى السّودان على بغداد، ثمّ ليحمّلهما بعد ذلك في رحلة لاسترجاع أمجاد أجدادهما، وصلب السّودان على الخوازيق، وجذوع النّخل، وعرضهم للرّائح والغادي في شوارع دارالسّلام... في لحظة ما، كان طاجيك متحيّرا في أمره: هل يصرّح؟ هل يقول كلّ شيء؟ هل يكشف نفسه بالكلّيّة أمام من سيقدّر له أن يقرأ الحكاية المنسيّة؟ أم يكتفي بالتلميح؟ أن يقتضب قدر المستطاع؟ ولا يدري لماذا طرأت عليه في لحظته تلك مملكة العروض، وذكر أنّ في بحوره بحرا باسم المقتضب، وقد قال فيه صفّي الدّين الحليّ: «اقتضب إذا سألوا\* مفعلات مفتعل» أثر أن يسترسل، أن يقول كلّ شيء. فهو قد أزمع من البداية أن تكون حكايته حكاية فعلا، وليس مجردّ جمل منزوعة من حشاشة نفسه: «كانت شهرزاد تنظر إلى شهريار، ورغم إحساسها بالغيرة التي لم ترد لها أن تعبّر عن نفسها في ملامح وجهها، فقد هنّأتها بالسّلامة: وكان شهريار يقلّب طرفه بينها وبين يرفع، وبين كائنات غير منظورة كان الوحيد الذي يراها: وكان بعيدا... بعيدا جدّا بخياله وبكلّ جوارحه... قالت شهرزاد مخاطبة يرفع، بصوت يعلو حينها ويخفت أحيانا أخرى، ربّما لجلب انتباه الملك:

«هيه، يا يرفع، هات ما عندك!» نظر يرفع إليها ثم إلى الملك، وقال: «اعلمي، أيتها الملكة السعيدة، أنه بلغني أن ابن زبيبة قد أخذ المدينة بحدّ السيف، وأنه قتل الرجال، وسبى النساء ووضع الأطفال في براميل من الصفيح وألقاهم في عرض البحر ليقضوا غرقا...» وصمت برهة، وكان يتلاعب بعثونه الصغير، وكانت ترفّ على شفّتيه ابتسامة صغيرة كان من الصعب تفسيرها، ثمّ واصل قائلاً: «ولو كنت هناك، لمنعت على الأقلّ أن يموت الولدان بتلك الطريقة الفظيعة... إنّه عبد، يا سيّدي، وإنّه ابن زبيبة، وإنّه لا عهد له ولا ميثاق، ولو كان الأمر لي لجرعته غصص الموت ولم أسقه الترياق؛ وقد بلغني أيتها السعيدة أنّ شاعرا مفلقا من شعراء الزّمان كان بمصر...» وانتظر قليلا، ليس لأنّه شعربقيّمته في تلك اللحظة، وإنّه أراد لشهرزاد أن تدرك قيمته، ولكنّه كان يدير في ذهنه اسم ذلك الشّاعر المفلق الذي سمع عنه ولم يره؛ ورفّ أخيرا اسمه على ذهنه، فارتسمت على شفّتيه ابتسامة الظّفّر، وقال: «لما أراد المتنبي السّفْر عن مصر، ومنعه كافور بعد أن كان وعده بتوليته أحد الأمصار التابعة إليه ثمّ عاد عن ذلك، تمكّن أحمد بن الحسين الجعفيّ، وكان ذلك اسمه، من الهرب بعد ذلك، وقد هجاه بقصيدة لم يرتأخ الأدب العربيّ أقذع منها ففهما يقول:

عيدٌ بأيّة حالٍ عدتِ يا عيّد  
بِما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ  
أما الأحبةُ فالبيداءُ دونهُمُ  
فليتِ دونك بيّداً دونها بيّدُ  
لولا العلى لم تجبِ بي ما أجوبُ بها  
وجنّاءُ حَرْفٌ ولا جرداءُ قيدودُ  
وكانَ أطيبَ من سفي معانقة  
أشباهُ رونقه الغيدُ الأماليدُ

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي  
 شيئاً تتيمة عين ولا جيد  
 يا ساقبي أخمرفي كؤوسكما  
 أم في كؤوسكما هم وتسهيد  
 أصخرة أنا ما لي لا تجرني  
 هذي المدام ولا هذي الأغاريد  
 إذا أردت كميته اللون صافية  
 وجدتها وحبيب النفس مفقود  
 ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه  
 أني بما أنا شاك منه محسود  
 أمسيت أروح مثرخازنا وبدًا  
 أنا الغني وأموالي المواعيد  
 إنني نزلت بكذابين ضيفهم  
 عن القرى وعن الترحال محدود  
 جود الرجال من الأيدي وجودهم  
 من اللسان فلا كانوا ولا الجود  
 ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم  
 إلا وفي يده من ننتها عود  
 كلما اغتال عبد السوء سيده  
 وখানে قلته في مصر تمهيد  
 صار الخصي إمام الأيقين بها  
 فالحر مستعبد والعبد معبود  
 نامت نواطير مصر عن تعالبيها  
 فقد بشمن وما تفنى العناقيد  
 العبد ليس لحر صالح بأخ  
 لو أنه في ثياب الحر مولود

لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ  
 إِنْ الْعَبِيدَ لِأَنْجَاسٍ مَنَاكِيدَ  
 مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنِ  
 يُسِيءُ بِي فِيهِ عَبْدٌ وَهُوَ مَحْمُودٌ  
 وَلَا تَوَهَّمْتُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فُقِدُوا  
 وَأَنَّ مِثْلَ أَبِي الْبَيْضَاءِ مَوْجُودٌ  
 وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدِ الْمُتَّقُوبِ مَشْفُورُهُ  
 تَطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطِ الرَّعَادِيدِ  
 جَوْعَانٌ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيُمِسُّ كُنِي  
 لِكَيْ يُقَالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودٌ  
 وَيَلْمُهَا حُطَّةً وَيَلْمُ قَابِلِيهَا  
 لِمِثْلِهَا خُلِقَ الْمَهْرِيَّةُ الْقُودُ  
 وَعِنْدَهَا لَذَّ طَعْمِ الْمَوْتِ شَارِبُهُ  
 إِنْ الْمَنِيَّةُ عِنْدَ الذَّلِّ قِنْدِيدُ  
 مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمُخْصِيَّ مَكْرُمَةً  
 أَقَوْمُهُ الْبَيْضُ أَمْ أَبَاؤُهُ الصَّيْدُ  
 أَمْ أَذُنُهُ فِي يَدِ النَّخَاسِ دَامِيَّةٌ  
 أَمْ قَدْرُهُ وَهُوَ بِالْفِلَسِّينِ مَرْدُودُ  
 أَوْلَى اللَّئَامِ كُؤَيْفِيرٌ بِمَعْدِرَةِ  
 فِي كُلِّ لُؤْمٍ وَبِعُضِّ الْعُدْرِ تَفْنِيدُ.

كانت شهرزاد تضحك في نفسها، وتتعجب من هذه المصادفات التي وضعتها في طريق هذا الجنّي الغريب؛ وكانت تقول: «جنّي يغني ويقول «يا لا لئي.» ويروي عن الشعراء، وهو الذي ربّما كان في قمقم لعشرات الآلاف من السنوات دون أن يختلط بأحد أو يختلط به أحد؛ ومع ذلك فقد كانت حريصة أن تتابعه إلى النهاية، فهو أملها الوحيد

في أن يسترجع شهر يار مملكته؛ فقالت تمازحه: «وتروي أيضا عن الشعراء، يا يرفغ؟ إني ما سمعت في الزمان عن جني يغني، ويروي عن الشعراء، ويتأذب بأداب الأدباء؛ ولكن سأهنتك على كل حال، وأهنت نفسي لأن الله تعالى وضعك في طريقي ولم يضعك في طريق أحد آخر من الناس؛ وأنا الآن أحوج إليك من أي وقت مضى...» وسكتت، ولكن ليس عن الكلام المباح في هذه المرة، لأنه لم يكن في المكان الذي هم فيه أي ديك ليصبح رغم أن الوقت أشرف على الفجر أو كاد؛ ثم تأملت المكان من حولها، وكان السكون مخيما، وكانت النجوم تتراقم كأنها تتغامز، وكانت السماء دانية، والقطوف جانية، وكانت كل الكائنات تسبح باسم الرحمن الذي علم القراءان، وخلق الإنسان، علمه البيان. ومن حين لآخر تسترق النظر إلى شهر يار، الذي كان قد غادر الديار، ديار الملكة، التي ربأت به عن الموت، ولكنها أثرت طرده، ربما لتنتظر قدوم رجل آخر أكثر وفاء لينكحها، ويولدها بنات وبنين... وكان يرفغ ينظر إلى كليهما، وعندما خيم الصمت، قال ليكسره: «سيدتي، علينا أن ننطلق الآن، ونفاجئ ذلك العبد اللعين ابن زبيبة قبل الفجر، وأن نورده موارد الهلاك، ونستعيد بغداد، ونطلق سراح العباد.» وبسط يديه، فصعد عليهما الملك والملكة، وانطلق بهما يرفغ في أجواز الفضاء، يخوض خلل سحب شهباء، وبيضاء، وسوداء، ووصل بهما إلى بغداد، قبل الفجر، وكان يعمل نيرانه وحرانقه، وحرابه، وسيوفه الكثيرة في رقاب كل من اعترض سبيله، حتى انتهى إلى مخبأ الزنيم ابن الزنيمة، وكان يريد فتاة جميلة من الصقالبة على نفسها، وكانت تصرخ من علياء خوفها، وهو يحاصرهما، ويضيق عليهما تضيق السوار على المعصم؛ فعاجله يرفغ بضربة من يده فأرداه أرضا، ثم ثنى عليه بضربة من سيفه، فأرداه قتيلًا، فخلص الجارية وكل بغداد من شره؛ وفي الصباح كانت كل المدينة تنثر الرياحين والزهور والنسر والأس على الملك والملكة ويرفغ، وكان الناس يقولون بصوت واحد بعد أن

---

زَيَّنُوا الشَّوَارِعَ وَالْمِيَادِينَ بِأَعْلَامِ الزَّيْنَةِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ وَالْأَحْجَامِ:  
«يَعِيشُ الْمَلِكُ... تَعِيشُ الْمَلِكَةُ... عَاشَ السَّلْطَانُ... عَاشَتِ السَّلْطَانَةُ.»  
وَقَالَ طَاجِيكَ: «لَقَدْ عَادَتِ الْمِيَاهُ إِلَى مَجَارِيهَا؛ وَاخْتَفَتِ فَجَاءَ شَهْرُ زَادَ،  
لَأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ بَعْدَ مَا يُقَالُ لِأَنَّ الْحِكَايَةَ الثَّانِيَةَ بَعْدَ الْأَلْفِ وَوَاحِدَ  
مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَتَيْنِ قَدْ انْتَهتْ، دُونَ أَنْ يُؤَدَّنَ لَهَا دِيكَ فَصِيحٌ، وَأَتَمَّهَا  
العَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّهِ طَاجِيكَ بْنِ لِأَمَارِ الْقَفْقَاسِيِّ، فِي خَانَ مِنْ خَانَاتِ  
بَغَارَى، فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ، رَجَبُ اللَّهِ تَعَالَى، فِي  
السَّنَةِ (...). لِلْهَجْرَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَى صَاحِبِهَا الْمُطَهَّرِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى  
التَّسْلِيمِ.» انْتَهتِ الْحِكَايَةَ، وَيَبْدَأُ. إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. الْفَصْلُ الْمَوْسُومُ بِ  
«التَّكْوِينِ».

حيران، أيها الرَّجُل؛ الصَّمت والوقت، وذكريات الأُمس الرَّاحل، وكلَّ شيء يهدأ من حولك، تختفي فجأة كلَّ المعالم، ما كان مؤسساً للمكان، وما كان يتشكَّل مع الوقت، كلَّ ذلك يمضي كخاطرة، وكأنَّ الكون بطمَّ طميمه يعود إلى حالته الأولى، حالة الفراغ والخواء: انظر، يا ولدي، ماذا ترى من حولك؟ وقلِّب الطَّرْف مرارا. هل أنت نفس الرَّجُل؛ ونفس الأشياء من حولك هي نفس الأشياء؟ أم أنَّ السنة اللَّهب الغير المرئية قد أخذت القصور والعصور، بعد أن أخذت الوجوه والملامح، ولم تترك غير ذاكرة النَّسيان الحزينة؟! في أوَّل السَّفَر كان يقرأ، ومن قبل السَّفَر سمع من ثقات من أهل الكتاب، لم يكونوا، هؤلاء، مثل أولئك الذين حرَّفوا وزيفوا، وأوردوا وأصدروا، حتَّى يثبتوا للهيكَل وجودا، وللحائظ عمودا، ولكن كان هؤلاء جوابة بالنَّهار، بحاتة بالليل. لا يغفل لهم جفن، حتَّى يروا بأعينهم قيامة من قام، وانبعث من سبيعث في قادم الزَّمان... كان السَّفَر أمامه مفتوحا، وكانت الأسطر تقرأ نفسها بنفسها، وكان يكفيه أن يمرَّر عينيه حتَّى ينطبع كلَّ شيء بذهنه، ويرى بعيني ذاكرته ميلاد الأشياء من السَّدِيم، وتشكَّل الأعضاء حتَّى من قبل أن تكون رميما: «**إِ فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْعَمُرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللَّهِ يَرِفُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. وَقَالَ اللَّهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللَّهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللَّهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَدَعَا اللَّهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةَ دَعَاهَا لَيْلًا. وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا. وَقَالَ اللَّهُ: «لِيَكُنْ جِلْدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلِيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهِ وَمِيَاهِ».**<sup>٧</sup> فَعَمِلَ اللَّهُ الْجِلْدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ

الَّتِي تَحْتَ الْجَلْدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلْدِ. وَكَانَ كَذَلِكَ. <sup>٨</sup> وَدَعَا اللَّهُ الْجَلْدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.» كان يريد، عند هذا الحد أن يعلق، أن يقول شيئاً ليكون قولاً على القول، وما أصعب ذلك؛ كان التوحيدى - رحمه الله تعالى - يقول: «إِنَّ القَوْلَ عَلَى القَوْلِ صَعْبٌ.» وهو يريد أن يقول، ولكن ليس أَيْ قَوْلٍ، ولكنّه قول على قول سماويّ، القول في البدايات، ومنشأ الكون من عدم، لذلك قرّب قلمه من الحاشية، في الجهة العليا من الجانب الأيمن، وراح يكتب: «والبدء لا يعلمه إلا الله، وهو بدء لا يمكن أن يحيط به عقل الإنسان ولو حاول: لأنّه، أي الإنسان، محدود في معمعة المكان والزّمان؛ ولأنّه واحد ممّن خلق الله تعالى وأبدع؛ فلذلك لم يكن من الممكن لمن هو محدود في الزّمانين والمكانين أن يصل فهمه إلى ما هو مطلق وسرمد. ثمّ كان القول في الخراب، والخلوّ، والأشئيّة، والعدم، ما خلا وجود الله تعالى القادر؛ وهو إن بدا هناك تمييز في البداية بين السّماء والأرض، إلاّ أنّه لم يكن هناك بادئ ذي بدء لا سماء ولا أرض، ولكن كان. والله تعالى أعلم. سديم؛ والأرض من الخراب، وإلى الخراب، وهي ظلّمة، بمعنى أنّ ماهيتها لم تكن سوى تلك الظّلّمة، فالظّلّمة ليست وصفاً، وإنّما هي تعريف شديد اللّصوق بالأرض؛ وما كان يمكن أن يقال ويقال في الأرض يمكن أن يقال أيضاً في السّموات، وإنّ استعريض على ذكرها بالأرض فقط... ثمّ قال الله تعالى، حسب ما ذكر في السّفر، لأنّه من غير المقطوع به أن يكون الله قد قال ذلك فعلاً، لما طرأ على السّفر من التّحريف والتّبديل: «ليكن نور.» لسائل أن يسأل: «فلماذا النّور؟ وهل كان الله تعالى فعلاً في حاجة إلى النّور وهو النّور الذي تنجلي به الظّلّمات؟» قال الشّراح والمفسّرون، والأخبار، وبعض ممّن اشتغل على أسفار التّوراة: «إِنَّ الله لم يكن في حاجة إلى النّور لنفسه؛ لأنّه كان غنياً عن كلّ شيء بنفسه، وكان مكثفياً بذاته عمّن سواه؛ وإنّما كان في علمه السّابق ظهور الإنسان الذي لم يكن قد خلق بعد وكان سبحانه

وتعالى بهيئته لعمارة الكون؛ فالأرض أرض الله، والله سيجعلها لخليفته في الأرض؛ والسَّمَوَاتِ سَمَاوَاتِ اللَّهِ، وإن لم يكن في حاجة إلى خلقها، لو لم يكن في علمه السَّابِقُ أَن سَيَكُونُ هُنَاكَ إِنْسَانٌ، وَيَكُونُ هُنَاكَ حَيَوَانٌ، وَيَكُونُ هُنَاكَ نَبَاتٌ، وَيَكُونُ هُنَاكَ تَسْخِيرٌ، وَيَكُونُ هُنَاكَ مَوْتٌ وَحَيَاةٌ، وَبَعْثٌ، فَسَبْحَانَ الَّذِي قَدَّرَ فَأَحْسَنَ التَّقْدِيرِ، وَسَبْحَانَ الَّذِي أَعْطَى فَأَجْزَلَ، وَتَفَضَّلَ وَمَنَحَ، وَصَوَّرَ فَأَبْدَعَ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ.» ثم يقول، وهكذا قرأ، بعد ذلك: «وَقَالَ اللَّهُ: «لَتَجْمَعَ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلَتُظْهِرَ الْيَابِسَةَ».

وَكَانَ كَذَلِكَ. ١٠ وَدَعَا اللَّهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمِعَ الْمِيَاهِ دَعَاً بِحَارًا. وَرَأَى اللَّهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١١ وَقَالَ اللَّهُ: «لَتُنْبِتِ الْأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزَرُ بَزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجَنْسِهِ، بَزْرُهُ فِيهِ عَلَى الْأَرْضِ». وَكَانَ كَذَلِكَ. ١٢ فَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزَرُ بَزْرًا كَجَنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بَزْرُهُ فِيهِ كَجَنْسِهِ. وَرَأَى اللَّهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١٣ وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

١٤ وَقَالَ اللَّهُ: «لَتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جِلْدِ السَّمَاءِ لَتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينَ. ١٥ وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جِلْدِ السَّمَاءِ لَتُنِيرَ عَلَى الْأَرْضِ». وَكَانَ كَذَلِكَ. ١٦ فَعَمِلَ اللَّهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الْأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الْأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. ١٧ وَجَعَلَهَا اللَّهُ فِي جِلْدِ السَّمَاءِ لَتُنِيرَ عَلَى الْأَرْضِ، ١٨ وَلَتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلَتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللَّهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١٩ وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا.» استرعت انتباهه. عند هذا الحد، عبارة «ورأى الله ذلك أنه حسن.» لم تكن لتفوته الإشارة في ذلك، وإن لم تكن من غير تصريح، فقد رأى فيها شيئاً يتنافى مع كلية العلم لله تعالى، وأن الله كان يخلق ما لم يكن في سابق علمه، وإنما كان. وتعالى الله على ذلك. يرتجل، وبمحض الصدفة كان ما يخلقه جميلاً... ثم توقف قليلاً عن الكتابة، ونازعته نفسه إلى شيء من التمباك في زاوية من زوايا تلك القهوة؛ كما

---

نازعته نفسه إلى كوب كبير من القرفة في ذلك اليوم الذي كان يبدو أنه سيكون مطرا... وقف ببطء، مستندا بيده على النضد، ومشى بضع خطوات إلى النافذة ونظر من خلالها إلى السماء. كانت السماء تختفي وراء جزر السحاب الكبيرة، وكان لا يبدو من كل بخارى سوى معالم مطموسة لا تفصح؛ ومن عجب أنه لم ير من السابلة أحدا، كأن الأمر قد صدر بإغلاق المنافذ في ذلك اليوم... لم يتوقف كثيرا عند تلك الأفكار، وكان يبدو أنه يعيش في عالم مفرد، منفصلا بنفسه عن كل شيء... نعم عن كل شيء؛ وبقدر ما كانت نفسه تنازعه إلى كتابة ما تخف به الوطأة، ويبعث على الفكاهة والطمأنينة كحكايات شهرزاد، أو السيرة الهلالية، أو رأس الغول وحكايته مع سيدنا علي، إلا أنه يجد نفسه يغرق في الأصول، في البدايات؛ تتعاوره الأسئلة، ولا يملك لها رداً، وقد كانت أسفار التوراة أمامه، وكان ما كتبه المؤرخون العرب من كتب وصحائف تختبئ في مخلاتيه في ركن من أركان الغرفة، وقد حمل معه قبل الخروج من بغداد، تاريخ الطبري، وتاريخ ابن الصيرفي، وتاريخ قائممقام شاه، وتاريخ ابن الشاهنشاه، وتاريخ رجل لم يذكر اسمه، لأن الورقة الأولى، أو الغلاف الذي كان مفروضا فيه أن يحمل كل ما يدل على كاتبه وعنوان الكتاب قد أتلّف... ولكنه كان يضمّر في نفسه أن يكتفي في البداية بكتابة الحواشي على الأسفار، أن يكتب شيئا يسيرا قد يكون مفتتحا لكتابة تاريخه هو، وسيكون تاريخه شيئا لم تعرف الإنسانية مثله من قبل، سيكون شيئا بين ما هو جماعي إنساني، وشخصي فردي... عاد إلى مكانه وأخذ القلم مرة أخرى، وراح يكتب، وهو يكدّ ذهنه ليقرأ ما وراء تلك السطور التي كانت مكتوبة في نفور: «في الظاهر تناقض، وقد يكون في الباطن كذلك؛ فما كنا قلناه عن احتمال ما أشار إليه كاتبو التوراة من أن يكون الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا، يرتجل إنما لا يتفق مع ما ورد بعد ذلك؛ فكون الله تعالى قد فصل الماء عن اليابسة، وأنشأ زرعاً وضرعاً، يشير، بما لا يدع مجالاً

---

للشكّ، أنّ الله كان يعلم علم اليقين، شكل هذا الكون الذي كان مزمعا خلقه؛ فاليابسة ضرورية حتّى يجد الإنسان موطناً قدم يبني فيه بيته الذي سيحتمي به من العاصفة والزّمهرير، ومن حوادث الطّبيعة المفاجئة؛ وكذلك المحيطات والبحار، والأنهار أيضاً، فلولا الماء لما قامت حياة، ولما كان هناك إنسان على وجه الأرض؛ ثمّ كان الله يعلم أنّ الإنسان لا بدّ له من قوت حتّى يحافظ على وجوده في بادئ أمره، ثمّ مواصلة نسله بعد ذلك، فكان هناك ثمرو بقل... وإنّما ذكر البقل والشّجر في عمومهما ليحيل على حقيقة أنّ الله خلق شجرا كثيرا وبقلا كثيرا؛ ولم يفته، وهو العالم بكلّ شيء، أن يجعل في كلّ ذلك بذورا؛ لأنّ الإنسان المناط به عمارة الكون ما كان لتكفيه أكلة واحدة من كلّ بقلة أو ثمرة، وإنّما، حتّى تتواصل مسيرته في الحياة، كان لا بدّ له أن تكون له بقلتان وشجرتان، وأن تكون له ثلاث بقلات وثلاث شجرات، وأربع بقلات وأربع شجرات وهكذا؛ فكانت البذور ضرورية لتزوّد الإنسان بما يكفيه لمعاشه...» أراد أن يطابق، بين ما هو موجود في التّوراة، وما كتبه المؤرّخون العرب، رغم أنّه كان يعلم أنّه سوف لن يكون هناك فرق كبير، فالمصادر تقرّبا واحدة، وقد أضافت إليها الإسرائيليّات الشّيء الكثير؛ وكان يعلم أنّ من أحبار يهود من أسلم، وكان يروي عن الأسفار القديمة وكان المسلمون يأخذون منهم دون تحرّج؛ فقد كان هناك الصّحابيّ عبد الله بن سلام، وكان هناك التّابعيّ كعب الأحبار، وكان هناك أيضا وهب بن منبّه... امتدّت يده إلى إحدى المخلاتين، وأخرج «تاريخ الأمم والملوك»، وراح يقلّب أوراقه الأولى، وعيناه، في أثناء ذلك، لا تنيان عن قراءة السّطور واستكناه ما وراءها، كانت شفتاه تتحرّكان، وكان يزعم أن يكتب على حواشي الأسفار ما سيظفر به من مواطن الاختلاف أو مواطن المشابهة: «(القول في الزّمان ما هو) قال أبو جعفر فالزّمان هو ساعات اللّيل والنّهار وقد يقال ذلك للطّويل من المدّة والقصير منها والعرب تقول أتيتك زمان الحجّاج أمير وزمن

---

الحجّاج أمير تعني به إذ الحجّاج أمير وتقول أتيك زمان الصّرام وزمن الصّرام تعني به وقت الصّرام ويقولون أيضا أتيك أزمان الحجّاج أمير فيجمعون الزّمان يريدون بذلك أن يجعلوا كلّ وقت من أوقات إمارته زمانا من الأزمنة كما قال الرّاجز ... جاء الشّتاء وقميصي أخلاق ... شراذم يضحك منه التّواق ...

فجعل القميص أخلاقا يريد بذلك وصف كل قطعة منه بالإخلاق كما يقولون أرض سباسب ونحو ذلك ومن قولهم للزّمان زمن قول أعشى بني قيس بن ثعلبة

... وكنت امرأ زمتنا بالعراق ... عفيف المناخ طويل التّغن ...

يريد بقوله زمتنا زمانا فالزّمان اسم لما ذكرت من ساعات اللّيل والنّهار على ما قد بينت ووصفت...» هنا يتوقّف طاجيك قليلا، ويتفكّر في أمره، ويضرب أخماسا بأسداس، ويقول: «ما كان العرب ليغفلوا عن أهميّة الزّمان، الّذي أجملوه في اللّيل والنّهار، لأنّ من مجموع اللّيل والنّهار يتراكم الزّمان ليعطي لنا السّنوات والشّهور والأيام والقرون؛ وبالزّمان أيضا يتحدّد عمر الإنسان؛ والإنسان يشيخ مع الزّمان، ويكبر مع الزّمان، وقد لا يتناول به زمانه، فيموت وهو ما يزال صغيرا، أو قد يموت وهو ما يزال في الرّحم؛ وإذا كان المسلمون قد اهتموا إلى قيمة الزّمان، فلأنّ الله تعالى شأنه هو الّذي ذكر ذلك في القرآن، وكون التّوراة قد بدأت بالخلق معزولا عن الزّمان فقد يكون مردّد ذلك، والله تعالى أعلم، أنّ مصادر التّوراة، ليست كالقرآن، موحّدة، وأنّ التّوراة لم تكن ريانيّة المنبع كالقرآن، وإنّما من كتب التّوراة هم الأحبار وعلماء الكنيّسات الكثيرة المنتشرة في الأصقاع، والّتي كانت تختلف في ميولها ومشاربها باختلاف المشرفين عليها؛ وقد يكون كذلك، والله أعلم، أنّ التّوراة كانت في الأصل حكاية عن الأعمال والأشخاص، ولم يكن القصد من ذلك إثبات تلك الأعمال بتاريخ وقوعها؛ فقد اكتفى اليهود بما هو متعلّق باللّاهوت، وما يقع في مجال الفلسفة، بينما كان

من المسلمين من اشتغل بالمعرفة في كل فرع فرعا فرعا وفي كل مجال مجالا مجالا. فكان منهم الفقهاء الذين يشتغلون بالحلال والحرام، والأصوليون الذين ينظرون في الأدلة الشرعية من حيث موافقتها للأحكام والتكاليف، وكان منهم المحدثون الذين كانوا يعنون بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان منهم المؤرخون الذين كانوا لا يدعون شاردة ولا واردة إلا أثبتوها في الزمان بأعيانها وتواريخها، أي باليوم والشهر والسنة. فكتنا نرى كل الكتب في التاريخ الوسيط تبتدئ بعبارات: «وفي سنة كذا حدث كذا...» ثم يؤشر طاجيك بعد ذلك بإصبعه على الأسطر الموالية، وتتحرك شفاته لإرديا، كأنه يريد أن يثبت في ذاكرته، بقية الحديث عن الزمان: (القول في كم قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوله إلى آخره)

اختلف السلف قبلنا من أهل العلم في ذلك فقال بعضهم قدر جميع ذلك سبعة آلاف سنة.

(ذكر من قال ذلك)

حدثنا ابن حميد قال حدثنا يحيى بن واضح قال حدثنا يحيى بن يعقوب عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة فقد مضى ستة آلاف سنة ومائتا سنة وليأتين عليها منون من سنين ليس عليها موحد وقال آخرون قدر جميع ذلك ستة آلاف سنة ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو هشام قال حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن الأعمش عن أبي صالح قال قال كعب الدنيا ستة آلاف سنة.

حدثنا محمد بن سهل بن عسكر قال حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا يقول قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة وإني لأعرف كل زمان منها ما كان فيه من الملوك والأنبياء قلت لوهب بن منبه كم الدنيا

---

قال ستّة آلاف سنة قال أبو جعفر والصّواب من القول في ذلك ما دلّ على صحّته الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم وذلك ما حدّثنا به محمّد بن بشار وعليّ بن سهل قالوا حدّثنا مؤمّل قال حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشّمس.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة قال حدّثني محمّد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال سمعت النّبّيّ صلى الله عليه وسلّم يقول ألا إنّما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشّمس.

حدّثنا الحسن بن عرفة قال حدّثني عمّار بن محمّد ابن أخت سفيان الثّوريّ أبو اليقظان عن ليث بن أبي سليم عن مغيرة بن حكيم عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما بقي لأمتي من الدّنيا إلا كمقدار الشّمس إذا صلّيت العصر...«هنا، في هذا الموضوع، إشارات إلى البدايات والتهايات. وكلّها محصورة في حيز الزّمان، فالبداية مبتدأ ومفتتحها الزّمان، والتهاية خاتمة سيحدّدها الزّمان؛ وربّما كان المسلمون مهتمّين بكم كان من السّنين من لدن أن خلق الكون إلى نهايته متأثرين في ذلك آثار من سبقهم. وسيّما اليهود؛ وطاجيك، إن لم يكن يجد لذلك من سبب واضح فيما يتعلّق باليهود، الذين منهم الفريسيّون ومنهم الصّدوقيّون، ومنهم جمّ كثير لا يؤمنون بالبعث، فتكون بالنّسبة إليهم بداية الزّمان كنهايته لا تعني شيئا خارج حدود المناقشة. ففي حال المسلمين، تعني النّهاية الشّيء الكثير، لأنّهم يؤمنون بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ هناك دنيا، هي مزرعة الآخرة، وأنّ هناك الآخرة التي سيكون فيها حساب وعقاب؛ وبذلك يكون في معرفة نهاية الزّمان حثّ الإنسان على اغتنام فعل الخيرات وترك المنكرات حتّى يكون قد حقّق الغاية من وجوده على الأرض واستخلافه... ويرجع

طاجيك إلى التّكوين، إلى الأصول، وقد تناول به الوقت، وهو يقرأ، ولم يشعر إلاّ ومسعود يدخل عليه بطبق الطّعام وقد ظهرت فوقه صحفة الشّوربة ونصف قرص من خبز الشّعير، وكان هناك بعض اللّحم المقدّد، من العام الفائت، لندرة اللّحم في ذلك العام، لما كان ألمّ بماشية البلد من داء حار البياطرة في تشخيصه، فماتت لذلك آلاف من رؤوس الأغنام والأبقار والمعزى... كان طاجيك يريد أن يتبلّغ ببعض الطّعام، وكانت نفسه تنازعه إلى مواصلة القراءة؛ ثمّ قرّره أن يستبقي مسعود لبعض الوقت، وأن يتناول الطّعام سوياً، وأن يستغلّ تلك الفرصة لمحدثته. قال لمسعود:

- اجلس، يا ولدي، وتناول معي الطّعام حتّى يكون خبزاً وملحاً.  
أراد مسعود أن يعتذر، لما كان ينتظره من عمل كثير في الخان، ولأنّ طاجيك لم تعد له حاجة به بعد أن أنهى حكاية شهرزاد؛ ثمّ تطلّع إلى وجه الرّجل فلمس في وجهه حزناً، وربّما رأى آثار الوحدة بادية في هيئته المهلهلة وعينيه المتعبتين، فرضي أن يجلس معه لبعض الوقت. جلسا سوياً حول النّضد وراحا يأكلان في صمت. قال طاجيك، من باب فتح الحديث:

- يبدو لي أنّك لست من هذا البلد أنت الآخر؟ يبدو أنّك غريب مثلي!  
كان مسعود على وشك أن يرسل لقمة إلى فمه، فتجمّدت يده في منتصف المسافة وكأنّه ذكر تاريخاً قديماً يريد أن ينساه. لمح طاجيك بدايات دموع بدأت تترقرق في عينيه، فأغضى قليلاً، واكتفى بتحريك الشّوربة في الصّحفة دون أن تكون له الرّغبة في الأكل.  
قال مسعود، بعد لأي:

- أنا، يا سيّدي، من سجستان...  
ثمّ توقّف قليلاً، وقد زايله تأثيره فرام إرسال اللّقمة أخيراً إلى فمه، ثمّ واصل:

. وقد صحبت عائلتي سنة كذا، وكان والدي تاجراً، وكانت أمّي

---

مريضة، ولم يكن لي إخوة أو أخوات؛ وكان عمري آنذاك خمس سنين؛  
وماتت والدتي، ولم يزل والدي معي حتى مات هو الآخر، وبقيت وحيدا...

قال طاجيك، وقد بدا عليه الحزن والتأثر:

-وكم كان عمرك حين توفي أبوك؟

-كان عمري سبع سنين.

سأل طاجيك مرة أخرى:

-وكيف تدبرت أمرك، بعد ذلك.

ردّ مسعود بكلّ هدوء وهو يلوك قطعة الخبز في فمه:

-لقد قيض الله لي سيدي بهرام صاحب الخان الذي رعاني وشغلني

عنده.

قال طاجيك، من كلّ قلبه:

-جازاه الله خيرا. يبدو أنّه رجل طيّب. فمنذ أن سكنت بالخان لم أر

منه ما يشين... وهو فوق ذلك خدوم.

انسحب مسعود إلى الخارج، بعد أن أتمّ طعامه، ولبث طاجيك

وحيدا، تلقّاه وحدة الغرفة، ومتفكرا في أمر العمل الذي بين يديه،

والذي غدا حملا آخر ثقيلًا عليه أن ينجزه، إن لم يكن من باب الواجب

الذي ليس له مردّ، فمن باب تزجية الوقت وشغل نفسه بشيء يذهب

عنه رتابة أيامه وقلقه الذي ما فتئ يتزايد يوما بعد يوم... في الخارج،

كان يسمع أصواتا، وقد كان يصغي بانتباه رغم شروده؛ وبدأت

الأصوات تقترب شيئا فشيئا من نافذته، وبدأ يميّز أصوات طبلة كان

يدقّها منادي الوالي؛ وقد كان متأكّدا من ذلك، لأنّه لم يكن مسموحا

لغير عمال الدّولة أن يستعملوا الطّبلّة؛ وحتى في الأعراس، ومناسبات

الفرح، كان الرّجال يكتفون بالرّقص والبخاريّات بالزّغاريد... كان

المنادي يدقّ، ويصيح، ويقول: «يا أهل بخارى، اسمعوا وعوا، وليبلغ

حاضرکم غائبکم، أنّه بأمر سيّدنا الوالي، منصور بن المازيار، ستفرض

حالة الحظر من بعد صلاة المغرب إلى ما بعد صلاة الصّبح، وارتفاع

الشَّمس في كبد السَّماء؛ وذلك للضَّرورة القصوى، وتحسُّبا من هجوم الأعداء الَّذِينَ يَتَرَبَّصون بنا من كلِّ جانب... ويعتبر هذا النَّداء فرمانا رسميًا، يعرِّض مخالفة إلى الجلد والسَّجن، وقد أعذر من أنذر...» وراح النَّداء يبتعد ويختفي شيئًا فشيئًا إلى أن تلاشى؛ وظلَّ طاجيك يتفكَّر في هذا الأمر الطَّارئ الَّذي ربَّما حرَّمه القيام بالكثير من مهمَّاته في سوق المدينة أو حوالي الخان... أخذ السَّفر، وتأمَّل في الحواشي الجديدة الَّتِي كتبها، وقد شعر بالرِّضا إزاء العمل الَّذي قام به، والاستنتاجات الَّتِي انتهى إليها؛ وباتت نفسه تنازعه إلى التَّمباك، وإلى القهوة في زاويته المفضَّلة أمامه كأس القرفة والصَّمْت، وصاحب القهوة الَّذي كان يبتعد يوما بعد يوم، متدنِّرًا في جوف عزلة ما يزال لا يعلم من أمرها شيئًا؛ وقد قرَّر عزمه هذه المرَّة أن يقترب منه؛ وأن يسأله. يبدو أنَّ همَّه كهَمَّه، وأن الدُّنيا، على رحابتها، تنكمش وترتدِّ إلى الدَّاخِل وتظلُّ حبيسة صدر لا يملك غير الألم والصَّبْر... وأرسل شملته على كتفه، وخرج ثمَّ أغلق الباب وراءه، ومشى في اتِّجاه القهوة الَّتِي كانت تقوم في ناصية الشَّارع لصق الحائط الخارجي للخان؛ وقد أثار هذه المرَّة أن ينطلق رأسًا إلى المعلِّم، وحين داناه، أطلق التَّحيَّة، وقد ملأت وجهه ابتسامة كبيرة تفيض بشاشة وحبورا. التفت إليه المعلِّم وكأنَّه يؤوب من سفر طويل، وفي عينيه أي الاستفهام مرده أنه ربَّما لم يكن رآه من قبل البتَّة؛ ورغم ذلك فقد جهد أن يبدو ودودا، وقد أجبر نفسه على رسم ابتسامة على شفَّتيه، حتَّى يكون ودًا بودًا، وأشار في حياءٍ إلى كرسيِّ بجانبه، وصاح مناديا غلامه قنبر الَّذي جاء يسعى وكأنَّه يمتطي بساط الرِّيح الَّذي تحفل بذكره القصص والرِّوايات. قال لطاجيك:

- أنت ضيفي اليوم أيُّها الغريب. فماذا تريد ان تشرب؟

قال طاجيك، ولم يزايله ودَّه:

- بل ستكون أنت ضيفي، أيُّها المعلِّم؛ وستشرفني إذا قبلت

---

عزومتي على أي شيء...  
أراد المعلم أن يعترض، ولكن طاجيك كان أسبق إلى الكلام، فقال  
لقنبر:

- ايتنا بأراكيل...

ثم التفت إلى المعلم وقال:

- هل تشرب قرفة مثلي، أم تريد ان تأمر بشيء آخر؟

فنظر المعلم إلى قنبر قائلاً:

- أمّا أنا فاتني بكأس كبير من الينسون.

بقي الرجلان متقابلين بعد ذهاب الغلام، وقد كان طاجيك يدبّر في

رأسه بداية للحديث، فقال:

- أهلاً... يا معلّم: والله تشرفنا.

فردّ المعلم:

- والله نحن الذين تشرفنا....

ثم مضى، بعد أن لوى خرطوم الأركيلة التي انتهى تمباكها:

- يبدو لي، إن لم أكن مخطئاً، أنك لست من بخاري...

فابتدره طاجيك مغتنماً لهذه الفرصة التي سنحت دون تخطيط:

أنا من بغداد، يا سيدي...

نظر إليه المعلم مدقّقاً مجيلاً بصره في وجهه المشرب بحمرة، وشعره

الأشقر الذي كانت خصلات منه تظهر من تحت عمامته الصغيرة،

ثم قال وقد علت شفثيه هذه المرة ابتسامة زاوية، ربّما كانت تحمل

وراءها همّاً كبيراً واغتراباً ما له حدود:

- بغداد... دار السّلام... حاضرة الخلافة: يبدو لي أنك لست من

بغداد، وأنت لست عربياً.

قال طاجيك:

- صدق حدسك، يا سيدي؛ فأنا قد جلبت إليها رقيقاً، واشتراني

أحد سراتها واتخذني ولداً... واسمي طاجيك بن لامار من القفقاس...

قال المعلم:

-أما أنا فعلاء الدين... وأنا من بغداد...

شعر طاجيك لوهلة بصدمة، رغم أن ظنه صدق في الرجل الذي لم يكن من أهل البلد، ولكن ما أهمه في الأمر أن يكون من بغداد؛ هو يعلم أن أهل بغداد لا يغادرونها إلا إذا خرجوا تجارا، وأن غالبيتهم لا يتركونها إلى سواها، اللهم إلا إذا كان الرجل مطاردا أو مطلوباً للدولة؛ وقد خشي أشد الخشية أن يسأله مخافة أن يهيج همومه؛ وقال في نفسه: «فلأنتظر قليلا عساه يجلي خبيثة نفسه ويخبرني عن سبب وجوده في هذه البلاد.» جاء قنبر أخيرا، ووضع الأراكيل في أماكنها، ووضع الطبق على النضد، وانصرف؛ وترك الرجلين لمفتتح جلسة كان يبدو أنها ستطول... انعقد دخان التمباك في المكان، وقد كان يعلو ويغلف كل شيء، حتى غدا وجها الرجلين كأنهما آثار تظهر وتختفي في السراب... وكان طاجيك وعلاء الدين، في تلك اللحظات اليسيرة من الانسجام، راضيين عن نفسيهما، كل في عالمه الخاص، ينهه أطيافا وذكريات بعيدة لأماكن وأشخاص كانت تبدو في المدى ثم تختفي، ثم تظهر وتختفي من جديد؛ وقد كان علاء الدين أسبق إلى الكلام هذه المرة، فقال دون أن يبدو عليه شيء من الحزن أو الأسف:

-لعلك تستغرب، يا سيدي، كيف غادرت بغداد؛ وكيف رضيت

عنها بدلا؛ وهي حاضرة الخلافة، ولي فيها أهل وزوجات وعيال...

قال طاجيك يجس النبض:

إي والله، لقد خامرني السؤال؛ وخشيت أن أزعجك به وأثرت أن تتكلم من تلقاء نفسك؛ فإن كان ذلك يسوءك، فيمكنك أن تحتفظ بالإجابة لنفسك...

قاطعته:

-لا عليك، فيبدو أن كلينا يحملان من الهموم أوزانا، وفي القلوب

أشجانا... اعلم، يا سيدي، أتى رجل من سراة القوم؛ وقد كنت مقربا

---

من قصور الخلافة، وكان الخلفاء يدعونني في مسامراتهم وأوقات  
لهوهم؛ ورغم أنني كنت أتحرج من مجالسهم، إلا أنه لم يكن لي بدّ من  
مسايرتهم مخافة عقابهم أو بطشهم بي...  
وأخذ أنفاسا من أركيلته، وحسا من اليانسون على دفعات يسيرة.  
ثمّ قال مواصلا:

-وقد علقّت بي إحدى بنات الخليفة، ورامت إغرائي، فتمنعت في  
البداية، ليس استنكافا من حبّها، ولكن من افتضاح أمرنا وانتقام أبيها؛  
فداريت ما أمكنتني المداراة، ثمّ تزلزلت حصون صمودي، فغدوت لا  
أفارقها في ليل أو نهار؛ ثمّ بالأمر المقدر كشف أحد الخدم أمرنا، وكان  
يضمري لي شرا، فأخبر الخليفة أهاها...

كان طاجيك مستثارا أثناء الحديث، ولم يكن يتصوّر أنّ معلّم  
قهوة، في هيأته وسمته، يمكن أن تطمح نفسه إلى عليّة القوم، أو أن  
يكون في يوم من الأيام نديما للخليفة وجلاّسه وسّمّاره. سأل:  
فماذا فعل الخليفة؟

أجاب علاء الدّين في هدوء، وكأنّه لم يكن في يوم من الأيام، مهّددا  
بالموت أو بقطع رأسه على التّطع:  
-لم يكن للخليفة الوقت الكافي ليفعل لأنّي فررت من وجهه في كلّ  
البلاد، وانتهى بي المطاف في بخارى...

سأل طاجيك مرّة أخرى:  
أو ليست بخارى بلدا من بلدان الخلافة؟  
بلى، ولكيّ امرؤ، كما ترى، لا أخرج، ولا أرى ولا أرى: أظللّ قابعا في  
القهوة. لا أريم عنها؛ فمبي بيتي، وهي بلدي، وهي كلّ عالمي الذي بقي لي  
من الدّنيا؛ وأخاف أن أخرج فتتناوشني السيّوف والرّماح؛ ولو قدّر لي  
من مبدأ حياتي أن أختار لما اخترت غير هذا المكان؛ ففيه عرفت، وفيه  
انتهيت إلى أسرار الوجود...

-أيّ أسرار تعني؟ وماذا عن أهلك؟ ماذا عن أموالك؟ وماذا عن

---

عياالك؟

قال علاء الدّين وقد بدأ الحزن يغشّي وجهه:

لقد أخذوا كلّهم بجريرتي؛ واستصفى الخليفة كلّ أموالي؛ وقتل كلّ أهلي وعيالي... أمّا عن أسرار الوجود، فأولها أنّك تبقى وحيدا، وأنّ الوحدة أصل. وأنّ ما عداها قشور؛ وثانها، فلا تجزع وإن غشيك الحزن، لأنّ كلّ شيء مقدّر عليك منذ البداية؛ وإنّ جزعك نقيض الإيمان وأن الله تعالى هو المصرف؛ فاقنع من حياتك بالقليل، وتزوّد لأخرتك زاد متخفّف من الدّنيا وانتظر الرّحيل؛ وثالثها، ابحث لك عن زاوية في خلاء الحياة، ولا تترك لنفسك، وابك ما أمكنك البكاء...  
سأل طاجيك متحيّرا... من هذا الكلام الّذي يسمعه ربّما لأوّل مرّة في حياته:

-ولماذا البكاء؟!!

. البكاء مجلّة للنفس، يذهب عنها سوادها وأدرانها الّتي ما تفتأ تراكم يوما بعد يوم... البكاء، أيّها الغريب، هو السّبيل إلى سعادة لا يعلمها إلاّ المنقطعون...

وصمت فجأة، وكان واضحا أنّه قد قال كلّ شيء وأنّه لن يفوه بكلمة بعد ذلك... وكان طاجيك ينظر إليه، ويجيل نظراته في كلّ المكان، والزّبانن في المكان، وهو يحاول أن يجد خيطا يربط كلّ شيء بكلّ شيء، ويوفّق بين هذه المتناقضات الّتي لا يمكنها أن تجتمع إلاّ في عالم غير العالم وزمان غير الزّمان...

عندما خرج، لم يكن يقدر أنّ الوقت قد تأخّر وأنّ المغرب قد صلّيت منذ زمن ليس باليسير؛ وقد كان مزمعا الرّجوع إلى غرفته واستكمال ما كان بدأه على حواشي سفر التكوّين بالرّجوع إلى ما فيه، والاستزادة. إذا أعوزت بعض الشّروح بين الفجوات. من «تاريخ الرّسل والأمم والملوك»؛ ولم يكن يقدر أنّه سيصطدم فجأة بجنود دار الإمارة الّذين أمره أحدهم في غلظة أن يتوقّف. كان ينظروا ولا يبصر، ليس فقط لأنّ

---

الظلمة كانت تنشر أرواءها في المكان وتمنع من الرؤية. بل لأنه أيضا قد ابتعد كثيرا وراء خيوط كانت تشده إلى بدايات الخلق... توقّف لا إراديا بدافع الصوت، ولبث في مكانه مليا حتى اقترب منه جنديان.

قال له أحدهما، وهو يمسك بلبّته في عنف:  
ماذا تفعل في هذا الوقت؟ ألم تسمع النداء هذا الصّباح؟  
لم يشأ أن يكذب. قال في وجل:

- بلى سمعت.

كان الجندي يدفعه إلى الأمام، وكان الجندي الثاني يسايرهما دون أن يقول شيئا؛ وقد كان يبدو، على عكس زميله، هادئا رصينا ولم يشأ أن يتدخّل أو يعلّق بكلمة...

- ستذهب معنا الآن إلى كبير الشرطة؛ وهو الذي سيبث في أمرك... أراد أن يقاطع... أن يقول شيئا؛ غير أنّ الجندي لم يترك له فرصة للكلام. بعد لأي وصلوا إلى دار الإمارة، عبر السور، وانحدروا ناحية اليسار حيث يقوم ديوان الشرطة؛ وما أن دخلوا حتى قال الجندي لرجل لحيم جسيم، ذو شارب كثّ ولحية تصل إلى صدره، وكان يبدو عليه الوقار والجلال:

- هذا، يا سيدي، مخالف جديد لأوامر الحظر، وقد وجدناه على مقربة من خان بهرام...

نظر إليه كبير الشرطة بإمعان، وكان يصعد فيه نظراته كالمتمهم؛ ولكنه لم يكن غاضبا تماما، أو ناقما، أو شرسا، على عادة أصحاب الشرطة في كل مكان. ربّما قد اطمأن إلى هيئته؛ وبفراسته وخبرته، لم يرفي وجهه ما يدلّ أنّه من أصحاب السوابق وأرباب الجرائم؛ أشار له إلى كرسيّ بجانبه فجلس في صمت، لم يكن ليخفي اضطرابه وخوفه. إنّها المرّة الأولى التي يتعرّض فيها إلى مثل هذا الموقف؛ وحتى في بغداد التي كانت تكتظّ، من أقصاها إلى أدناها، بالجنود الأتراك الذين كان منهم من يتعدّى على العامّة، ويغضب التجار الكثير من بضائعهم في

سوق الصَّيارفة، أو سوق النَّحَّاسين، أو البرَّازين، أو القمَّاشين، فإنَّ الله كان يستر عليه دائما، ويمرُّون به فلا يرومون إيذاءه أو السَّخرية منه؛ ربَّما شكله، منظره، كان يوحي لهم أنَّه ليس مثل غيره، ليس رجلا من العامة، أو أهل البلد. أمَّا اليوم، فقد شاء له سوء طالعه أن يقع في فخِّ نسيانه، وأن يعرِّض نفسه لسلطة قانون مازال لا يعلم عنه شيئا.

قال كبير الشَّرطة:

- لقد كان أمرنا صريحا هذا الصَّبَّاح، لكن...

ثمَّ صمت قليلا، وهو يتفرَّس فيه ثانية ليرى مدى براءته أو ربَّما استحقاقه للتَّهمة الَّتِي ستسند إليه؛ واطمأنَّ أخيرا إلى أنَّ الرَّجل لا يمكن أن يكون عينا أو مدسوسا من الأعداء.

- سأعتبر أنَّ ما وقع لك لم يكن بمحض إرادتك؛ وأنَّك ربَّما نسيت...

استغلَّ طاجيك هذه الفرصة فقال مقاطعا في رجاء وإعوال:

- هو ذاك، يا سيِّدي، وأقسم على ذلك... لقد نسيت فعلا، ولم أكن أظنُّ أنَّي لبثت في القهوة كلَّ ذلك الوقت.

قال كبير الشَّرطة:

- إنَّي أصدِّقك؛ ولكن اعلم أنَّي لو رفعت الأمر إلى سيِّدي الوالي لأمر

بضرب عنقك على الفور...

أراد طاجيك أن يتدخَّل ثانية، ولكنَّ الرَّجل أوقفه بإشارة من يده،

قائلا:

- إنَّي أربأ بك عن الموت؛ وإنَّي أحسبك من أصحاب المهن الرِّفيعه،

وربَّما تكون من أرباب القلم. أليس ذلك صحيحا!!؟

أخذ طاجيك على حين غرَّة. ما هذا الرَّجل؟ كيف حدس؟ كيف

عرف؟ قال:

- صدق حدسك، يا سيِّدي؛ فكيف عرفت أنَّني من أصحاب القلم؟

هل تنظر بظهر الغيب إلى ما لا ينظر إليه غيرك؟

فردَّ كبير الشَّرطة والبسمة بادية على شفثيه الغليظتين:

---

-ليس إلى هذا الحدّ؛ ولكيّ امرؤ ذو فِراسة. لقد علمت ذلك من  
سمتك ومن يدبك النَّاعمتين؛ فهما تقولان إنَّك لست تشقى كغيرك  
بحمل الأثقال، أو شدّ الحبال في مراكب البحر، أو غيرها من الأشغال  
التي يقوم بها غيرك من العامّة...

ثمّ، وقد طغا يقينه على شكّه، وصاركه ودًا وأنسا وشفقة:  
هل لي بسؤال؟

قال طاجيك، وقد تأكّد أخيرا أنّه نجا من الموت بأعجوبة:  
تفضّل، يا سيّدي؛ فكليّ أذان صاغية.  
تحرك كبير الشّرطة في مكانه فسمع لتحركه أطيّط تحت وطأة  
جسمه الممتلئ، وسأل ثانية:

-فماذا تعمل على وجه التّحديد؟  
قال طاجيك:

-إنّي، يا سيّدي، أكتب في كلّ شيء... أكتب الحكايات، وأكتب  
التّواريخ، وأعلّق على الكتب، وأكتب الحواشي؛ وقد درست في مطلع  
شبابي الكثير من كتب الفقه على أيدي فقهاء بغداد، والكثير من كتب  
الأصول والسّير، والنّحو والصّرف، والحساب، والفلسفة، وأحيانا  
أكتب الشّعر...

قال كبير الشّرطة، وهو يكاد يطير فرحا:  
فلمن تحفظ من الشّعراء؟

- لأغلبهم تقريبا؛ ويعجبني أحمد بن الحسين الجعفيّ، ولا أنعصب  
له، ولأبي العلاء، والعتاهيّ، ولبشار...  
قاطعه كبير الشّرطة:

-فما دمت تحفظ لأحمد بن الحسين، فلا أراك إلاّ تتذكّر قصيدته  
التي ودّع بها سيف الدّولة الحمدانيّ، وهي قصيدته الميمية الشهيرة!!  
قال طاجيك:

-ومن لا يحفظها من أدباء جيليّ؛ وهي التي يبداها ب:

واحرّ قلباه ممّن قلبه شبهم  
ومن بجسمي وحالي عنده سقم  
مالي أكتّم حبًا قد برى جسدي  
وتدّعي حبّ سيف الدولة الأمم  
إن كان يجمعنا حبًّا لغرّته  
فليت أنا بقدر الحبّ نقسهم  
قد زرتّه وسيوف الهند مغمدة  
وقد نظرت إليه والسيفوف دم  
فكان أحسن خلق الله كلّهم  
وكان أحسن ما في الأحسن الشيم  
فوت العدو الذي يمّمته ظفر  
في طيّه أسف في طيّه نعم  
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت  
لك المهابة ما لا تصنع الهمهم  
ألزمت نفسك شيئًا ليس يلزمها  
أن لا يوارىهم أرض ولا علمهم  
أكلّما رمت جيشًا فانثى هربها  
تصرّفت بك في آثاره الهمهم  
عليك هزمهم في كلّ معتهمرك  
وما عليك بهم عار إذا انهزموا  
أما ترى ظفرا خلوا سوى ظفر  
تصافحت فيه بيض الهند واللّمهم  
يا عدل النّاس إلّا في مخاصمتي  
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم  
أعيذها نظرات منك صادقة  
أن تحسب الشّحم فيمن شحمه ورم

---

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره  
إذا استوت عنده الأنورا والظلم  
سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا  
بأنّي خير من تسعى به قـدم  
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي  
وأسمعت كلماتي من به صم  
أنام ملء جفوني عن شواردها  
ويسهر الخلق جراها ويختصم  
وجاهل مدّه في جهله ضحكي  
حتّى أتته يد فراسة وفم  
إذا رأيت نيبوب الليث بارزة  
فلا تظنّ أنّ الليث يبتسم  
ومهجة مهجتي من همّ صاحبها  
أدركتها بجواد ظهره حرم  
رجلاه في الركض رجل واليدان يد  
وفعله ما تريد الكفّ والقدم  
ومرهف سرت بين الجحفلين به  
حتّى ضربت وموج البحر يلتطم  
الخيال والليل والبيداء تعرفني  
والسيف والرّمح والقرطاس والقلم  
صحبت في الفلوات الوحش منفردا  
حتّى تعجّب منّي القور والأكم  
يا من يعزّ علينا أن نفارقهم  
وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم  
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة  
لو أنّ أمرنا من أمركم أمم

---

---

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا  
فما لجرح إذا أرضاكم ألم  
وبيننا لورعيتم ذاك معرفة  
إنّ المعارف في أهل النّبى ذمم  
كم تطلبون لنا عيبا فتعجزكم  
ويأبى الله ما تأتون والكرم  
ما أبعد العيب والنقصان من شرّفي  
أنا الثّريا وذان الشّيب والهرم  
ليت الغمام الذي عندي صواعقه  
يزيلهنّ إلى من عنده الدّيم  
أرى النّوى يقتضيني كلّ مرحلة  
لا تستقلّ بها الوخّادة الرّسم  
لئن تركن ضميرا عن ميامننا  
ليحدثنّ لمن ودّعتم ندم  
إذا ترخّلت عن قوم وقد قدروا  
أن لا تفارقهم فالرّاحلون هم  
شرّ البلاد مكان لا صديق به  
وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصم  
وشرّ ما قنصته راحتي قنص  
شهب البزاة سواء فيه والرّخم  
بأيّ لفظ تقول الشّعزعنفة  
تجوز عند لا عرب ولا عجم  
هذا عتابك إلا أنّه مقّة  
قد ضمّن الدرّ إلا أنّه كلم

---

كان كبير الشرطة، طوال الوقت الذي استغرقه طاجيك في إنشاد القصيدة، يدقّ بأصابعه على الطاولة التي كانت عليها أضيائه ودفاتره وأقلامه، وكان يوقّع الوزن بصوته من حين لآخر، وقد شرد مع الكلمات، وتاه مع الموسيقى والنغم؛ ولم يكن طاجيك يعلم أنّه قبل انخراطه في شرطة الوالي، كان هو الآخر كاتباً في ديوان الرّسائل، وقد تعرّف على الكثير من الكتاب من كلّ الطوائف، وكان يقتبس أيضاً من الرّسائل التي كانت تأتي من الأمصار، وقد قرأ الكثير من رسائل سهل بن هارون وعبد الحميد الكاتب، ورسائل الجاحظ... علم طاجيك ذلك فيما بعد؛ وقد تمّنى صادقاً من كلّ قلبه أن يتّصل ما بينهما من الودّ. قال كبير الشرطة:

- اعذرنى، أيّها الغريب؛ سأكون مضطراً إلى الاحتفاظ بك لبعض الوقت عندنا مخافة أن يتعرّض لك بعض الزّعار، سيّما وقد تقدّم بنا الليل؛ ولا أضمن ألاّ يقع لك مكروه؛ ولذلك سأمرلك بطعام، وأمر بعض الجنود أن يعدّوا لك مكاناً للمبيت عندنا؛ فهل تأمر بشيء، أو ترغب في شيء قبل أن تنصرف... ذكر طاجيك ما كان أزمع عليه في ذلك اليوم من أن يستكمل حواشيه على سفر التكوين، كما ذكر أنّه لم يحمل معه شيئاً لتدوين أفكاره، وكان يدير في نفسه أن يسأل كبير الشرطة أن يرسل أحداً إلى الخان ليأتيه بمخلاتيه، ثمّ يحجم مخافة أن يثقل عليه؛ وقد لاحظ صاحبه عليه ذلك، ورام أن يدخل عليه بعض السّكينة وأن يريه أنّه بات لديه بمكان مكين من قلبه. قال:

- أراك تدير شيئاً في نفسك. قل ولا تخف... إذا كانت لديك حاجة يمكن أن نقضها لك... ربّما تريد أن تكتب... أو تدوّن شيئاً...

شعر طاجيك أنّ الرّجل قد مسّ وترا فيه، وأنّ فراسته لم تخب أيضاً هذه المرّة، فأراد أن يستغلّ هذه الفرصة لصالحه، فقال في أدب جمّ يحمل في طيّاته امتناناً وشكراً:

- والله، يا سيّدي، لقد كنت بدأت شيئاً؛ وكنت مزعماً هذا اليوم أن

أكمله، ولكن للأسف حدث ما حدث، وتركت أوراقى وكتبي بالخان؛ وأنا الليلة في حاجة للكتابة قبل أن يذهب ما كنت أدركه في رأسي منذ مدة. نظر كبير الشرطة إلى أحد الجنود وأمره أن يذهب إلى الخان ليأتيه بما يريد من الكتب والأقلام والأوراق، وأوصله بنفسه إلى مكان مبيته، ولم يغادره إلا حين اطمأن أن كل شيء على ما يرام وأنه أكل كفايته واستقر به المقام على حشية كانت كافية أن تقيه برد تلك الليلة الليلية... لم يتأخر الجندي عليه بأشيائه، وما عتم أن جاءه بما طلبه؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان قد نشر أوراقه وراح يكتب على الحاشية من جديد. بعد أن قرأ ملياً: «<sup>٢</sup> وَقَالَ اللَّهُ: «لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلِيَطِرَّ طَيْرٌ فَوْقَ الْأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ».<sup>١</sup> فَخَلَقَ اللَّهُ التَّنَائِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الْأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَابَةَ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجَنْسِهِ. وَرَأَى اللَّهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.<sup>٢٢</sup> وَبَارَكَهَا اللَّهُ قَائِلاً: «أَثْمِرِي وَكَثْرِي وَأَمْلِي الْمِيَاهُ فِي الْبِحَارِ. وَلِيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الْأَرْضِ».<sup>٢٣</sup> وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا.» قرب طاجيك قلمه من الحاشية وكتب: «هناك تفصيل في كل المواطن، وذكر لمجمل الأيام الستة وما خلق فيها منذ البداية؛ وهناك أيضا دقة في التحديد. فالتوراة تورد لنا كل ما خلق في كل يوم يوماً يوماً. وقد بلغنا اليوم الخامس وما خلق الله تعالى فيه من زحافات الماء. وإذا أخذنا هذه العبارة على علامتها اعتبرنا أن الزحافات هي كل ما وجد في البحر من السمك وغيره من الحنكليس والتعبان والحيتان الكبار والدلافين والحيتان الصغار، ولا يبعد أن تكون كذلك الزحافات التي تعيش بين الأرض والبحر مشمولة مع غيرها من زحافات الماء... وخلق الله تعالى أيضا الطير؛ ولم تذكر التوراة العلة من وراء خلق الله للخلق إلا أن ذلك كان جميلاً في عينه؛ وإذا كان ذلك كذلك فلا يعدو الأمر أن يكون مسألة ذوقية إذا قارنناه بما هو مثبت بالقرآن أو ما أورده أهل العلم من المسلمين بأن غاية الخلق هي الاستخلاف. وإذا محصنا ذلك وضح

لنا جانب الخلاف في زوايا النظريين أبحار أهل الكتاب وبين غيرهم من أصحاب الكتب السماوية. ثم إن الله . على زعمهم . خلق التنانين، فما هي التنانين التي يقصدون، يا ترى؟ وهل وجدت كائنات بهذه الصفة؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون أن أهل الكتاب قد استعاضوا على كائن معروف بأخر غير معروف؛ كما أجملوا في باقي كائنات الأرض؛ ولم يذكروا . تحديدا . غير الطير . فهل يمكن أن نعتبر (وهو كذلك) أن الله قد خلق كل شيء على وجه الأرض؟ فما نراه من كل شيء حولنا هو صنع الله وخلقته؛ فكل ما نراه نشير به إليه، ونقول في ثقة: «هو صنع الله، أو من صنع الله.» وهناك نسق، وهناك منطق، يحكم السرد؛ إذا اعتبرنا أن ما يذكره السفر هو سرد كباقي السرد؛ فكون الله خلق كل هذا الخلق فلا بد لهذا الخلق من شيء يقيمه ويحفظ عليه حياته، فأصدر الله أمره أن يكون هناك شجروثمر، أي أن يكون هناك طعام، ستستفيد منه هذه الكائنات، ثم يستفيد منه . بعد ذلك الإنسان، الذي هو نسل أبينا آدم عليه السلام...» كان مرتاحا إلى ما يكتبه، وهو يشعر بأريحية وزهو. إن ما يكتبه على الحاشية، إن لم يرق إلى الشروح المستوفاة والكتب المستقلة، فسيكون على الأقل إضافة من الإضافات، التي من شأنها أن تجلي ما يمكن أن يعرض من الغموض في بعض المواطن. وقد نسي، في خضم ما حصل له في ذلك النهار، أن يذكر حاجته إلى التمباك، كما نسي أن يذكر لكبير الشرطة حاجته إليه، وأنه قد صار إدمانا مقيما لا غنى له عنه؛ غير أنه وطن النفس على الصبر إلى الصباح؛ وأن يركّز همه على ما هو بين يديه. وطافت عيناه على السفر من جديد، وقرأ: «<sup>١٤</sup> وَقَالَ اللَّهُ: «لِتُخْرِجَ الْأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجَنَاسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا». وَكَانَ كَذَلِكَ. <sup>١٥</sup> فَعَمِلَ اللَّهُ وُحُوشَ الْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللَّهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. <sup>١٦</sup> وَقَالَ اللَّهُ: «نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشِبْهِنَا، فَيَتَسَلَطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ

السَّمَاءِ وَعَلَى الْمَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الْأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ». <sup>٢٧</sup> فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. <sup>٢٨</sup> وَبَارَكَهُمُ اللَّهُ وَقَالَ لَهُمْ: «اتَّمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ». <sup>٢٩</sup> وَقَالَ اللَّهُ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُنْزَرُ بِزَّرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرٌ شَجَرٍ يُنْزَرُ بِزَّرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. <sup>٣٠</sup> وَلِكُلِّ حَيَوَانٍ الْأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَابَةٍ عَلَى الْأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عَشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا». وَكَانَ كَذَلِكَ.

<sup>٣١</sup> وَرَأَى اللَّهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحًا يَوْمًا سَادِسًا. وكتب طاجيك: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا هَيَّا كُلَّ شَيْءٍ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا تَقُومُ السَّمَاءُ وَلَا الْأَرْضُ إِلَّا بِهِ، قَرَّرَ أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْإِنْسَانُ إِلَّا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَقَدْ خَلَقَهُ عَلَى صُورَتِهِ، وَذَلِكَ غَايَةٌ فِي التَّشْرِيفِ، وَلِقَرَبِ الْإِنْسَانِ مِنَ اللَّهِ؛ فَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا كَانَ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِمَا أَنْعَمَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمَاءِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ اللِّسَانُ إِجْمَالَهُ. وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا نَتْفًا مِمَّا ذَكَرَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْخَلْقِ، وَذَكَرْنَا أَنَّ أَغْلَبَ مَا ذَكَرُوهُ كَانَ مُسْتَقَى مِمَّا حَدَّثَ بِهِ أَحْبَارُ يَهُودِ كُوهِبِ بْنِ مَنبَةَ وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ وَغَيْرِهِمْ؛ وَلَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ مَا عَرَفَهُ الْمُسْلِمُونَ عَنِ الْخَلْقِ كَانَ مُحْصُورًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. لَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ غَالِبًا مَا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا كَانَ مَجْمَلًا فِي الْقُرْءَانِ، فَيَفْصَلُهُ لَهُمْ عَلَى مَقْتَضَى مَا يَأْتِي بِهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ طَرِيقِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَلَمْ أَشَأْ أَنْ آتِي بِكُلِّ مَا ذَكَرَ فِي كُلِّ كِتَابِ التَّارِيخِ وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ نَتْفًا مِنَ الطَّيْرِ لِأَنَّ أَغْلَبَ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ أَخَذُوا عَنْهُ؛ وَحِينَمَا نَعُودُ إِلَى مَا قِيلَ فِي الْخَلْقِ فِي كِتَابِهِ، نَقْرَأُ: «(الْقَوْلُ فِيَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ السِّتَّةِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ خَلَقَ فِيهِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا)

---

اختلف السلف من أهل العلم في ذلك .

فقال بعضهم ما حدثني به المثني بن إبراهيم قال حدثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والإثنين وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات في الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

حدثني موسى بن هارون حدثنا عمرو بن حماد حدثنا أسباط عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا جعل يعنون ربنا تبارك وتعالى سبع أرضين في يومين الأحد والإثنين وجعل فيها رواسي أن تميد بكم وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء ثم استوى إلى السماء وهي دخان فجعلها سماء واحدة ثم فتحها فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة.

حدثنا تميم بن المنتصر قال أخبرنا إسحاق عن شريك عن غالب بن غلاب عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال خلق الله الأرض في يومين الأحد والإثنين.

ففي قول هؤلاء خلقت الأرض قبل السماء لأنها خلقت عندهم في الأحد والإثنين وقال آخرون خلق الله عز وجل الأرض قبل السماء بأقواتها من غير أن يدحوها ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ذكر من قال ذلك.

حدثني علي بن داود قال حدثنا أبو صالح قال حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله عز وجل حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء ثم ذكر السماء قبل الأرض وذلك أن الله خلق

---

الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ثم دحا الأرض بعد ذلك فذلك قوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها.

حدثني محمد بن سعد قال حدثني أبي قال حدثني عمي قال حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها<sup>(١)</sup> يعني أنه خلق السموات والأرض فلما فرغ من السماء قبل أن يخلق أقوات الأرض بثّ أقوات الأرض فيها بعد خلق السماء وأرسي الجبال يعني ذلك دحوها ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا بالليل والنهار فذلك قوله عز وجل والأرض بعد ذلك دحاها ألم تسمع أنه قال أخرج منها ماءها ومرعاها.

قال أبو جعفر والصبّاب من القول في ذلك عندنا ما قاله الذين قالوا إنّ الله خلق الأرض يوم الأحد وخلق السماء يوم الخميس وخلق النجوم والشمس والقمر يوم الجمعة لصحة الخبر الذي ذكرنا قبل عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وغير مستحيل ما روينا في ذلك عن ابن عباس من القول وهو أن يكون الله تعالى ذكره خلق الأرض ولم يدحها ثم خلق السموات فسواهن ثم دحا الأرض بعد ذلك فأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها بل ذلك عندي هو الصّبّاب من القول في ذلك وذلك أنّ معنى الدحو غير معنى الخلق وقد قال الله عز وجل: «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا<sup>(٢٧)</sup> رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا<sup>(٢٨)</sup> وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا<sup>(٢٩)</sup> وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا<sup>(٣٠)</sup> أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا<sup>(٣١)</sup> وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا<sup>(٣٢)</sup>» فإن قال قائل فإنك قد علمت أنّ جماعة من أهل التّأويل قد رجعت قول الله والأرض بعد ذلك دحاها إلى معنى مع ذلك دحاها فما برهانك على صحة ما قلت من أنّ ذلك بمعنى بعد التي هي خلاف قبل، قيل المعروف من معنى بعد في كلام العرب هو الذي قلنا من أنّها بخلاف معنى قبل لا بمعنى مع وإنّما توجه معاني الكلام إلى الأغلب عليه من

---

معانيه المعروفة في أهله لا إلى غير ذلك.

وقد قيل إنّ الله خلق البيت العتيق على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدّنيا بألفي عام ثم دحيت الأرض من تحته. «ومعلوم أنّ أهل التّوراة لم يسمّوا الأيام وإنّما ذكروا أعدادها وموقعها من الأسبوع، وهم لم يحدّدوا كما حدّد المؤرّخون العرب الذين كانوا أكثر حرصا على ذكر ما خلق في كلّ يوم؛ وإنّما كان اختلاف المؤرّخين العرب في قبليّة أو بعديّة خلق الله تعالى للسّموات والأرضين: فمنهم من قال بأنّ الله تعالى خلق السّموات قبل الأرض، ومنهم من قال عكس ذلك بأنّ الله جلّ ذكره قد خلق الأرض قبل السّموات؛ والكلّ يستدلّ بالسّورة الشّريفة الّتي هي سورة «التّكوير»؛ ومعلوم أيضا أنّ العرب على خلاف اليهود إنّما تلجأ إلى اللّغة العربيّة الّتي نزل بها القرآن؛ ولا يفسّر الكثير من مسائله إلّا بالرجوع إليها؛ وشيء آخر على غاية الأهميّة، كون المخاطب في سفر التّكوين مجهولا، ولا تعدّد للأصوات كما هو الحال في كتب تاريخ العرب الكثيرة؛ ولذلك تفاسير وتأويل، منها أنّه قد يؤخذ في حال الكتب والإصحاحات التّوراتيّة أنّ المخاطب، وإن كان مجهولا فهو معلوم بالضرورة لأنّه هو من نزل التّوراة، وهو في نظرهم الله الواحد؛ وما دام ذلك كذلك، فهو ليس في حاجة إلى تعدّد كي يصل بنا إلى القول الأخير في مسألة الخلق وإنّما ما يقوله هو عين الحقيقة: أي أنّ كلامه لا يحتمل التّعديل أو التّرجيح أو التّجريح. وهذا يطرح إشكالا فيما يتعلّق بكتب التّاريخ الكثيرة في الحضارة العربيّة؛ وليس مردّد ذلك إلى القرآن، الّذي فيه ما هو مفصّل وما هو مجمل في حاجة إلى تفصيل من الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بأمر الوحي. وفي الحقيقة ما يبدو مشكلا في البداية ليس في حقيقة أمره إلّا ضرورة من ضرورات اتّصال الصّحابة رصوان الله عليهم بالرّسول؛ فمنهم من يسمع منه شيئا ولا يسمع الشّيء الآخر، ومنهم من يسمع وقد يغيب عنه معنى ما يقال، ومنهم سريع الحفظ، ومتوسّطه، وضعيفه. فهنا نرى أنّه لو اتّصل

---

كل الصحابة بالرسول عليه الصلاة والسلام في وقت واحد، لما كان هناك اختلاف في الأقوال؛ ثم إن الصحابة قد اتصل بهم التابعون، والتابعون أيضا ليسوا على قلب رجل واحد في الرواية. فما قيل عن الصحابة قد يقال كذلك في التابعين؛ ثم إنه في بعض الأزمان ظهر من الناس من يتقوّلون على النبيّ ويزيدون في كلامه؛ ولكن أصحاب الحديث قد اشتغلوا بنقد أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ودققوا ومحصّوا، وأمكّنهم إخراج ما هو مثبت من أقوال الحضرة الشريفة وترك ما هو محض كذب وتدليس بالرجوع إلى الميزان الذي أوجده، ونعني بذلك الجرح والتعديل؛ فكانت هناك سلسلة الذهب المتصلة إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وسلسلة الكذب التي رأسها أبو مخنف لوط بن يحيى.

وأمر آخر اعتنى به المؤرّخون المسلمون لما له من الأهمية في حياتهم لارتباطه بركن من أركان الإسلام (الحجّ)، ألا وهو البيت العتيق، الذي لم يرد له ذكر، بمعنى قداسته، لا في العهد القديم، ولا العهد الجديد؛ واجتهد المؤرّخون في إثبات وجوده في الزمان، لما يعتقدونه من بركته، ولما يجمعه من شعائر أخرى لا تقل أهمية كالوقوف بعرفة، ويوم الحجّ الأكبر، والسعي بين الصفا والمروة، والطواف بالبيت العتيق... وحتى في ذكر ذلك هناك اختلاف للأسباب التي ذكرنا أنفا؛ فهناك من يقول بأن بيت الله العتيق خلقه الله جلّ ذكره على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام ثم دحيت الأرض من تحته.

ذكر من قال ذلك.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا يعقوب القميّ عن جعفر عن عكرمة عن ابن عباس قال وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام ثم دحيت الأرض من تحت البيت.

---

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا مهران عن سفيان عن الأعمش عن  
بكير بن الأحنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمر قال خلق الله البيت  
قبل الأرض بألفي سنة ومنه دحيت الأرض وإذا كان الأمر كذلك كان  
خلق الأرض قبل خلق السّموات ودحو الأرض وهو بسطها بأقواتها  
ومراعيا ونباتها بعد خلق السّموات كما ذكرنا عن ابن عبّاس.

وقد حدّثنا ابن حميد قال حدّثني مهران عن أبي سنان عن أبي بكر  
قال جاء اليهود إلى النّبّي صلّى الله عليه وسلّم فقالوا يا محمّد أخبرنا ما  
خلق الله من الخلق في هذه الأيام السّنة فقال خلق الأرض يوم الأحد  
والإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار  
وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء وخلق السّموات والملائكة يوم الخميس  
إلى ثلاث ساعات بقين من يوم الجمعة وخلق في أول الثلاث ساعات  
الآجال وفي الثّانية الألف وفي الثّالثة آدم قالوا صدقت إن أتممت  
فعرّف النّبّي صلّى الله عليه وسلّم ما يريدون فغضب فأنزل الله تعالى:  
«وما مسّنا من لغوب فاصبر على ما يقولون.»

فإن قال قائل فإن كان الأمر كما وصفت من أنّ الله تعالى خلق  
الأرض قبل السّماء فما معنى قول ابن عبّاس الذي حدّثكموه واصل  
بن عبد الأعلى الأسديّ قال حدّثنا محمّد بن فضيل عن الأعمش عن  
أبي ظبيان عن ابن عبّاس قال أوّل ما خلق الله تعالى من شيء القلم  
قال له اكتب فقال وما أكتب يا ربّ قال اكتب القدر قال فجرى القلم  
بما هو كائن من ذلك إلى قيام السّاعة ثمّ رفع بخار الماء ففتق منه  
السّموات ثمّ خلق النّون فدحيت الأرض على ظهره فاضطرب النّون  
فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فإنّها لتفخر على الأرض.

حدّثني واصل قال حدّثنا وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن  
عبّاس نحوه.

حدّثنا ابن المثنيّ قال حدّثنا ابن أبي عديّ عن شعبة عن سليمان  
عن أبي ظبيان عن ابن عبّاس قال أوّل ما خلق الله تعالى القلم فجرى

---

بما هو كائن ثم رفع بخار الماء فخلقت منه السموات ثم خلق النون فبسطت الأرض على ظهر النون فتحرك النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فإن الجبال لتفخر على الأرض قال وقرأ: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ<sup>(١)</sup>».

حدثني تميم بن المنتصر قال أخبرنا إسحاق عن شريك عن الأعمش عن أبي ظبيان أو مجاهد عن ابن عباس بنحوه إلا أنه قال ففتقت منه السموات.

حدثنا ابن بشار قال حدثنا يحيى قال حدثنا سفيان قال حدثني سليمان عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال أول ما خلق الله تعالى القلم فقال اكتب فقال ما أكتب قال اكتب القدر قال فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة ثم خلق النون ورفع بخار الماء ففتقت منه السماء وبسطت الأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال قال فإنها لتفخر على الأرض.

حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى مسلم بن صبيح عن ابن عباس قال أول شيء خلق الله تعالى القلم قال له اكتب فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ثم خلق النون فوق الماء ثم كبس الأرض عليه.

قيل ذلك صحيح على ما روي عنه وعن غيره من معنى ذلك مشروحا مفسرا غير مخالف شيئا مما روينا عنه في ذلك.

فإن قال وما الذي روي عنه وعن غيره من شرح ذلك الدال على صحة كل ما رويت لنا في هذا المعنى عنه.

قيل له حدثني موسى بن هارون الهمداني وغيره قالوا حدثنا عمرو بن حماد حدثنا أسباط بن نصر عن السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات.»

---

قال إنّ الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسمّا عليه فسّماه سماء ثمّ أبيض الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والإثنين فخلق الأرض على حوت والحوت هو النّون الذي ذكر الله عزوجلّ في القرآن «ن وَالْقَلَمِ» والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصّفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصّخرة على الرّيح وهي الصّخرة التي ذكر لقمان ليست في السّماء ولا في الأرض فتحرّك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسي عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض فذلك قوله تعالى: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ». قال أبو جعفر فقد أنبأ قول هؤلاء الذين ذكرت إنّ الله تعالى أخرج من الماء دخانا حين أراد أن يخلق السّموات والأرض فسمّا عليه يعنون بقولهم فسمّا عليه علا على الماء وكلّ شيء كان فوق شيء عاليا عليه فهو له سماء ثمّ أبيض بعد ذلك الماء فجعله أرضا واحدة.»

كانت عيناه تجولان، وقد بدا عليهما التعب، فصارتا ترفّان دون انقطاع، فعلم أنّه عليه أن يتوقّف عند ذلك الحدّ وأن يخلد للراحة. نعم، سيرتاح إلى حين، وسيواصل في الأيام المقبلة كتابته على الحواشي. لا يعلم لماذا كان مسكونا بالبدء، الطّفوّ من عدم، الانبثاق، السّريان الأبديّ من اللّاشيء، حتّى ولا ذاكرة تحيل، وإنّما انبعث، كما في لحظة تجلّ، يشمل كلّ شيء ويفيض على كلّ شيء. سينام إلى حين. سيغمض عينيه أخيرا، وسيؤمّل أن يغطّ في نوم عميق. لحسن حظّه لن تكون هناك كوابيس، فهو يعلم ذلك، فمتى كان يكتب ومسكونا بهذه الأسرار، ستنأى عنه الكوابيس وتتركه في حال سبيله. أمّا إذا كانت العطالة أخيرا، وهربت من دماغه كلّ الأفكار الكبيرة، وغادره شيطان الكتابة، فستنبعث في كيانه كلّ الجنة التي كانت إلى حين مكبّلة بأصفادها الثّقيلة، وستحلّ الأحلام المزعجة، وسيبدأ قلقه

وخوفه من أن ثمة في الأفق مخاطر لا بد أن تتجسد في شتى أشكال الموت، وسيشعر حيالها بالخوف، ليس لأنه يريد أن يعمر لأطول وقت ممكن، ولكن لأنه لا بد أن ينهي ما بدأه... لأنه بدأ يرى أشياء لم يكن غيره قادرا على رؤيتها، ولأنه بات يدرك أن شخصا ما، في مكان ما، يرنو إليه، يتطلع إليه، ربما يريد أن يبثه شيئا، أن يطلعه على شيء ما، سرّ ما، أو حكاية ما لا يجب عليه أن يدعها تفرّ منه... لا يذكر متى كحلت عينيه أطياف النوم أخيرا، كما لا يذكر أنه رأى شيئا مميزا تلك الليلة رغم أنه ينام في مكان غير مكانه المعتاد، ويتمدد على حشية ليست هي نفس الحشية التي اعتادها جنبه في خان بهرام. كان تنفّسه منتظما، ولم يتقلب إلا لماما؛ والطريف في الأمر، أو الغريب، هو لا يعرف تحديدا، أن ما كان كتبه، كانت تندس فيه أشياء كثيرة لم يكتبها، أشياء كانت تنسرب بين السطور؛ كان يرى مخايل، وظلالا، وأطيافا، ليست لأشخاص بأعيانهم، ولكن تنوعات لطيف واحد كانت تتكرّر، ويذكر أنه كان يريد أن يعرف من هذا الغريب الذي يقتحم عليه ذاكرته؛ لم يبد عليه أنه يريد أن يخيفه أو يربكه، ولكن فقط كان يذهب ويجيء، كأنما يروم أن يشدّ انتباهه، كنقطة سوداء في مرمى خياله تبدأ صغيرة ثم تبدأ في التضخم شيئا فشيئا. كان كلّ شيء سديميا، دون أصوات تذكر، أو حتى همهمات؛ وكان وهو نائم، نائم وليس بنائم، واعيا وليس بواع تماما، يرى ولا يرى، ينظروا ولا ينظر، ويريد أن يكون واقعا في عالمه الآخر، عالم نومه، وأن يتبّع ذلك الذي يراه، ولكن ليس إلى ذلك سبيل. كان مطمئنا، وكان مكثفيا بذاته، وفي ذاته؛ ولكن قبل كلّ شيء وبعده، لماذا يعجل؟ لماذا تنازعه نفسه إلى القرب؟ أو إلى أيّ حالة من حالات التجلّي؟ والموقف واحد والمواقف متعدّدة، وفي المخاطبات، لا يكون سوى مخاطب واحد، وهو المخاطب؛ ومن الأعلى، كانت تأتيه الأصوات، أو هوسوت واحد، لا يعرف على وجه التّحديد... «أوقفني»، و«كنت أنا الموقف»، ولم يشعر أنه عليه أن يوقف، أو أن يقاطع، ما

---

دام جاء إلى هنا كي يكون شاهدا، وما دام هو الشاهد فقد أريد له كذلك أن يكون مبلغا... في الصبح، قبل بزوغ الشمس بقليل، كان رسول كبير الشرطة، ينتظره ليقوده إلى ديوان سيده مرة أخرى، وما أن رآه حتى ابتدره بالسؤال:

-كيف أصبح ضيفنا اليوم؟

ردّ طاجيك، وهو ما يزال تحت تأثير ما كان رآه، وكان يشعر أنّه خفيف لا تكاد تحمله الأرض من تحته:

- على أحسن حال بفضل سيدي كبير الشرطة.

وسأله كبير الشرطة مرة أخرى:

- وهل توقّقت في الكتابة؟ وفيما كتبت؟

كان طاجيك يريد أن يخفي عنه، أن يستأثر بهذا الشيء لنفسه، لأنّه لم يكن من عادته أن يفصح عن أشياءه الحميمة قبل أن تخرج إلى النور بنفسها فيقرأها الجميع ويثنون عليه بعد ذلك، لأنّه جنّهم الكثير من الخوض في ثنايا أضاير لا تنتهي أبدا، ولا يستنفدها وقت أغلب الناس الذين كانت تشدّهم إلى غير العلم مشاغل وشؤون بيوت، والقيام بأمر أزواج وبنين؛ ولكنّه أيضا لم يكن يرغب أن يقطع الأسباب بينه وبين هذا الرجل الذي بلغ النهاية في الإحسان إليه ومساعدته، فقال فيما يشبه الحياء:

-لقد توقّقت بحمد الله كثيرا... ورغم أنّي لم أكتب إلا ما تيسّر،

فإنّي راض مع ذلك كلّ الرضى...

وسكت قليلا، كأنّه أراد أن يغفل الشطر الثاني من السؤال؛ وقد لمس كبير الشرطة ذلك، فأراد أن يبيّن له أنّ فراسته التي لم تخب في بداية لقاءهما، لا يمكن لها كذلك أن تخيب هذه المرة، فقال وهو يداعب ذوائب لحيته التي بدأ يوحّطها الشيب:

-يبدو أنّ لك كلفا ببدايات الأشياء؛ ويظهر لي أنّ طول انقطاعك

عن الناس كان يشدّك إلى الماضي... إلى الخلف؛ وأنت تريد أن تعرف...

---

---

ترك كل شيء معلّقا، ولم يرد أن ينظر إليه في عينيه، ليعرف تأثير كلامه في تقاطيع وجهه، لأنّه كان يعلم أنّ كلامه قد أحدث تأثيره في ملامحه التي كان يعلم أنّه قد اكتنفها ما يشبه الذّهول والانصعاق، وكان يضحك في داخله، ولو ترك لنفسه العنان لانطلقت ضحكته مدويّة لتفرقع في أجواز الديوان. استغرق طاجيك وقتا حتّى يثوب إلى نفسه، وحينما همّ أن يتكلم وجد أنّ الرّجل قد سبقه مرّة أخرى إلى الكلام:

-أيّها الغريب، إنّ هناك شخصا يهّمه أمرك، وإن لم تكن تعرفه أو تكون قد رأيته من قبل، فهو...

قاطع طاجيك في إعوال:

أيّ رجل تعني، يا سيّدي؟

ثمّ بعد أن أسعفه وعيه تماما:

-ثمّ من الذي أعلمك بما أكتبه هذه الأيام؟

كان كبير الشرطة ما يزال خافضا رأسه، وقد استكانت أنامله على لحيته التي كانت تضطرب بهدوء تحت تأثير نسمات عذاب كانت تنتشر في الديوان من حين لآخر. لم يشأ أن يدكّ حصون كيانه دفعة واحدة، فقد كان به رقيقا، وعليه حادبا، وإنّما رفع رأسه بهدوء حتّى التقت عيونهما في لحظة كانت أقلّ من الثانية، ولكنّها كانت كافية لتقول لطاجيك أنّ كبير الشرطة هذا هو لغز من الألغاز التي لا يمكنه أن يفهمها أو يستسيغها بسهولة.

قال كبير الشرطة:

يا ولدي، عليك أن تعلم شيئا الآن... أهل الطريق تكون الحجب لهم مكشوفة؛ وما يبدو لغيرهم مغاليق مختومة، تكون بأيديهم مفاتيحها؛ وأنا لا أريد أن أبلبل ذهنك الآن، ولكن سأكتفي بالقول إنّ أحدا يهّمه أمرك قد جاءني البارحة واستوصى بك خيرا...

أراد طاجيك أن يقاطعه، أن يستفسر منه، أن يجلّي له الغموص

---

الَّذِي فِي كَلَامِهِ، أَنْ يَكْشِفَ الْمَعْمِيَّاتِ الَّتِي لَفَّهَ فِي أَحَابِيلِهَا، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ  
أَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَوَقَّفَ، وَوَأَصَلَ قَائِلًا:

-ولم أجد خيرا من استيصائه بك خيرا أن أصحبك إلى منزلي...  
ستكون في البداية ضيافة، وسنتكلم بعد ذلك... لا تراع، يا ولدي،  
ولكن كن على ثقة أنني لا أريد بك شرًا... أنت الآن في مقام ولدي،  
والرجل الذي جئني، ويعرفك حق المعرفة، ليس غريبا عني كذلك.

وبعد أن استقرَّ بهما المقام في منزله الذي كان بظاهر المدينة ولا  
يبتعد كثيرا عن قصور الوالي وبقية موظفي الدولة، والذي كان منزلا  
حسن الهيئة، كثير الرياش، وافر الأثاث، قد وضع كل شيء فيه في  
موضعه الصحيح، وكان يبدو أن يدا صنعا كانت تتعمده في كثير من  
الرعاية والحنان. وكان طاجيك طوال الوقت يتساءل، ويعيد طرح  
السؤال على نفسه، هل في الدار من نساء، لأنه طوال الوقت الذي  
قضاه مع كبير الشرطة، كان الخدم من الرجال هم الذين يقومون  
بخدمتهما. ومن غريب أن كبير الشرطة كان على علم بما يختلج في  
صدره، ولكنه أراد أن يؤجل الكلام إلى حين الفروع من طعامهما  
ومن إتمام واجب الضيافة التي هي للضيف على المضيف. وبينما كانا  
يشربان اليانسون سويا، وقد استقرَّ بهما المقام في المجلس الذي هو في  
صدر المنزل، قال:

-يا ولدي، إن لك دربا سيوضح في مستقبل أيامك، وسيكون لك  
شأن عظيم... وأرجو أن لا تسألني الآن عن ذلك: لأنه سيكون معلوما  
لديك بعد لأي. وقد أدت شيئا في رأسي، وأريد أن أطرحه عليك رغم  
علمي بغربتك؛ وأنا مخيرك، ولن أجبرك على شيء لا تحبه...  
وصمت.

قال طاجيك، وقد بدأت تساوره بعض الشكوك:

-خيرا إن شاء الله.

تنحج كبير الشرطة كأنما أراد أن يذهب شبيه العكمة في حلقة،

---

ثم قال:

-هل لك في نصف دينك، يا ولدي.

ونظر إليه هذه المرة في تحديد من يريد أن يعرف الجواب في وجهه قبل أن ينطق به لسانه. لم يكن طاجيك يعرف تحديدا ماذا يجب عليه أن يقول؛ ولما طال الصمت وأدرك أنّ عليه أن يقول شيئا، انطلق لسانه في النهاية واهنا وهنا يشي باضطرابه وحيرته:

- إنه لمن دواعي سروري، يا سيدي؛ ولكن لا يخفى عليك وضعي وأنا غريب في ديار غربة، فكيف لي أن أقوم بشؤون زوجة وبيت...؟  
ولكن الرجل استوقفه:

-فكيف إذا كان هناك من سيكفيك كل ذلك؟

لم يكن طاجيك يعلم إلى حدّ تلك اللحظة أنّ مضيفه يعرض عليه ابنته التي لم يكن قد رآها بعد وأنه ينوي، أكثر من ذلك، أن يكفيه مؤونة كل شيء، وأن يستقبله في داره معززا مكرّما.  
قال:

-وإنه، يا سيدي، زيادة على شؤون الزوجة والبيت، والعيال إن قدر الله مجيئهم. هناك سعي وراء العلم؛ وأنا رجل كما تعلم لا يستقرّ بي المقام في مكان. ومازلت لا أعلم شيئا عن حال والدي ومن هي لي بمقام الوالدة.

كان كبير الشرطة يستمع إليه في اهتمام، ولم يشأ أن يقاطعه أو يشعره أنه يريد التأثير عليه، لأنّ القرار سيكون قراره في النهاية، رغم أنّه كان يعلم كلّ أحواله، وكان يرغب من أعماق نفسه لو يكون الزوج لابنته التي كان يحبها أكثر من كلّ شيء في دنياه؛ كما كان يعلم أيضا أنّ الرجل مندور لشيء آخر أكثر من الزواج ومن المقام؛ ولكن، فليحاول على الأقل... وربما وجد كلّ هذا الاقتراح هو في نفس ضيفه...

قال:

-يا ولدي، لقد أعجبتني خلالك، رغم أنّنا لم نتعارف إلا منذ حين؛

---

وأنا الآن أقدم لك ابنتي. إن أردت. زوجة ومعينة لك على هموم الحياة؛ وإذا قبلت فلن تكون في حاجة إلى سعي أو جهد، ومنزلي هو منزلك، وكل ما أملكه سينتقل إليك بعد موتي؛ وإني وإن كنت أسأل الله من كل قلبي أن يتم هذا الزواج، فلن أكرهك على شيء لا تحبه؛ وابنتي هي كل شيء بقي لي في هذه الدنيا بعد وفاة والدتها، وليس لها إخوة أو أخوات؛ وأنا أريد الاطمئنان عليها قبل أن أموت؛ وقد قلت في نفسي لن أجد لها خيرا منك؛ فإن قبلت سيكون ذلك غاية المراد، وسأكون لك ممتنا ما حيت، وإن كان غير ذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...

أراد طاجيك أن يتكلم. كان يشعر أن حلقة تتازحه العبرات، وأن قلبه قد تألّبت عليه مشاعر من كل حذب وصوب، ومن كل عمق وفج، مشاعر غاية في التناقض، حب ما له حدود لهذا الرجل الذي وثق فيه إلى الحد الذي عرض عليه فيه ابنته قرّة عينه، وتبكيته لنفسه لعدم قدرته على اتخاذ القرار المناسب، رغبة تشده إلى بخارى والمكوث بها، وشعوره أنه يجب عليه أن يغادر، ليس بالضرورة إلى بغداد حيث والده وبوران، ولكن لشيء آخر أو سر آخر ما زال لا يعلمه حق العلم، رغبته في الأنس، أن يكون له في هذه الدنيا من يمنحه العطف والحنان والسكن، وإفاته الوحدة والعزلة بعيدا عن الناس ودنيا الناس؛ فماذا عليه أن يفعل إذن؟! ربما سيكون عليه أن لا يفعل شيئا، وأن يدع أمره للأقدار تصرفه كيف تشاء!! ربما سيكون عليه أن يطلب مهلة للتفكير وأن لا يتسرع!! ربما سيندم فيما بعد إذا قال لا، وفورا، والرجل يعرض عليه ليس ابنته فقط، ولكن المال والبيت، والإرث من بعد موته!! ولكن ماذا يفعل في هذه الأصوات التي تلاحقه؟ وهذه الصورة التي باتت تصاحبه كلما أخلد إلى النوم؟ يريد أن يعرف تلك الصورة ويريد أن يعرف صاحبها. تلملم قليلا في مكانه، ولاحظ كبير الشرطة منه ذلك؛ فأدرك بدوره أن أمرا كهذا لا يحلّ في ثواني معدودات، وأن بعض الوقت قد يمنحه وضوح رؤية وصواب قرار، فقال يهون عليه

---

بعض الشيء:

-اسمع، يا ولدي. امنح نفسك وقتا للتفكير قبل أن تقدم؛ وإني لأعلم حقاً أن الأمر ليس بهيّن. ولكن، حتّى - لا قدر الله - لم يكن هناك نصيب، فلا يمنع ذلك أن نظلّ أصدقاء، ويمكن أن تطلبني كلّما احتجت إليّ.

فشكره من قلبه واستأذن ليعود إلى غرفته بالخان. كان الوقت ما يزال ضحى حين فتح باب الغرفة ودخل. لم يكن لديه في ذلك اليوم شيء محدّد ليفعله، ولكنّه وجد رأسه تكاد تنفجر ممّا حصل له في اليوم السّابق، وانضاف إلى مشاغله همّ جديد كان عليه أن يبتّ فيه وبسرعة. أراد أن يتمدّد على حشيتّه. وأن يغمض عينيه، وينسى للحظات كلّ شيء، وأن يخلو لنفسه لبعض الوقت، تلفّه عطالة المكان والزّمان، ولكن باءت محاولته بالفشل، ووجد أنّ خير حلّ كي يتخفّف من حملة أن يكتب من جديد. أخرج السّفْر من مخلاته، وتاريخ الأمم والرّسل، ونشر دفاتره، وقد مرّ أمام عينيه آخر ما كتبه. كانت الأشياء إلى حدّ تلك اللّحظة واضحة في ذهنه. وكانت مسائل الخلق قد أخذت حظّها من التّعليق، وكان يعي أنّه قد وصل إلى الجانب المهمّ من المسألة، خلق الله تعالى لأدم، وعصيان إبليس؛ وقلّب السّفْر، تصفّح أوراقه، ودقّق، كان يريد أن يتأكد فيما إذا كانت التّوراة قد تحدّثت عن إبليس كما فعل المؤرّخون العرب أم أنّها اكتفت بالمرور عليه مروراً عابراً. وشدّ انتباهه شيء في الإصحاح الثّاني، وما ذكر عن اليوم السّابع: «فَأَكْمَلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. أَوْفَرَخَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمَلَ. فَاسْتَرَّاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمَلَ. أَوْبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لِأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَّاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمَلَ اللهُ خَالِقًا.» لم يعجب كثيراً، ولم يصب بالدهشة جرّاء ما قرأه لأنّه يعلم أنّ يهود لا يبالون كثيراً بقداسة الرّبّ وأنّهم يتعاملون معه على أنّه يد ورجل وجوارح ومشاعر كمشاعر النّاس لأنّ غالبيتهم

---

الغالبية من المجسّمة والمشبهة؛ وهو يعلم أنّهم متّسقون مع أفكارهم، لأنّه في عرفهم إذا كان أيّ شخص لا يعلمون عنه إلاّ ما يعلمون عن أنفسهم، وأنّهم بشر يتعبون، ويجري عليهم ما يجري على غيرهم من بني جنسهم، فإنّ من كان مثلهم لا بدّ أن يجري عليه ما يجري عليهم؛ فجعلوا الله - تعالى عمّا يصفون - كائنًا من جملة الكائنات، وهو يجري عليه التّعب كما يجري عليهم فجعلوا له يوما يرتاح فيه، وهو اليوم السّابع. كتب ذلك على الحاشية، وأخذ مؤلّف الطبريّ وتصفحه في عناية لينظر إلى الروايات وجملة الرواة الذين نقلوا ما ذكر عن إبليس في الأبواب المخصّصة له في المؤلّف؛ وقد اختلف السّلف في نسبته وما كان عليه أمره، وهل هو ملك من الملائكة، أم من نسل قوم من الجنّ أو الجانّ، على اختلاف الأقوال في ذلك - وما كانت مهامّه، وهل كان مقدّمًا في السّموات، أم كان مجرد ملك على قبيل من الجنّ.

«ذكر الأخبار الواردة بأنّ إبليس كان له ملك السّماء الدّنيا والأرض وما بين ذلك.

حدّثنا القاسم بن الحسن قال حدّثنا الحسين بن داود قال حدّثني حجّاج عن ابن جريج قال: قال ابن عبّاس كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنًا على الجنان وكان له سلطان الدّنيا وكان له سلطان الأرض.

حدّثنا القاسم قال حدّثنا الحسين قال حدّثني حجّاج عن ابن جريج عن صالح مولى التوّمة وشريك بن أبي نمر أحدهما أو كلاهما عن ابن عبّاس قال إنّ من الملائكة قبيلة من الجنّ وكان إبليس منها وكان يسوس ما بين السّماء والأرض.

حدّثنا موسى بن هارون الهمدانيّ قال حدّثنا عمرو بن حمّاد قال حدّثنا أسباط عن السّديّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن ناس من

---

أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل إبليس على سماء الدنيا وكان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجنّ وإنما سمّوا الجنّ لأنهم خزّان الجنّة وكان إبليس مع ملكه خازنا.

حدّثني عبدان المروزيّ حدّثني الحسين بن الفرج قال سمعت أبا معاذ الفضل بن خالد قال أخبرنا عبيد الله بن سليمان قال سمعت الضحّاك بن مزاحم يقول في قوله عزّ وجلّ فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ<sup>(١)</sup> قال كان ابن عباس يقول إنّ إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان الأرض.

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة قال حدّثنا المبارك بن مجاهد أبو الأزهر عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن صالح مولى التوءمة عن ابن عباس قال إنّ من الملائكة قبيلة يقال لهم الجنّ فكان إبليس منهم وكان يسوس ما بين السّماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطانا رجيمًا» وكتب معلقًا: «وهذه الأقوال، على اختلافها الطّيف في ملفوظاتها، إنّما تجمع على نبيل محتد عدوّ الله إبليس قبل عصيانه، وأنّه كان مقدّمًا على الملائكة. وكان فوق ذلك خازنا من خزّان الجنان؛ وقد عصى الله تعالى الذي أمره بالسّجود لأدم، فأبى، فمسخه الله شيطانا رجيمًا.»

«ذكر الخبر عن غمط عدوّ الله نعمة ربّه واستكباره عليه وأدعائه الرّبوبيّة»

حدّثنا القاسم قال حدّثنا الحسين قال حدّثني حجّاج عن ابن جريج: «ومن يقل منهم إنّني إله من دونه.» قال: قال ابن جريج من يقل من الملائكة إنّني إله من دونه فلم يقله إلاّ إبليس دعا إلى عبادة نفسه فنزلت هذه الآية في إبليس.

حدّثنا بشر بن معاذ قال حدّثنا يزيد قال حدّثنا سعيد عن قتادة:

«ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين.» وإنما كانت هذه الآية خاصة لعدو الله إبليس لما قال ما قال لعنه الله وجعله رجيمًا فقال: «فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين.»

حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة: «ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم.» قال هي خاصة لإبليس.» وكتب: «والآية المشار إليها في الروايات هي الآية التاسعة والعشرون من سورة الأنبياء الشريفة: وقد تحدث الرواة وقالوا في تأويل هذه الآية بالرجوع إلى أقوال من قال إن اللعين إبليس قد ادعى الربوبية من دون الله تعالى، والرواية الأولى مما تناقله الرواة عن ابن جريج: والثانية عن قتادة الذي يأخذ عنه في الغالب شعبة، وفتادة يروي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. وفي العهد القديم، في إصحاحه الثالث لا نجد ذكرا لإبليس، بل نجد ذكرا للحية التي أغوت أمنا حواء وأبانا آدم عليه السلام: «وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة: «أحقًا قال الله لا تأكلًا من كل شجر الجنة؟» فقالت المرأة للحية: «من ثم شجر الجنة تأكل، وأما ثم شجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلًا منه ولا تمسأه لئلا تموتا.» فقالت الحية للمرأة: «لن تموتا! بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر.» ففرت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل. فأنفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان. فخاطبا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مازر.

<sup>٨</sup>وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فأخبتا آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. <sup>٩</sup>فنادى الرب الإله آدم وقال له: «أين أنت؟». <sup>١٠</sup>فقال: «سمعت صوتك في

الْجَنَّةَ فَخَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». <sup>١١</sup> فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟» <sup>١٢</sup> فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَانِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». <sup>١٣</sup> فَقَالَ الرَّبُّ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». <sup>١٤</sup> فَقَالَ الرَّبُّ لِلْمَرْأَةِ لِلْحَيَّةِ: «لَأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. <sup>١٥</sup> وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». <sup>١٦</sup> وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أَكْثُرَ أَتَعَابِ حَبْلِكَ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجْلِكَ يَكُونُ اسْتِيْقَاكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ». <sup>١٧</sup> وَقَالَ لِآدَمَ: «لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. <sup>١٨</sup> وَشَوْكًا وَحَسَاكَ تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. <sup>١٩</sup> بِعَرَقٍ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْرًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَخَذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

<sup>٢٠</sup> وَدَعَا آدَمَ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَاءَ» لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. <sup>٢١</sup> وَصَنَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ لِآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَالْبَسَهُمَا.

<sup>٢٢</sup> وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهَ: «هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلُّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ». <sup>٢٣</sup> فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهَ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا. <sup>٢٤</sup> فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكُرُوبِيمَ، وَلِهَيْبِ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ. «وَفِي الْحَاشِيَةِ كَتَبَ: «هَنَّاكَ أُمُورٌ يَجِبُ التَّنْبِيهُ إِلَيْهَا فِيمَا وَرَدَ فِي الْإِصْحَاحِ الرَّابِعِ، وَهِيَ مَسَائِلُ غَايَةِ فِي الدَّقَّةِ، وَتَفَرَّدَ بِهَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ؛ وَأُولَئِهَا أَنْ مَا وَرَدَ فِي الْإِصْحَاحِ هُوَ أَشْبَهَ بِرِوَايَةٍ، أَوْ حِكَايَةٍ، وَاحِدَةٌ بِلَا سُنْدٍ؛ وَهِيَ فِي أَغْلِبِهَا مُحَاوَرَةٌ، فِي الْبِدَايَةِ بَيْنَ الْحَيَّةِ وَأَمْنَا حَوَاءَ الْمَكْتَبِيِّ عَنْهَا بِالْمَرْأَةِ لِاعْتِقَادِ أَهْلِ التَّوْرَةِ أَنَّهَا سَبَبُ اللَّعْنَةِ وَهِيَ مِنْ أَغْوَتِ «رَجْلِهَا»، أَيِ أَبَانَا آدَمَ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ

---

المحرّمة. والمقطوع به، وهو ثاني الأمور، أنّ يهود ينظرون إلى الله تعالى على أنّه كائن يغضب ويفرح، ويحسّ بالتعب والراحة، وأنّه يحقد ويحسد، ويخاف؛ وقد خاف أن يأكل الرّجل والمرأة من شجرة الحياة فيصبها مثله يعرفان الخير والشرّ؛ وهذا من فساد العقائد، والكلام بالجهل في مسائل الدّين، وإنّما الصّواب ما جاء به القرءان، وما حدّث به عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فليس ما هناك سند له كمن لا سند له؛ وفي القرءان الكريم ليس هناك ذكر للغواية، والغواية أيضا لم تختصّ بها أمنا حواء دون أبينا آدم وإنّما الغواية مشتركة، والله تعالى، رغم ذلك، لم ينتقص من قدر أمنا حواء التي وإن لم يشر إليها القرءان باسمها فإنّما ذكرها بأجمل نعوّتها وهي «زوجك»، فتبارك الله وتعالى عمّا يقولون علوا كبيرا.»

«القول في الأحداث التي كانت في أيام ملك إبليس وسلطانه والسبب الذي به هلك وادعى الربوبية.

فمن الأحداث التي كانت في ملك عدوّ الله إذ كان لله مطيعا ما ذكر لنا عن ابن عبّاس في الخبر الذي حدّثناه أبو كريب قال حدّثنا عثمان بن سعيد قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضّحّاك عن ابن عبّاس قال كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خلقوا من نار السّموم من بين الملائكة. قال وكان اسمه الحارث قال وكان خازنا من خزّان الجنّة قال وخلقّت الملائكة كلّهم من نور غير هذا الحيّ قال وخلقّت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النّار الذي يكون في طرفها إذا ألهمت قال وخلق الإنسان من طين فأول من سكن الأرض الجنّ فأفسدوا فيها وسفكوا الدّماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحيّ الذين يقال لهم الجنّ فقتلهم إبليس ومن معه حتّى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه

---

وقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قال فاطّل الله على ذلك من قلبه ولم تطلّع عليه الملائكة الذين كانوا معه.

حدّثني المثنى قال حدّثنا إسحاق بن الحجاج قال حدّثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس قال إنّ الله خلق الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجنّ يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة قال فكفر قوم من الجنّ فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقتلهم فكانت الدماء وكان الفساد في الأرض. «وهو يتأمل فيما تناقله الرواة عن إبليس جنحت به نفسه قليلا، وتفكر في أمر العباد كيف يرفع الله تعالى مقامهم ويعلي من شأنهم ويعطيهم من كلّ ما يسألون ومن كلّ ما لا يسألون، فيتمردون عليه بعد ذلك، وهو بهم عليم، وهو بهم رحيم، وهو فوق ذلك يمهّلهم ولا يعجلّ لهم في العقوبة؛ ولو كان عجلّ لهم في العقوبة، لما ترك على ظهرها ديارا ولا نافخ نار. وما أمر إبليس إلاّ مبدأ أمر العصاة وهو رأسهم، وهو مبدأ الشرّ والفساد في الأرض، ومن قبل ذلك في السّماء حينما أغرته نفسه بعصيان ربّ العباد، ليس لشيء إلاّ أنّه استكبر على السّجود لآدم زعما منه أنّ معدنه أفضل من معدنه وأنّ النّار أرفع من الطّين، وهو لا يعلم أنّ أساس التّفاضل بين النّاس إنّما هو التّقوى والإيمان للحديث المذكور عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم: حدّثنا إسماعيل قال: حدّثني مالك عن عمرو بن يحيى المازنيّ عن أبيه عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه عن النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم: «يدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار، ثمّ يقول الله تعالى أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودّوا فيلقون في نهر الحيا، أو الحياة، شكّ مالك. فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السّيل، ألم تر أنّها تخرج صفراء ملتوية.» قال وهيب حدّثنا عمرو: «الحياة.» وقال: «خردل من خير.» وفي الحديث الآخر من صحیح البخاريّ رحمه الله ما حدّث به محمّد بن عبید الله قال: حدّثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل أنّه

سمع أبا سعيد الخدريّ يقول: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بيننا أنا نائم رأيت النَّاسَ يعرضون عليّ، وعليهم قمص منها ما يبلغ الثَّديّ، ومنها ما دون ذلك، وعرض عليّ عمر بن الخطَّاب وعليه قميص يجره.» قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدِّين.» ثمَّ جالت عيناه وهو ما يزال تحت تأثير خواطره على السَّبب الَّذِي من أجله هلك عدوُّ الله إبليس لما سوَّلت له نفسه الاستكبار على ربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، حيث يقول الإمام أبو جعفر الطَّبريّ: «اختلف السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين في ذلك وقد ذكرنا أحد الأقوال الَّتِي رويت في ذلك عن ابن عبَّاس وذلك ما ذكر الضَّحَّاك عنه أَنَّهُ لما قتل الجنَّ الَّذين عصوا الله وأفسدوا في الأرض وشردَّهم أعجبتَه نفسه ورأى في نفسه أنَّ له بذلك من الفضيلة ما ليس لغيره والقول الثَّاني من الأقوال المروية في ذلك عن ابن عبَّاس أَنَّهُ كان ملك سماء الدُّنيا وسائسها وسائس ما بينها وبين الأرض وخازن الجنَّة مع اجتهاده في العبادة فأعجب بنفسه ورأى أنَّ له بذلك الفضل فاستكبر على ربِّه عزَّ وجلَّ.

#### ذكر الرواية عنه بذلك:

حدَّثنا موسى بن هارون الهمدانيّ قال حدَّثنا عمرو بن حمَّاد قال حدَّثنا أسباط عن السَّديّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبَّاس وعن مرَّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لما فرغ الله عزَّ وجلَّ من خلق ما أحبَّ استوى على العرش فجعل إبليس على ملك سماء الدُّنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنَّ وإنَّما سمَّوا الجنَّ لأنَّهم خزَّان الجنَّة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوق في صدره كبر وقال ما أعطاني الله هذا إلا لمزيتة هكذا حدَّثني موسى بن هارون.

وحدَّثني به أحمد بن أبي خيثمة عن عمرو بن حمَّاد قال لمزيتة لي على الملائكة فلمَّا وقع ذلك الكبر في نفسه اطَّلَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ على ذلك

---

منه فقال الله للملائكة: « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .»

حدَّثنا ابن حميد قال حدَّثنا سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكّان الأرض وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما فذلك الذي دعاه إلى الكبر وكان من حيّ يسمّون جنّا.

وحدَّثنا به ابن حميد مرّة أخرى قال حدَّثنا سلمة عن ابن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس أو مجاهد أبي الحجّاج عن ابن عباس وغيره بنحوه إلا أنّه قال كان ملكا من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكّان الأرض وعمّارها وكان سكّان الأرض فيهم يسمّون الجنّ من بين الملائكة.

حدَّثنا ابن المثنّى قال حدَّثنا شيبان قال حدَّثنا سلام بن مسكين عن قتادة عن سعيد بن المسيّب قال كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

والقول الثالث من الأقوال المروية عنه أنّه كان يقول السّبب في ذلك أنّه كان من بقايا خلق خلقهم الله عز وجلّ فأمرهم بأمر فأبوا طاعته.

ذكر الرواية عنه بذلك:

حدَّثني محمّد بن سنان القرّاز قال حدَّثنا أبو عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس قال إنّ الله خلق خلقا فقال اسجدوا لأدم فقالوا لا نفعل قال فبعث الله عليهم نارا تحرقهم ثمّ خلق خلقا آخر فقال إنّني خالق بشرا من طين فاسجدوا لأدم فأبوا فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم قال ثمّ خلق هؤلاء فقال ألا تسجدوا لأدم قالوا نعم قال وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لأدم.

وقال آخرون بل السّبب في ذلك أنّه كان من بقايا الجنّ الذين كانوا

---

في الأرض فسفكوا فيها الدماء وأفسدوا فيها وعصوا ربهم فقاتلهم  
الملائكة.

ذكر من قال ذلك:

حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا يحيى بن واضح قال حدّثنا أبو سعيد  
اليحمديّ إسماعيل بن إبراهيم قال حدّثني سوار بن الجعد اليحمديّ  
عن شهر بن حوشب قوله: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ». قال كان إبليس من الجنّ  
الذين طردتهم الملائكة فأسرّه بعض الملائكة فذهب به إلى السّماء.

حدّثني عليّ بن الحسن قال حدّثني أبو نصر أحمد بن محمّد الخلال  
قال حدّثني سنيد بن داود قال حدّثنا هشيم قال أخبرنا عبد الرحمن  
بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن  
مسعود قال كانت الملائكة تقاتل الجنّ فسي إبليس وكان صغيرا وكان  
مع الملائكة يتعبّد معهم فلمّا أمروا أن يسجدوا لأدم سجدوا وأبى  
إبليس فلذلك قال الله عزوجل: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ».

قال أبو جعفر وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصّواب أن يقال كما  
قال الله عزوجل: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ  
كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» وجائز أن يكون فسوقه عن أمر  
ربه كان من أجل أنّه كان من الجنّ وجائز أن يكون من أجل إعجابه  
بنفسه لشدة اجتهاده كان في عبادة ربه وكثرة علمه وما كان أوتي من  
ملك السّماء الدّنيا والأرض وخزن الجنان وجائز أن يكون كان لغير ذلك  
من الأمور ولا يدرك علم ذلك إلاّ بخبر تقوم به الحجّة ولا خبر في ذلك  
عندنا كذلك والاختلاف في أمره على ما حكينا ورويناه.

وقد قيل إنّ سبب هلاكه كان من أجل أنّ الأرض كان فيها قبل  
أدم الجنّ فبعث الله إبليس قاضيا يقضي بينهم فلم يزل يقضي بينهم  
بالحقّ ألف سنة حتّى سمّي حكما وسمّاه الله به وأوحى إليه اسمه  
فعند ذلك دخله الكبر فتعظّم وتكبّر وألقى بين الّذين كان الله بعثه

إلهم حكما البأس والعداوة والبغضاء فاقتتلوا عند ذلك في الأرض ألفي سنة فيما زعموا حتى أن خيولهم تخوض في دماءهم قالوا وذلك قول الله تبارك وتعالى: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ<sup>(١٥)</sup>». وقول الملائكة: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ». فبعث الله تعالى عند ذلك نارا فأحرقهم قالوا فلما رأى إبليس ما نزل بقومه من العذاب عرج إلى السماء فأقام عند الملائكة يعبد الله في السماء مجتهدا لم يعبده بشيء من خلقه مثل عبادته فلم يزل مجتهدا في العبادة حتى خلق الله آدم فكان من أمره ومعصيته ربّه ما كان. وهو يقرأ، قبل أن يكتب، أراد أن يردّ الآيات المذكورة في الروايات إلى سورها، ومنها ما ذكر في البداية جزء منها، ثم أثبتت بعد ذلك الآية كاملة. من مثل «كَانَ مِنَ الْجِنِّ». التي تقع في: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا<sup>(٥٠)</sup>». وهي الآية الخمسون من سورة الكهف. ومثلها الآية من سورة البقرة، وهي ثاني سور القرآن العظيم، وقد ذكر في البداية شطر منها: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً». وذكرت بعد ذلك بتمامها: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ<sup>(٣٠)</sup>». وهي الآية الثلاثون من السورة المذكورة أنفا. ومثلها أيضا الآية من سورة «ق»، وهي: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ<sup>(١٥)</sup>». وهي الآية الخامسة عشر. ثم هنالك أمور لا بدّ من الإشارة إليها والتنبية عليها؛ من ذلك مثلا أنه ليس هناك قول واحد في مذمة إبليس واستكباره وسبب أبوقه، وإنما هناك أقوال متعددة أوردتها جميعها أبو جعفر، ثم هو بعد ذلك يرجح أصوبها بما صحّ من الأقوال من أحاديث يمكن أن تكون قد رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فما يروى عنه صلى الله عليه وسلم هو المقطوع به دون

---

شكّ، والباقي اجتهادات وإن وردت عن أجلاء الصّحابة الذين منهم من يكون قد استمع إلى أطراف ممّا حدّث به عبد الله بن سلام رضي الله عنه، أو وهب بن منبّه، أو كعب الأحبار الذي هو من التابعين. وإذا تأملنا هذه الروايات، على اختلافها، يمكن أن يكون لها رابط. وقد يوفّق بين جميعها على تباينها. فأولى هذه الأقوال أنّ إبليس كان ملك السّماء الدّنيا؛ وهو في هذه الرواية، وإن كان ملكا، لم يحدّد جنسه أو المعدن الذي منه خلق، إذ هناك من الرواة من يعتبر أنّ من الملائكة من يمكن أن يكون قد خلق من نار وليس من نور؛ ثمّ تعتبر الرواية الثّانية أنّه كان من نسل قبيل من الجنّ عصوا الله تعالى فانقم منهم وأبادهم. وفي نفس هذه الرواية، نجد أنّ الله تعالى قد خلق آدم وكان يخلق في كلّ مرة فريقا من الجنّ فيأمرهم بالسّجود له فيأبون ذلك فيحرقهم، حتّى خلق خلقا ثالثا وأمرهم بالسّجود فأطاعوه إلّا ما كان من أمر إبليس فإنّه أبى واستكبر، فكان من أمره ما هو المذكور في القرآن الكريم. وذهبت طوائف أخرى من الرواة مذاهب أخرى، فرجّ بعضهم أنّه من قوم كانت أسرته الملائكة، وكان إبليس من بينهم، فرفعته الملائكة إلى السّماء؛ ونراه في هذه الرواية صغيرا قد شبّ مع الملائكة يعبد الله عزّ وجلّ ويجتهد في عبادته حتّى كان خلق آدم الذي أمر بالسّجود له فأبى ذلك وعزّ عليه أن يسجد لخلق خلقه الله من طين في حين كان هو مخلوقا من نار. ويرجّح أنّ اسمه كان عزازيل. ويختتم الإمام محمّد بن جرير رحمه الله بترجيح أقرب هذه الأقوال إلى الصّواب، فينتهي إلى ما هو مثبت في الآية الكريمة المذكورة سلفا من سورة البقرة.

---

وهو يراه، الآن، كما يرى شيء على البعد، على شحط، حيث ما تزال لا جهات ولا علامات، ولا ما يشير إلى بدايات معلومة أو نهايات محتومة؛ والتكوين الذي كان اكتمل يعود مرة أخرى ليلتئم على نفسه؛ وكأنّ ما قرأه وكان كتبه على الحواشي طيلة أيام من التعب والضّئى كان مجرد احتمال من جملة احتمالات أخرى قد تصدق أو تخيب؛ وهو يراه، لا يدري في أيّ زمان أو أيّ مكان، أفي اليقظة أم في المنام، أم في تلك الحالة التي تكون بين بين، لا هي نوم كله أو يقظة كلها، ولكن شيئاً تكون فيه العيان شبه مغمضتين كأنّهما تريان أشياء من وراء ستار، كذلك الستار الذي يتخذ في مقاصير الخلفاء حيث تكون هناك الجواري والنساء يستمعن إلى موسيقى المغنين والدقّافين والعازفين على العيدان والمزاهر والبرابط؛ وهو يرى، إنّه سير إلى الأمام، إنّه خروج، وليس عود على بدء، أو استئناس بالمكان، استئناس من يعلم أنّه عائد لا محالة إلى مرابع صبا، أو أمكنة اعتيد عليها، غدا صاحبها يعرفها كمعرفته لظاهريده، وهو يريد أن يعرف على الأقلّ من هذا الذي يخرج... كلّ ما كان يعلمه أنّ الوقت كان يقترب من العتمة، وأنّ شمسا كانت قد أفلت منذ حين؛ وهو وإن لم تكن هناك معالم واضحة، فقد كان يبدو في المحيطات الحاقّة والنهايات مخايل لعظم وكبر، لشيء لا يمكن أن تحيط به العين لأنّه كبير كبير، جدّاً؛ في مثل هذه الحالات لا يكون ذلك الكبر إلاّ لمدائن كبيرة، مدائن يكثر فيها البيع والشراء، وتكثر فيها البنايات، وتكثر فيها الدّور والقصور، وأحواض الماء، والمقاصير وكلّ شيء ترتاح إليه العين؛ ولكن أيمن أن تكون

تلك بغداد، وأن يكون ذلك الذي يخرج الآن هو أحد التجّار أو أحد الرّحالة، أو صاحب سرّ من الأسرار، أو أحد الذين اضطرتهم الظروف إلى الالتحاق بشعاف الجبال لينضمّ إلى أولئك المنقطعين إلى الله، كما كان فعل التّوحيديّ رحمه الله في مبدأ شبابه، أم أنّ ذلك الخارج رجل من نوع آخر ومن زمان آخر... بات قريبا منه وهو ينظر إليه، ولم يكن عليه ما يشير إلى أنّه مثله أو مثل غيره من أهل زمانه؛ وكانت ملابسه التي يلبسها، على بساطتها، لا تمتّ إلى ما كان يعرفه من ملابس القوم، ليس في بغداد وحدها، ولكن في البصرة والكوفة وواسط وخراسان وبلاد ما وراء النهر؛ وهذا الذي يخرج، ولم يتحقّق في البداية إلّا ملابسه، كان يبدو له كما لو أنّه كان حاسر الرأس، خفيف الملابس، لا يلبس شملة أو قفطانا، أو سراويل كالتي يرتديها أهل الزّمان، ولا نعاله كنعالمهم، وكان يمشي خافض الرأس...

سمع صوتا، كان خفيضا، وكانت فيه سلطة ولكن فيه رقة أيضا؛ وكان الصّوت قريبا جدّا، فالتفت، لابت عيناه في كلّ المكان، ولم ير شيئا؛ ودقّق جيّدا، وقام، قال في نفسه لعلّ الصّوت يكوّ آتيا من الخارج، أو لعلّه مناد يناديه؛ كانت العتمة مطبقة، والشّارع من وراء نافذته خاليا تماما، وكان ما يسمعه مجردّ أصوات لهوامّ اللّيل تأتي من جهات مختلفة.

قال الصّوت:

- لا تراع، يا ولدي، فلن تراني الآن على الأقلّ؛ ولكن اعلم أنّي لست في أيّ مكان بالخارج، وأنا معك حيث أنت، في الغرفة، فتعال واجلس، ولا تخف.

كان خائفا، وكان مضطربا لا تكاد تحمله رجلاه؛ وذكر فجأة، كأنّما بفعل إلهام أو وحي طارئ، ما ذكره له كبير الشّروطة وربط ما كان قاله بما يراه الآن، فعرف أنّ هناك سرّا ما، وأنّ عليه أن يصبر، وأن يتأنّى، ليذكر جليّة الأمر؛ قال في حياء، وقد بدأ يزيّله بعض ما ألمّ به:

---

من أنت، أيها الصّوت؟  
أجاب الصّوت، وبدا له أنّه بات قريباً جدّاً منه، قريباً من النّضد  
الذي كانت عليه أوراقه وكتبه وأضاييره:  
أنا شيخك، يا ولدي.

كان محتاراً؛ ولم يتحقّق معنى هذه الكلمة، التي لم يكن يسمّعها  
لأوّل مرّة، فقد كان له شيوخ كثير، شيوخه في النّحو والصّرف، وشيوخه  
في الفقه والأصول، وشيوخه في كلّ شيء كان درسه؛ ولكنّه، وهو  
يسمّعها الآن، هذه الكلمة، يدرك أنّ لها وقعاً جديداً، أنّ معناها  
يختلف، وأنّ هذا الرّجل الذي يتكلّم الآن لم يجرى ليعلمه أيّ شيء من  
العلوم التي كان ذكرها، وإنّما جاء لشيء آخر... لسرّاً آخر... أو شيء  
أكبر من السّر... وربّما أيضاً تكون له علاقة بهذا الخارج... هذا الطّارئ  
الذي بات يراه، ليس في نومه فقط، بل في كلّ طور من أطوار حياته.

قال، وكان يشعر بعكمة تسدّ حلقة وتمنعه من الكلام، وجهد أن  
يخرج صوته متأنياً وهادئاً:

سيدي، هل لي أن أسألك؟

ردّ عليه الصّوت:

-أنا، يا ولدي، لم أجد إلى هنا إلاّ لتسألني وأجيبك.

سأل طاجيك:

-فأيّ شيوخني أنت؟!

أجاب:

-إذا كنت تعتقد أنّي أحد الشّيوخ الذين كانوا درّسوك في بغداد أو  
في غيرها، فاعلم أنّي لست أحدا منهم. أنا، يا ولدي، شيخ الأسرار... أنا  
شيخ هذا الطّور الجديد من حياتك الذي ستري فيه وتعرف...

كانت تلك بداية غريبة، في نظر طاجيك، وقد كان يعترها الكثير من  
الغموض والإلغاز، غير أنّه أصبح متحقّقاً أنّه مقدّم على شيء عليه  
من الآن فصاعداً أن يستعدّ له؛ إنّ لكلّ طور أسرارها، وإنّ لكلّ طور

ما يوافقه من الاستعداد، والتزوّد له بالموونة التي ستؤمّن له نهاية شوطه، وإنّ لكلّ طور رياضة، وعليه أن يكون متهيئاً لاتّخاذ القرار، إن كان هناك قرار سيكون عليه أن يتّخذه؛ ونطّت فجأة في ذهنه صورة صاحب الشرطة وابنته التي لم يكن قد رآها بعد، والتي كان مفروضاً أن تصبح زوجته؛ وشعر لبعض لحظات أنّه يميل بكلّ قلبه المتعب إلى ما كان عرضه عليه الرّجل؛ وتخيل نفسه في لحظة من الزّمان في ذلك البيت الفخم تسير به الحياة في هيئة إلى جانب زوج جميلة وهادئة وورصينة؛ وتخيل نفسه إلى جانب أبناء أنجهم فصاروا قرّة عينه وملء سمعه وبصره؛ ويرتدّ ثانية إلى واقعه، وإلى الصّوت من حوله، فيسأل، وهو ما يزال يجهل الشّيء الكثير عن هذه الأسرار وصاحب الأسرار:

-أيّ أسرار، يا سيّدي؟ وهل لهذه الأسرار من شيوخ؟

قال الصّوت:

-يا ولدي، الحياة كلّها أسرار، وأجمل هذه الأسرار ما يوصلك من طريق إلى طريق؛ وطرق الأسرار محفوفة بالشّوق والمكابدة، وعليك أن تكون مستعداً دائماً...

ثمّ صمت فجأة... طال الصّمت كثيراً، وظنّ طاجيك أنّه لن يتكلّم بعدها أبداً، غير أنّه سمعه يتكلّم مرّة أخرى:

-سأكون معك، يا ولدي؛ ستجدني حيث ذهبت؛ وإني وإن كنت لست مخوّلاً في مرافقتك، فإنّ عينيّ سترعيانك...

قاطع طاجيك:

-إني لا أفهم شيئاً، يا سيّدي.

قال:

-أنت لست مضطرباً للفهم الآن؛ كلّ ما عليك أن تفعله أن تواصل ما كنت بدأت فيه، ولكن اترك لقلبك أيضاً أن يرى... افتح عينيك جيّداً، وليكن قلبك يقظاً حين تنام... إنّ من تراه، على البعد، قد يكون أنت، وقد لا يكون عليك أن تخرج مثله... إنّ من الأسفار، يا ولدي،

---

من يقوم بها صاحبها وهو مقيم، وقد تكون أنت ذلك المسافر المقيم...  
ورحل الصّوت.

كان يشعر أنّ عليه أن يتخفّف قليلا من أحماله الّتي باتت ثقيلة؛  
وكان يشعر أيضا بالتعب جرّاء ما قام به من جهد في يومه من الكتابة  
على الحواشي؛ وقد كان في داخله يشعر بالرّضا للجهد الّذي بذله؛ لا  
يذكر أنّ أحدا من المتقدّمين أو المتأخّرين كان يمهّمه كثيرا أن يقوم بهذه  
الحواشي في شكل مقارنات بين أسفار العهد القديم وكتب المؤرّخين  
العرب. نعم، كان يقرأ شروحا ضافية، وبعض التّحقيقات الّتي كان  
يراهها من حين لآخر في سوق الورّاقين في كلّ المدن الّتي مرّ بها؛ غير أنّه لم  
يرحقا شيئا كالّذي يفعله هو اليوم؛ وهو وإن كان قد بدأ هذا العمل  
من باب التّرفيه وقتل الوقت، فقد جدّ في حياته جديد؛ وما هذا الخارج  
الّذي يراه، وهذا الصّوت الّذي نبع فجأة من العدم، وكلام صاحب  
الشّريطة من قبل ذلك إلاّ إشارات لشيء لا يعلمه وربّما تكون له علاقة  
بما يكتبه، فقرّر أخيرا أن لا يتوقّف... سيترك لخياله العنان، وسيرى ما  
يمكن أن تؤدّي إليه كلّ هذه الرّحلة الّتي يبدو أنّه مقدّر لها أن لا تنتهي  
أبدا؛ ولكن قبل ذلك عليه أن يستجم، أن يأخذ نصيبا من الرّاحة،  
وأن يضطرب قليلا في خضمّ حياة النّاس، وأن يرى ما يروونه، قبل أن  
تأخذه مرّائه إلى عوالم غير العوالم وأسرار غير الأسرار. في القهوة، كان  
يجلس مرّة أخرى إلى صاحبها، علاء الدّين، وقد أضرمر هذه المرّة أن  
يلتزم بمواعيد الحظر، وأن يمرّ على كبير الشّريطة في ديوانه للاطمئنّان  
عليه... جاء الصّبّي بالأراكيل وأكؤس القرفة واليانسون، ووضعها بكلّ  
تأنّ وأدب على النّضد القائم بين الرّجلين ورحل تلقّه جهمة ذلك اليوم  
الّذي كانت تبدو سحائبه في الأفق البعيد المتوشّح ببداية دكنة كانت  
تخفت وتكثف دون انقطاع.

قال علاء الدّين:

- يبدو أنّها ستمطر اليوم... هنا الطّقس لا يقارن بطقس بغداد،

---

خصوصا في هذا الوقت من السنة.

ومدّ يده إلى خرطوم الأركيلة. وراح يسحب الدخان إلى صدره، وهو يتأمل الجوّ في الخارج وينظر إلى جزر السحاب التي كانت تتكاثف من جهة الشرق.

قال طاجيك، وهو يجاربه، وقد حسا حسوة كبيرة من كأس اليانسون الساخن، وامتدّت يده إلى الأركيلة، فوضع خرطومها في فمه وراح يسحب الدخان بعمق، وكأنّه يريد أن يطرد كلّ الأفكار الغير المرغوبة التي كانت انتابته في الأيام القليلة الماضية:

-صدقت. هنا الأيام تمرّ بسرعة والطّقس دائم التقلّب: والحياة، على رتابتها والعزلة التي نحيها، راققة وجميلة...

ثمّ صمّت فجأة وبدا له أن يسأل الرجل، ولكنّه كان متهيّبا؛ ربّما لا يريد علاء الدّين لشخص، وإن كان قريبا، أن يسأله، أن يتدخّل في حياته، فقد كان يبدو عليه أنّه راض بوحده، مطمئنًا إلى رتابة حياته. غير أنّه في الأخير، قرّر أن يكسر حاجز الصّمت بينهما، فقال سائلا:  
-اعذرني، يا سيّد علاء الدّين، على تطفلي. هل لك زوجة في هذه البلاد وأبناء؟

كان علاء الدّين شاردا بعض الشّيء؛ وقد انتبه أخيرا كمن ينتبه من حلم طويل كان غارقا فيه؛ أخذ نفسا طويلا من أركيلته، وقال وقد علت وجهه غلالة طفيفة من الحزن:

-لم يقدر لي أن أتزوّج بعد الذي كان... إنّ نفسي قد عافت الزّواج مرة أخرى؛ وقد كنت دائما أقول لنفسي مذ وطئت قدماي هذه الدّيار، وكنت دائم التّفكير في الزّواج وبناء بيت كبقية خلق الله؛ ماذا لوتزوّجت وحصل لي مثل الذي حصل في بغداد؟ ومن يضمن لي أنّ الذي حصل هناك لا يحصل هنا؟ فأجديني أحسن بالفتور، وأقول، لا عليك، يا علاء الدّين، فقد كتب عليك أن تحيا وحيدا وتموت وحيدا... وهكذا كان. أنا الآن راض بحياتي، لست سائلا ولا مسؤولا؛ وحياتي أعيشها كفافا؛

---

فماذا أطلب غير ذلك؟

قال طاجيك، وقد ارتاح أخيرا، إلى اعتراف صاحبه:

-وهل تجد متعة في حياة العزوبة التي تحياها؟

قال علاء الدين في اقتضاب:

-الحمد لله على كل حال.

كان هناك شيء ينغل في ذهن طاجيك، وكان متحرّجا منه، لأنّه لم يكن من جنس الأسئلة التي يطرحها عادة من يلتقون صدفة، ولم تكن بينهم سابق صداقة أو معرفة؛ ولكنّه كان يجد من علاء الدين إقبالا كان يدفعه هو الآخر إلى الإلقاء بما بدخيلة نفسه من الهموم والأشجان. سأل:

-الأتحنّ...

وصمت فجأة. وهو يتأمل جلسيه بطرف عينه، في الوقت الذي كان يحسو من كأس اليبانسون، ويسحب الدخان بلطف إلى صدره... لم يبد على علاء الدين ما يشي بأنّه حزر ما يدور في خلدّه، فقد كان ملتئما على نفسه في جلسته ما يزال ينظر إلى جزز السحاب في الخارج؛ وكان صوت طاجيك وهو يتكلّم كأنّما يأتيه من وراء ساتر رقيق لا يسمح إلاّ بمثل الرّجع من ورائه، ولكنّه كان كافيا أن يسمعه وأن يفهم معناه. قال سائلا:

-ماذا تقصد؟!

قال طاجيك في مواربة يسعى بها إلى إخفاء ما أضمر:

-الأتري إلى الله تعالى حين يقول في سورة الرّوم: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»<sup>(٢١)</sup>؟

قال علاء الدين:

-بلى.

قال طاجيك:

---

-فإنَّ الله تعالى خلق النِّساء للرجال وللرجال للنِّساء؛ ولا بدَّ للرجال أن يحس...

أدرك علاء الدِّين مقصده، فقال دون بالغ اهتمام:  
-لقد فهمت مقصدك، وما ترمي إليه؛ إنَّ من هو في مثل وضعي لا يحقُّ له التَّفكير في النِّساء...  
قاطع طاجيك:

-ولماذا كلُّ هذا التَّشاؤم؟ أرى أنَّه لا ينقصك شيء؛ وأنت، والحمد لله، رجل قادر على إعالة نفسك وإعالة من يمكن أن تكون لك حليلة؛ وأمر الأولاد سوف لن يكون عقبة في سبيل سعادتكما.  
قال علاء الدِّين كمن ضاق بهذا الحديث وأراد أن يضع له حدًّا، ولكن بطريقة فيها من الأدب بقدر ما فيها من الدِّمائية:

-لقد فات الأوان، يا سيدي. والإنسان لا يعيش عمره وعمر غيره؛ ويكفيني من الحياة أنَّني تزوجت وأنَّ من أحببتها وكانت أمَّ عيالي قد قضت هي وأبناؤها دون جريرة اقترفوها سوى أنَّني كنت رجلا سيِّء الحظِّ رمته المقادير في طريق من لا يرحم.

كان طاجيك يريد أن يواسيه. قال له بعض كلمات رفاق، وتبيهاً للخروج وقد تعمَّد هذه المرَّة أن يعانقه ليشعره أنَّ الدُّنيا ما تزال بخير وأنه، بالرَّغم من قساوة الحياة، ما يزال هناك من يهتمُّ لشأنه، وغادره على أمل اللِّقاء به قريباً.

حينما خرج كان المؤدَّن يؤدِّن لصلاة الظُّهر، وكان قريباً من المسجد الجامع، فاغتنم الفرصة ليصليَّ مع باقي المصلِّين قبل أن يلتحق بديوان الشَّرطة في قصر الوالي. لم يكن هناك الكثير من المصلِّين، ولكنَّه رأى في الجهة اليمنى قريباً من النَّاظدة الكبيرة التي كانت تفتح على الشَّارع من الخلف رجلاً كان يغرق في البياض، وما كان يظهر منه جانبه الأيسر، وكان وجهه موارباً؛ غير أنَّه لا يعلم لماذا شعر بانجذاب لا يقاوم نحوه... كان ذلك الرَّجل غارقاً في السَّكون، وكأَنَّه التَّمثال لا يريم، وكان كلُّ ما

---

فيه يوحى بخشية وخشوع، وشيء أقرب إلى القداسة؛ ولا يعلم أيضا لماذا طفت على ذاكرته في تلك اللحظة بالذات آثار ذلك الصوت الذي كان سمعه في غرفته هذا الصبح؛ وقد وجد نفسه يستغرق في ظنونه وهو اجسه لولا أن سمع الإمام يكبر استعدادا للدخول في الصلاة. كبر هو الآخر، وكان يحاول أن يتوارب في حالة من الخشوع لم تكن لتدوم إلا قليلا، ودعا الله في سره أن يخلصه مما هو فيه إلى حين الانتهاء من فرضه... كان باله مشغولا بالرجل ومن يكون، وهل لذلك علاقة بالصوت الذي كان سمعه... قال له إنه سيكون معه... قال له إن عينيه ستحرسانه حيثما كان... وقال شيئا عن الأسرار والأشواق والمكابدة... حينما سلم الإمام تطلع إلى الجهة التي حسب أنه أثبت الرجل فيها فلم يجد شيئا، وبدلا من ذلك رأى حلقة لأحد الشيوخ وكان يتحدث في الفلسفة عن الماهية والعوارض والجواهر، والفساد والفناء، والخلق. استعاذ في سره من الشيطان الرجيم؛ وخرج وقد أزمع أن يكون لقاؤه بصاحب الشرطة خاليا من كل ما يمكنه أن ينغص عليه فرصة من الفرص النادرة التي كان يلتقي فيها بمن عرفهم في بخارى... كان صاحب الشرطة يقف بالباب وكأته كان يتوقعه. وبش في وجهه لما رآه، وقاده إلى متكا ليس ببعيد عن ديوانه؛ وقال له وهو يرتاح باطمئنان في مجلسه:

-انتظرنى، يا ولدي، لبعض الوقت، ريثما أنني بعض الأشغال العالقة، ثم سنذهب سويا إلى البيت، فقد أمرت قوت القلوب قبل الذهاب إلى الديوان هذا الصبح أن تعد لنا هي والجواري غداء يليق بالمناسبة...

شعرتاجيك بقليل من البلبلة، واستعاد في ذهنه آخر لقاء بينهما، علّه يتذكر إن كان أخبره أنه سيأتي لزيارته في هذا اليوم؛ ولكن الذكرة لم تسعفه بطائل، وانتهى به الأمر إلى التسليم، ولكن، وهو يتحرك في مكانه ليعدل جلسته عاوده شيطان المشاكسة، فقال سائلا في حياء

---

وتردّد في نفس الوقت:

-هل كنت أخبرتك آخر مرّة أنّي سأأتي هذا اليوم، أم أنّك حدست  
مجيئي كعادتك مع كلّ ما يتعلّق بي؟!

فضحك كبير الشّرطة ملء فيه، وكان قد أخذ مكانه وراء الدّيوان،  
ثمّ قال، وكأنّه يريد أن يمازحه ويحطّم جدار الكلفة بينهما مرّة وإلى  
الأبد:

من الآن فصاعداً، لا تراع كثيراً، واقبل صداقتنا على علاّتها... إنّ  
هناك الكثير من الأشياء التي ستعرفها في حينها، فلا تتعجّل؛ واعلم، يا  
ولدي، أن الله تعالى أثنى على الصّابرين.

ثمّ نهض، وهو يقول:

-حان الوقت للذهاب إلى البيت، وأرجو أن تكون ابنتي قد انتهت  
مع الجوّاري من الغداء...

وانطلقا سوياً في اتجاه البيت الذي لم يكن يبعد كثيراً عن الدّيوان؛  
وبمجرد أن دخلا استقبلتهما روائح لم يشمّ طاجيك أشهى ولا ألذّ منها  
في حياته؛ وجعله ذلك يتخيّل المرأة التي كانت وراء كلّ تلك الروائح؛  
وقال في نفسه: «إنّ امرأة لها من القدرة على أن تؤلّف بين هذه الروائح  
العجيبة، لا بدّ أن يكون اعتناؤها فيما يخصّ روائحها أرقى بكثير.»  
وراح يتصوّر، ويبني صورة في خياله لهذه المرأة التي مازال لا يعرف عنها  
شيئا غير اسمها... وقوت القلوب هو اسمها، وما أجمله من اسم؛ فهل  
تكون جميلة كإسمها، يا ترى؟! كان لا يشكّ في ذلك بينه وبين نفسه،  
وكان يحاول أن يهدّي من جيشانها بتحريك أصابعه بين الفينة والفينة  
ورفعها إلى إلى مستوى لحيته مرّة، ثمّ تظاهره بتسوية ثنية أو عطفة  
في قفطانه مرّة أخرى؛ وكان كبير الشّرطة ينظر إليه، ويكتم ضحكة  
صغيرة كانت تحاول أن تغافله لتنتقل في فضاء المكان... كان يعلم -  
ليس مجرد حدس، ولكن يقينا - أنّ طاجيك يفكّر في ابنته، وأنّه بدأ  
يهتمّ أمرها؛ كما كان يعلم أنّ ضيفه اليوم قد جاء ليعلّمه بقراره قبول

الزّواج منها... إنّ هناك أطيافا تأتيه... أصواتا... وهواتف: ولم يكن كل ذلك وليد اللحظة. ولكنه شيء تربّى معه مذ كان في سنّ العاشرة من عمره. حين كان أبوه يأخذه معه إلى حلقات بعض الصّوفيّة في ظاهر البلد. وحين رآه شيخه قال له في مساررة مناجاة، بعيدا عن الغلام: «اسمع، يا بسطام، إنّ لولدك ضياء الدّين هذا لشأنا، فاعتن به، ولا تغفلنّ عنه؛ فسيكون إن شاء الله من الواصلين.» ونشأ الغلام، كما تنبأ له الشيخ، وهو ينمو مع الأسرار والهواتف والأصوات؛ وهو وإن كان يرى أنّ القدر وحده هو الذي وضع طاجيك في طريقه؛ وأن ليس من هواتفه من جاءه مسبقا ليعلمه بهذا اللّقاء المفاجئ، فقد كان يهجس داخله إيحاء بأنّ شيئا سيقع... بأنّ حدثا ما، سيغيّر حياته؛ غير أنّه، مع ذلك، ما يزال لا يعلم شيئا عن طبيعة هذا التّغيير؛ وحينما طرح على طاجيك مسألة الزّواج من ابنته إنّما كان ذلك بمبادرة منه. ولم يكن ذلك بأيّ تدخّل من هاتف أو صوت. كان سعيدا، ليس فقط لنفسه، ولكن لابنته أيضا التي ستضمن زوجا قد خبر الحياة، وهو وإن كان رقيق الحال في بخارى، فقد يكون موسرا حيث كان، وهو إلى كلّ ذلك عالم من العلماء، فكيف لا يسعد؟!

كان الغلمان في أثناء استغراقهما، كلّ في أفكاره وهواجسه، يدخلون محمّلين بالصّحون والصّواني وصحاف بمختلف الألوان والأحجام، جعلت طاجيك يتخيّل نفسه في لحظة من اللّحظات، مواربا بين ثنايا جنان الخلد، حيث المخلّدون: «يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون.» وحمد الله في سرّه، ليس على الأكل، ولكن على هذه الرّفقة التي لا يجود بها الزّمان إلّا ماما... كانت هناك أطعمة يعرفها، وأخرى لا يعرفها؛ كان هناك لحم محشوّ بشتّى أنواع التّوابل. وكانت هناك رقائق خبز بالعسل، وأخرى محشوّة بشتّى أنواع المكسّرات. وكان هناك ثريد لم يذق مثله في بغداد رغم أنّ بوران كانت من المعدودات

---

القليلات المتقنات لكل ما يصنع من طعام طيب، وكانت هناك فواكه الصيف وفواكه الخريف، وكانت هناك مشروبات لم يذق مثلها في حياته؛ ورغم كل تلك الوفرة، ورغم جوعه، ليس في ذلك اليوم فقط، ولكن في كل الأيام التي مرت عليه في بخارى، فلم يأكل كثيرا، وكان طوال الوقت شاردا بعض الشيء كأنّ هناك شيئا محّدا كان يشغله... لم يكن ضياء الدين يريد أن يقطع عليه تلك الحالة من حالاته، ولم يخش عليه قلة شهيته لأنّه كان يعلم أنّ ابنته ستقوم بواجبها تجاهه على أحسن وجه بعد الزّواج؛ ولكن، على الرّغم من كلّ ذلك، كان لا بدّ لتلك الجلسة من شيء يذهب رتابتها، ولم يكن هناك خير من الحديث؛ فبعد أن عاد الغلمان ليرفعوا ما كانوا جلبوه، وبعد أن جهّزوا المكان من جديد بالآلات التّمباك وأكواب اليانسون والقرفة، قال ضياء الدين مخاطبا طاجيك:

-دعك من التّفكير الآن، فلا شيء يستأهل أن يشغلك على الإطلاق؛  
واعلم أنّ الأمور يسيرها مدبر الأسباب...

كان طاجيك قد أب أخيرا من شروده، وبدأ يعاوده مزاجه الرائق، وهو يتناول خرطوم الأركيلة ويقربه من فمه، ثمّ وهو يسحب الدخان إلى صدره. قال:

-صدقت، يا سيّدي. إنّه لتنتابني أحيانا حالات كانت تأخذني تماما إلى عوالم لم أكن أتصوّر في يوم من الأيام أنّي أرى مثلها، ثمّ حين أعود أقول لنفسي: «لماذا تحمّل نفسك فوق ما لاتطيق، يا طاجيك؟ دعها على الله؛ ولكن...»

كان ضياء الدين هو الآخر قد بدأ يطمئنّ إلى جوّ الإلفة الذي بدأ ينشر أرواءه على أرجاء المكان. وكان يشعر أنّه منسجم تماما، في مجلسه وفي مقامه بهذا البيت الذي كان كلّ عالمه، لا يشعر بالسعادة إلاّ فيه، ولا الاستئناس إلاّ مواربا بين ثنايا جهاته. قال:

-ولكن... إلى متى ستظلّ تستدرك على نفسك، وعلى الحياة، وعلى

---

كلّ ما حولك؟ سأقول لك شيئاً، ولا تعتبر ذلك تدخلاً منّي في حياتك: ابنتي قوت القلوب سأوثرِك بها على نفسي، ولو كان لي غيرها، أو لو كان لها إخوة، لما رضيت أن أ بذلها لأحد بمال الدّنيا، ولكن ما يعزّيني أنّها ستكون لك من دون كلّ العباد...

وتمهّل قليلا، وسحب نفسا من أركيلته، وهو يروزه بحبّ وعطف؛ وشعر طاجيك أنّه يجب عليه أن يقول شيئاً، فالتفت إلى مضيفه قائلاً:

-لقد خشيت أنّ إمكان ارتباطي بكريمتكم يمكن أن يشقها أو يتعبها، سيّما وأن أمر مقامي مازال يكتنفه شيء من الغموض؛ وفي الآونة الأخيرة...

وسكت قليلا، فقال ضياء الدّين بدلا عنه:

-وفي الآونة الأخيرة سمعت صوتا...

نطّ طاجيك في مجلسه من أثر المفاجأة كمن لدغ أو كمن لسع، فسقط خرطوم الأركيلة واصطدم بحافة النضد الكبير الذي كانت عليه صواني القرفة واليانسون، وكاد يسقط كلّ شيء لولا أن تداركه ضياء الدّين في آخر لحظة؛ وقال مهوّنا:

-لا عليك، يا ولدي...

وحثّ يذهب عنه كلّ خوفه ومفاجأته الطّائرة قصّ عليه كلّ شيء... أخبره عن الهواتف التي تأتيه، والأصوات، والأسرار التي كانت تملاً حياته، وعن مبدأ حكايته مع والده وشيخه. ثمّ استأذنه قليلا، ولم يلبث أن عاد ووراءه صبيّة ما تزال في مقتبل عمرها، وهي تضع على رأسها وشاحا أرجوانيّاً ذا تخاريم، وتمشي على استحياء وخفر؛ ولم يستطع طاجيك أن يرى وجهها لأنّها، من فرط حيائها، كانت تنظر إلى الأرض... حينما جلس والدها ثانية، كانت ما تزال واقفة فأمرها بالجلوس فجلست وهي تضع يدها اليمنى على يدها اليسرى خافضة رأسها... لم يخب ظنّ طاجيك، بل إنّهُ رأى في تلك اللّحظات القصار

---

فوق ما كان يؤمل. قال كبير الشرطة:

-أنا سأبقى معكما، لأنه لا بدّ من ذلك؛ ولكن، يا ولدي، اعتبرني غير موجود، وهي ذي ابنتي أمامك، فيمكن أن تحدّثها بكلّ ما تريد؛ ولا يغرنك من ابنتي خفرها لأنّي ربّيتها على ذلك، ولكنّها لبّية عاقلة، وهي فوق ذلك أديبة أريبة.

كان طاجيك لا يفيق من مفاجأة إلا لتلقّاه مفاجأة أخرى؛ فيها هي المرأة التي سيقترن بها ليست كباقي النساء، ولكنّها أديبة يمكن أن يتحدّث إليها ويستشيرها فيما سيكتبه ويأخذ رأيها فيما كان كتبه؛ فأيّ محظوظ هو: أمامه الجمال والكمال والغنى والسعادة التي يبدو أنّها لن تخطئه. قال:

-أنا اسمي طاجيك، ولعلّ والدك الكريم قد أخبرك من قبل بهذا. وسكت. طال الصمت قليلا بينهما، ولكنّها تكلمت أخيرا، فقالت:  
-وأنا قوت القلوب، ولا شكّ أنّك قد عرفت ذلك من والدي أيضا...  
وابتسمت، وتحوّلت فجأة ابتسامتها إلى ضحكة رقيقة لم يدر كيف يصفها، ولكنّه شعر بها تدلف إلى أعماق فؤاده وتفتح دفعة واحدة كلّ مراتج قلبه، وتستقرّ في سويدائه... أحسنّ أنّه على وشك أن يغمى عليه، ولكنّه تماسك... ركّز وعيه في الثّبات، ونظر إليها هذه المرّة فوجدها هي الأخرى تنظر إليه، وبدا له أنّها قد أعجبت به، لأنّها كانت تبتسم طول الوقت.

قال:

-وأنا غريب في هذه الدّيار؛ وأنا من بغداد حاضرة الخلافة، ولي فيها رجل بمقام والدي وامرأة بمقام والدي؛ وأنا أعدّ في العلماء...  
وسكت قليلا ليمنح نفسه فرصة تركها تتكلّم هي الأخرى، فقالت:  
-أعلمني والدي أنّه خطبني إليك، على غير عادة أهل البلد هنا، أو على عادة النّاس في كلّ مكان، وأنا لا أشعر بالخجل من ذلك... إنّ أبي يريد إسعادي، وأنا أقدر له ذلك، وأنا على رأي والدي؛ ولا يزعجني كثيرا

فيما إذا رفضتني لأنّ الزّواج، كما يقولون عندنا: «قسمة ونصيب.»  
قال طاجيك في نفسه: «وهي واثقة أيضا، وذات حزم وعزم!!» ثمّ  
نظر إلى والدها، فعلم الآخر أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّه لم يبق إلاّ أن  
يحدّد موعد الزّفاف، فقال:

- إن شاء الله يكون الزّفاف يوم الخميس القادم؛ وخير البرّ عاجله.  
وخرج طاجيك، وقد تمّ الاتفاق على كلّ التّفاصيل؛ وأخبره ضياء  
الدين أن لا يحمل همّا على الإطلاق وأنّ كلّ شيء سيكون معدّا على  
أحسن ما يرام؛ وغمره بعينه، دلالة من يقول إنّ هناك الكثير من  
المفاجآت في الطريق. غير أنّ طاجيك كان كلّ همّه فيما تبقى من ذلك  
اليوم أن يتمّ ما بدأ من عمل على حاشية سفر الخروج؛ ولم يكن يشعر  
بجوع أو عطش حينما دخل غرفته فأخرج دفاتره وكتبه وأقلامه وأخذ  
مكانه أمام النّضد وبدأ يتصفّح الكتاب الذي بين يديه. قرأ: «وَهذِهِ  
أَسْمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مِصْرَ. مَعَ يَعْقُوبَ جَاءَ كُلُّ إِنْسَانٍ  
وَبَيْتُهُ: <sup>١</sup> رَؤَيْبِنُ وَشَمْعُونُ وَلاوِي وَمِهْودَا <sup>٢</sup> وَيَسَّكَرُ وَزَبُولُونُ وَبَنِيَامِينَ <sup>٣</sup> وَدَانُ  
وَنَفْتَالِي وَجَادُ وَأَشِيرُ. <sup>٤</sup> وَكَانَتْ جَمِيعُ نَفُوسِ الْخَارِجِينَ مِنْ صُلْبِ يَعْقُوبَ  
سَبْعِينَ نَفْسًا. وَلَكِنْ يُوسُفُ كَانَ فِي مِصْرَ. <sup>٥</sup> وَمَاتَ يُوسُفُ وَكُلُّ إِخْوَتِهِ  
وَجَمِيعُ ذَلِكَ الْجِيلِ. <sup>٦</sup> وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَأَثْمَرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمُوا وَكَثُرُوا  
كَثِيرًا جَدًّا، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ.

<sup>٨</sup> ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. <sup>٩</sup> فَقَالَ لِشَعْبِهِ:  
«هُودَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. <sup>١٠</sup> اهِلْمَ نَحْتَالِ لَهُمْ لِيَلَّا  
يَنُمُوا. فَيَكُونُ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيَحَارِبُونَنَا  
وَيَصْعَدُونَ مِنَ الْأَرْضِ.» <sup>١١</sup> فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذَلُّوهُمْ  
بِأَثْقَالِهِمْ. فَبَنُوا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِينُومَ، وَرَعْمَسِيسَ. <sup>١٢</sup> وَلَكِنْ  
بِحَسْبِ مَا أَذَلُّوهُمْ هَكَذَا نَمُوا وَامْتَدُّوا. فَاخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.  
<sup>١٣</sup> فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ، <sup>١٤</sup> وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ  
قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللَّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ. كُلِّ عَمَلِهِمُ الَّذِي عَمَلُوهُ

بِوَاسِطَتِهِمْ عُنُقًا.

<sup>٥</sup> وَكَلَّمَ مَلِكُ مِصْرَ قَابِلَتَيْ الْعِبْرَانِيَّاتِ اللَّتَيْنِ اسْمُهُمَا إِخْدَاهُمَا شَفْرَةَ  
وَاسْمُ الْأُخْرَى فُوعَةُ. <sup>٦</sup> وَقَالَ: «حِينَمَا تُولِدَانِ الْعِبْرَانِيَّاتِ وَتَنْظُرَانِي  
عَلَى الْكِرَاسِيِّ، إِنْ كَانَ ابْنًا فَاقْتُلَاهُ، وَإِنْ كَانَ بِنْتًا فَتَحِيَّا». <sup>٧</sup> وَلَكِنَّ  
الْقَابِلَتَيْنِ خَافَتَا اللَّهَ وَلَمْ تَفْعَلَا كَمَا كَلَّمَهُمَا مَلِكُ مِصْرَ، بَلِ اسْتَحْيَتَا  
الْأَوْلَادَ. <sup>٨</sup> فَدَعَا مَلِكُ مِصْرَ الْقَابِلَتَيْنِ وَقَالَ لَهُمَا: «لِمَاذَا فَعَلْتُمَا هَذَا  
الْأَمْرَ وَاسْتَحْيَيْتُمَا الْأَوْلَادَ؟» <sup>٩</sup> فَقَالَتِ الْقَابِلَتَانِ لِفِرْعَوْنَ: «إِنَّ النِّسَاءَ  
الْعِبْرَانِيَّاتِ لَسَنَّ كَالْمِصْرِيَّاتِ، فَإِنَّهُنَّ قَوِيَّاتٌ يَلِدْنَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُنَّ  
الْقَابِلَةُ». <sup>١٠</sup> فَأَحْسَنَ اللَّهُ إِلَى الْقَابِلَتَيْنِ، وَنَمَّا الشَّعْبُ وَكَثُرَ جَدًّا. <sup>١١</sup> وَكَانَ إِذْ  
خَافَتِ الْقَابِلَتَانِ اللَّهَ أَنَّهُ صَنَعَ لَهُمَا بُيُوتًا. <sup>١٢</sup> ثُمَّ أَمَرَ فِرْعَوْنَ جَمِيعَ شَعْبِهِ  
قَائِلًا: «كُلُّ ابْنٍ يُولَدُ تَطْرَحُونَهُ فِي النَّهْرِ، لَكِنَّ كُلَّ بِنْتٍ تَسْتَحْيُونَهَا».  
قَرَّبَ يَدَهُ بِالْقَلَمِ مِنَ الْحَاشِيَةِ، وَبَدَأَ يَكْتُبُ أَنَّ بَنِي يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
الَّذِي هُوَ إِسْرَائِيلُ أَيْضًا، قَدِ قَدَمُوا مِصْرَ بِنَاءً عَلَى دَعْوَةِ ابْنِهِ يَوْسُفَ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ عَزِيزًا لِمِصْرَ لِمَلِكِ الْهَكَسُوسِ آنَذَاكَ الْمَلِكِ أَبِي أَبِي؛  
وَذَكَرَ مَا قَالَهُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ يَوْسُفَ، فَكُتِبَ ابْتِدَاءً مِنْ  
الآيَةِ الثَّلَاثَةِ وَالتَّسْعِينَ: «أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي  
يَأْتِ بِصِيرًا وَاتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي  
لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفَنَّدُونَ. قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ».  
وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْإِصْحَاحِ الْأَوَّلِ كُلِّ أَبْنَائِهِ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ مَعَ عَوَالِهِمْ،  
وَهُمْ رَأُوبِينُ وَشَمْعُونُ وَيَهُوذَا وَلَاوِي وَيَسَّكَرُ وَزَبُولُونُ وَبَنِيَامِينُ وَدَانُ  
وَنَفْتَالِي وَجَادُ وَأَشِيرٌ... وَأَرَادَ أَنْ يَمْرَ، أَنْ يَخْطُ شَيْئًا آخَرَ، أَوْ أَنْ يَعُودَ  
إِلَى مَا بَعْدَ الْإِصْحَاحِ، فَوَجَدَ يَدَهُ مَا تَزَالُ عَالِقَةً بِالْحَاشِيَةِ، وَأَلْفَى ذَلِكَ  
الصَّوْتِ الَّذِي كَانَ سَمِعَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَقُولُ فِي الْفَةِ، دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَعْلَمَ  
مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ جَاءَ صَوْتُهُ: «وَكَانَ مَعَهُمْ بَدْرًا وَبَدْرَانٌ... أَوْ بَدْرَانٌ... أَوْ  
بَدَارُونَ... وَقَدْ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمْ وَأَنْ يَشْهَدَ مَشْهَدَهُمْ...  
وَقَدْ كَانَ مَعَهُمْ وَلَيْسَ مَعَهُمْ... وَخَرَجَ خُرُوجَهُمْ وَلَمْ يَخْرُجْ خُرُوجَهُمْ...»

ثم اختفى الصوّت فجأة كما نبع فجأة من الفراغ؛ ووجد طاجيك نفسه، على رغم المفاجأة الغير المتوقّعة، وعلى رغم فزعه، يرفع قلمه إلى جيّته ويتفكّر في أمر هذا الغريب الذي أراد هذا الصوّت أن يقمحه إقحاما، وأن يلفّه بين ثنايا إصحاح قد كتب منذ مئات السنين، وانتهى أمره إلى الحفظ، ولا مجال للزيادة عليه أو التّقول فيه؛ ووجد نفسه أيضا يتفكّر في أمر هذا الخروج، ويتساءل: «من المقطوع به ليس بنو إسرائيل وحدهم من خرج في التّاريخ، وإنّ أوّل من خرج في الزّمان كان أبانا آدم عليه السّلام، ولم يقدر له أن يخرج من أرض إلى أرض ولكنّه خرج من سماء إلى أرض، وبأمر ربّ العلى..» ثمّ تناول كتاب الأمم والرّسل وتصحّحه في تودة إلى أن انتهى إلى الفصل الذي خلق الله تعالى فيه آدم، فبدأ يقرأ: «القول في خلق آدم عليه السّلام. وكان ممّا حدث في أيّام سلطانه وملكه خلق الله تعالى ذكره أبانا آدم أبا البشر وذلك لما أراد جلّ جلاله أن يطالع ملائكته على ما قد علم من انطواء إبليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة وأراد إظهار أمره لهم حين دنا أمره للبور وملكه وسلطانه للرّوال فقال عزّ ذكره لما أراد ذلك للملائكة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..» فأجابوه بأن قالوا له: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..» فروي عن ابن عبّاس أنّ الملائكة قالت ذلك كذلك للذين قد كانوا عهدوا من أمر الجنّ الذين كانوا سكان الأرض قبل ذلك فقالوا لربّهم جلّ ثناؤه لما قال لهم: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..» أتجعل فيها من يكون فيها مثل الجنّ الذين كانوا فيها فكانوا يفسكون فيها الدّماء ويفسدون فيها ويعصونك: «ونحن نسيّح بحمدك ونقدّس لك..» فقال الرّبّ تعالى ذكره لهم: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ..» يقول أعلم ما لا تعلمون من انطواء إبليس على التّكبر وعزمه على خلافه أمري وتسويل نفسه له الباطل واغتراره وأنا مبّد ذلك لكم منه لتروا ذلك منه عيانا...» وكتب: «إنّ الخلق كان في السّماء قبل أن يعصي آدم عليه السّلام ربّه فيأكل هو وزوجته من الشّجرة المحرّمة وذلك بتزيين من

إبليس اللعين الذي صوّر لهما أنّ الله تعالى ما منعهما من تلك الشجرة  
«إلا أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما من  
النّاصحين. فدلّهما بغرور...» وقد كان الخروج أمرا مقدّرا في علم  
الغيب رغم أنّ طائفة من أهل العلم زعموا أنّ الجنّة التي كان خلقها  
الله إنّما هي جنّة الخلد التي وعد بها أهل الطّاعة من أهل الأرض والتي  
سيدخلونها يوم القيامة «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا..» و«لَا يَرَوْنَ  
فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا..» ولكنّ الجَمّ الغفير من أهل العلم مجمعون على  
القول من أنّ تلك الجنّة إنّما هي جنّة ابتلاء وليست بجنّة بقاء... وإنّما  
كانت ليرى الله تعالى فيما إذا كان آدم عليه السّلام وزوجه سيكونان  
على العهد الذي أخذه عليهما أم أنّهما سينسيان، وقد نسيا، فأخرجوا  
منها جميعا، هم وإبليس...» ولكنّ شيئا كان يلحّ عليه، يشتدّ بوطأته  
فينضاف حملا إلى الأحمال الأخرى التي كان ينوء بها؛ ولم يكن هناك  
صوت ليخبره عن الخارج هذه المزة، وإنّما كان يرى شبحا، أو طيفا،  
أو شبحا لطيف؛ كان يرى مثل الشّيء الذي كان يتشوّج عن بعد...  
والدنيا يكتنفها السّواد، ولم يكن هناك سوى أضواء ضئيلة لنجوم  
هائمة كانت تتغامز وتترامق في تلكوفي ظلّ غياب قمر قد لا يطلع تلك  
الليلة أبدا؛ فمن أين جاء ذلك الخارج، ذلك الطّيف؟ لم تكن هناك  
صحراء ليقول إنّه بقية بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه  
السّلام، ولم تكن هناك آثار لقرون دابرة تجزم أنّه ربّما يكون في زمن  
أولئك الجنّ الذين كانوا قبل خلق آدم عليه السّلام، والذين أفسدوا  
في الأرض وسفكوا فيها الدّماء؛ ومع ذلك، كان هناك شيء ينغل داخله  
يقول إنّ لم يتوقّف عن الخروج، وإنّما كان دائما هناك، ممتدّا على  
جميع المسافات، وفي كلّ العصور، يخرج ثمّ يخرج، ثمّ يخرج ويخرج مرّة  
أخرى... في ذلك السّواد، كان الطّيف يتقدّم، وتخيّل طاجيك نفسه  
فجأة أنّه يعرف شيئا من ذلك المكان، ليس لأنّه رآه حقّا، وإنّما ربّما لأنّه  
رأى شيئا مثله في بغداد، في أحد دروهمها، ربّما درب الرّواسين، أو درب

الدَّبَّاعِينَ، أودرب القَمَاشِينَ، أو أيّ درب آخر من دروب بغداد الكثيرة... ولكن يفجأه الصَّوت مرّة أخرى، ودائماً محافظاً على نبرة ووتيرة صوته التي لم تكن ترتفع أو تخفت: «ومعهم كان بداران أو بدارون، خرج من مصر المحروسة، من قاهرتهَا. وحين خرج كان الزَّمان يتقدّم إلى أمام أو يتأخّر إلى وراء، وكان الزَّمان قد فقد ماهيته وتحوّل إلى ذات كان يحملها بداران أو بدارون معه حيثما ذهب.» لم تعد لطاجيك رغبة في التَّساؤل أو إبداء الاستغراب أو التَّهَيّب أو الرّهبة، وكانت يدها وحدهما تكتبان دون أن يكون له أيّة سيطرة عليهما.» واختفى الصَّوت ثانية فعاد إلى كتابه: وعندما قرّر أن يكتب مرّة أخرى كان يجد أنّ له سلطة على يديه مرّة أخرى: «وقيل أقوال كثيرة في ذلك قد حكينا منها جملا في كتابنا المسمّى جامع البيان عن تأويل أي القرآن فكرهنا إطالة الكتاب بذكر ذلك في هذا الموضوع .

فلما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم عليه السّلام أمر بتريته أن تؤخذ من الأرض كما حدّثنا أبو كريب قال حدّثنا عثمان بن سعيد قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضَّحَّك عن ابن عبّاس قال ثمّ أمر يعنى الرّبّ تبارك وتعالى بترية آدم فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب واللّازب اللّزج الطيّب من حمأ مسنون منتن قال وإنّما كان حمأ مسنوناً بعد التّراب قال فخلق منه آدم بيده.

حدّثني موسى بن هارون قال حدّثنا عمرو بن حمّاد قال حدّثنا أسباط عن السّديّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال قالت الملائكة: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.» يعني من شأن إبليس فبعث الله جبرئيل عليه السّلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إنّني أعوذ بالله منك أن تنقص منّي شيئاً وتشينني فرجع ولم يأخذ وقال يا ربّ إنّها عاذت بك فأعذتها

---

فبعث ميكائيل فعازت منه فأعازها فرجع فقال كما قال جبرئيل فبعث ملك الموت فعازت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذه من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل التراب حتى عاد طينا لازبا واللأزب هو الذي يلتزق بعضه ببعض ثم ترك حتى تغير وأنتن وذلك حين يقول: «مِنْ حَمًا مَسْنُونٍ.» قال مننن.

حدثنا ابن حميد قال حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال بعث رب العزة عز وجل إبليس فأخذ من أديم الأرض ومن عذبتها وملحها فخلق منه آدم ومن ثم سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ومن ثم قال إبليس: «أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا.» أي هذه الطينة أنا جئت بها.

حدثنا ابن المثنى قال حدثنا أبو داود قال حدثنا شعبة عن أبي حصين عن سعيد بن جبيرة قال إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض. حدثني أحمد بن إسحاق الأهوازي قال حدثنا أبو أحمد قال حدثنا مسعر عن أبي حصين عن سعيد بن جبيرة قال خلق آدم من أديم الأرض فسمي آدم.

حدثني أحمد بن إسحاق قال حدثنا أبو أحمد قال حدثنا عمرو بن ثابت عن أبيه عن جده عن علي رضي الله عنه قال إن آدم خلق من أديم الأرض فيه الطيب والصالح والردىء. فكل ذلك أنت راء في ولده الصالح والردىء.

حدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علي عن عوف وحدثنا محمد بن بشر وعمربن شبة قال حدثنا يحيى بن سعيد قال حدثنا عوف وحدثنا ابن بشر قال حدثنا ابن أبي عدي ومحمد بن جعفر وعبد الوهاب الثقفي قالوا حدثنا عوف وحدثني محمد بن عمارة الأسدي قال حدثنا إسماعيل بن أبان قال حدثنا عنبسة عن عوف الأعرابي عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ثُمَّ بَلَّتْ طِينَتُهُ حَتَّى صَارَتْ طِينًا لِأَزْبًا ثُمَّ تَرَكَتْ حَتَّى صَارَتْ حَمًا مَسْنُونًا ثُمَّ تَرَكَتْ حَتَّى صَارَتْ صَلْصَالًا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمًا مَسْنُونٍ»<sup>(٣٦)</sup>.

وحدَّثنا ابن بشار قال حدَّثنا يحيى بن سعيد وعبد الرَّحمان بن مهدي قالَا حدَّثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خلق آدم من ثلاثة من صلصال ومن حمًا ومن طين لأزب فأما اللّازب فالجيدّ وأما الحمًا فالحمئة وأما الصلصال. فالتراب المدقّق ويعني تعالَى ذكره بقوله «من صلصال» من طين يابس له صلصلة والصلصلة الصّوت. وهو يكتب، يحاول أن يركّز فيما يكتبه، سيّما أنّه قطع شوطًا طويلًا في ملاحظاته واستنتاجاته؛ ولكن عند حدّ معيّن، في وقت ما، تأبى يده أن تطاوعاه، تتوتّر أعصابه، ويلفي كأنّ شخصا آخر يكتب بدلا عنه، وأنّ عقلا آخر غير عقله، ربّما يكون عقل شخص آخر داخله وخارجه في نفس الوقت، هو الذي يملّي، وهو الذي يحدّد ما يجب أن يكتب وأن لا يكتب؛ وكان هو على الرّغم من ذلك لا يملك لنفسه شيئا؛ فلا هو قادر على التوقّف عن الكتابة ولا هو بمستطيع أن يكتب ما يفكر فيه... كانت الأشياء واضحة مع ذلك، وكانت النصوص التي بين يديه بيّنة جليّة، لا تنتظر إلا أن يعلّق عليها أو أن يقال فيها قول أو أقوال على الحاشية؛ كان الذي يفكر عنه يريد له أن يتأتّى، أن يتمعّن قبل أن يسترسل؛ كان يريد له أن يفكر مليّا في مسألة الخلق هذه في ارتباطها بهذا الخروج لشخص مازالت لم تبين معالمه بعد؛ غير أنّه كان يرى غير بعيد عنه كأنّ شيئا مثل السّتر كان يرتفع شيئا فشيئا وأنّ طيفا أو شخصا بدأ يلوح أمام ناظره؛ صحيح أنّه لم يكن يراه تماما، ولكنّ مخايله كانت تقول إنّه إنسيّ، لا

بدّ أن تكون له يدان ورجلان، وكلّ الجوارح الّتي خلقها الله تعالى في بني آدم... ثمّ هذا الخلق؛ وما أروعه! هذا الخلق، وما أثره على النّفس! وفي لحظات كانت أفكاره تلتقي بأفكار من ربّما كان يفكّر في أحيان كثيرة بدلا عنه؛ وكانت هذه الأفكار في وقت ما تنفصل عنهما وكأنّها مزامير أو أناشيد تتلى في الأجواز الواسعة للكون: «يا ابن آدم، إنك من تراب، وإلى التّراب تعود؛ يا ابن آدم، عليك أن تعلم أنّ هذا الإبداع الجميل أصله تراب، وأنّ هذا الجمال أصله تراب، وأنّ هذا الجمال سيعود مرّة أخرى إلى التّراب؛ وقبل ذلك سيكون جسدك مزرعة لدود الأرض بعد الموت...» لم يكن هناك سعي إلى ترك عبرة، أو موعظة، وإنّما الأمر لا يعدو أن يكون مجرد إقرار لحقيقة، لشيء ثابت لا يتغيّر، كالليل والنّهار، والشّمس والقمر، والأنهار الجارية، والبحار والمحيطات؛ ووجد طاجيك نفسه يشرد قليلا، كان يدير في رأسه هذه البدايات، هذه الرّحلة عبر أزمنة سحيقة من المخاضات الّتي لا تنتهي؛ ولم يرد أن يسأل نفسه، رغم أنّ السّؤال كان يلحّ عليه، حتّى لا يقع في محظورات الغيب، وأنّ تصيبه لعنة الشّيطان، قال لنفسه إنّ الملائكة كانت هناك، وقد كانت شاهدة دائما على ما خلقه الله، وكانت ترى ما حدث في كلّ زمان خلقا بعد خلق، وأنّ الله تعالى خلق بعد ذلك آدم، ولا بدّ أن يكون ذلك لحكمة، فما حكمة الله في ذلك؟! ووجد نفسه يحجم، ويفكّر في هذا الخارج الّذي خرج من جديد، ولا يدري لماذا بدا له أنّه يحمل همّا، وأنّه لا يخرج خارج إلاّ إذا كانت وراءه جروح يجرحها وراءه، وهموم أبت إلاّ أن تصاحبه، في مراحل ومواقيت لا تنتهي... «نعم، إنّ الإنسان خلقه الله من التّراب؛ ولكنّ هناك أشياء أخرى يمكن أن يخلق منها الإنسان؛ إنّ الإنسان يخلق أيضا من الجروح الكثيرة، ومن البكاء، والصّراح والعيول؛ ويخلق الإنسان من شيء لا يستطيع التّعبير عنه، يهجم به، يحسّ به ثقلا يتقلّب داخله، في كلّ زاوية من زواياه، ويحاول الإمساك به، ولكن يتأبى؛ نعم، قد يكون هذا الخارج،

الَّذِي قَالَ الصَّوْتُ الَّذِي جَاءَهُ إِنَّ إِسْمَهُ بَدَارَانُ أَوْ بَدَارُونَ، مجروحاً، أو موسوساً، أو مسكوناً بما لا يعلم إلاّ الله ماهيته وكنهه؛ وانفجر الصَّوْتُ الَّذِي جَاءَهُ مَرَّاتٍ، كان يحسّ به داخله ولا يسمعه في ظاهر أمره، ولكن كأنما يوحى إليه من وراء أسترة كثيرة بين حنايا نفسه... إنّه يسمع، كالهمس كانت الأشياء التي يسمعها. أصغى، أرخى أذنيه اللّتين باتتا قادرتين على التقاط أكثر الأصوات خفوتاً، حدّدهما بكفّيّه زيادة في التّركيز؛ ربّما كانت الأشياء التي يسمعها غريبة، ربّما كانت تشير إلى أماكن لا يعلمها، إلى بلدان، أو حواضر من البلاد، وكانت الأحداث كأنّما أريد لها أن تكون الخاتمة والقفلة التي ستختم كلّ شيء. رأى الطّيف، رآه ليس في هيئته الحاضرة، على سبيل مازال يجملها، ولكن خيل إليه أنّه يلمحه، على البعد، في مدخل بناية ربّما، أو غرفة، أو شيء ليس بهذا ولا بذاك، وأنّه كان يسدّ بهيكله المكان، وكانت يداه كأنّهما جناحا طائر يستعدّ للطّيّان؛ ثمّ حينما يرى رأسه المدلّ، تهتت في ذهنه فكرة الطّيّان، ويقول في نفسه، إنّ من هذه حالته لا يمكن إلاّ أن يكون مهموماً، وحاول أن يتذكّر عدد المرات التي كان فيها هو نفسه مهموماً، كما حاول أن يبحث عن الأسباب التي تبعث فيه ذلك الكمّ من الهمّ، وقال هل سبب الهموم واحد عند كلّ البشر، أم أنّها واحدة وتختلف في كيفها، أم أنّها تختلف تماماً من شخص إلى شخص، وإنّ من الهموم ما يستعصي على التّفسير، ليس عند صاحبها فقط، ولكن حتّى لمن هم يسعون إلى تجلية تلك الهموم عن النّاس من أطباء وحكماء وفلاسفة. وانتهى إلى أنّ ذلك الطّيف لا بدّ أن يكون يعاني من شيء هو أكبر من الكلام، وأكبر من أحرف الكلام، وأكبر من الهمّ نفسه. كان يخيل إليه أنّه يلمح دخاناً، وأنّ اليد اليمنى كانت ترفع بين الفينة والأخرى شيئاً إلى فمه، وقال هل يمكن أن يكون ذلك دخاناً... كان الصَّوْتُ يردّد في تؤدّة، وأناة، ودون انقطاع، كأنّما يريد لسامعه أن يحفظ ما يقول عن ظهر قلب: «عتبة... يا عتبة... يا محروسة... يا قلعة القاهرة الشّامخة... يا

ابن بنت رسول الله، يا حسين، مدد... مدد... هه، نعم، هذا هو، على الأقلّ بات يعرف من أين جاء هذا الغريب، هذا الخارج الجانح، هذا الطيّف، الذي ما يزال بعيدا يكتنفه سديم الفراغ؛ إنّه على ما يبدو قاهريّ: المقطوع به لديه الآن أنّه قاهريّ النشأة والمقام، ولا يعلم عن بداياته شيئا، عن خروجه إلى الدّنيا، أرض مولده التي ربّما يكون قضى فيها هزيعا من حياته... تناول طاجيك أحد الكتب لإراديا، وأشرأبت بعنقه إلى نقطة غير منظورة في الفراغ. قال: «القاهرة... لم تخطر ببالي أبدا: كانت كأنّما لم تكن محفورة في رأسي؛ وزرت بلدانا كثيرة، كنت أخرج ميمّما ناحية الشّرق، وكان المغرب كأن لم يكن موجودا أصلا... نعم، إنّي أعرف كلّ هذه الأمكنة التي ذكرها الصّوت، من بعض الرّحالة والمطوّفين في الأفاق، وكانوا يصفونها لي كأنّي أراها من مجلسي سواء في بغداد أو في البلاد الأخرى التي زرتها، غير أنّ روائجها لا أجزم أنّها كانت تقتحم أفق أنفي...» وهذا فجأة كلّ شيء، وانطفأت ذبالات الأشياء التي اقتحمت عليه خياله، وألّفى دماغه طيّعة من جديد، ورحلت تلك الأفكار الطّائرة، ورحل أيضا من يسوّل له تلك الأفكار: أخذ العهد القديم، وتصفّح أوراقه ثانية، ثمّ استقرّت عيناه مرة أخرى على ملحمة الخروج، لابتنا على الإصحاح الثّاني، وتجاوزناه، ثمّ قرأ الإصحاح الثّالث: ذكر أنّ موسى بن عمران، رأس بني إسرائيل، الذي جاوز بهم البحر، قد خرج هو الآخر، ليس مرة واحدة، ولكن مرتين، خرج في المرّة الأولى هاربا من فرعون، حين جاءه ذلك الرّجل من أقصى المدينة، وقال له فيما رواه ربّ العزّة عنه في سورة القصص: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ<sup>(١٠)</sup>». فكان ذلك أوّل الخروج، وهو خروج اقتاده إلى أرض مدين، وإلى نبيّ الله شعيب وابنتيه: «وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مَدْيَانَ، فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللَّهِ حُورَيْبَ. وَظَهَرَ لَهُ مَلَأُكَ الرَّبِّ بِلَهَيْبِ نَارٍ

مِنْ وَسَطِ عُلْيَقَةٍ. فَتَنَظَرُ وَإِذَا الْعُلْيَقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلْيَقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ.<sup>٣</sup> فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الْآنَ لِأَنْظُرَ هَذَا الْمُنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لَا تَحْتَرِقُ الْعُلْيَقَةُ؟». <sup>٤</sup>فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالٌ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللَّهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلْيَقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: «هَأَنْدَا». <sup>٥</sup>فَقَالَ: «لَا تَقْتَرِبْ إِلَى هَهُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لِأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ».

ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلَهٌ أَبِيكَ، إِلَهٌ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهٌ إِسْحَاقَ وَإِلَهٌ يَعْقُوبَ». فَعَطَى مُوسَى وَجْهَهُ لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللَّهِ. <sup>٦</sup>فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسْخَرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ. <sup>٧</sup>فَتَزَلْتُ لِأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَّاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا، إِلَى مَكَانٍ الْكُنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْفِرْزِيِّينَ وَالْحَوِيثِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ. <sup>٨</sup>وَالآنَ هُوَذَا صُرَاخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ آتَى إِلَيَّ، وَرَأَيْتُ أَيْضًا الضَّيْقَةَ الَّتِي يُضَاقِقُهُمْ بِهَا الْمِصْرِيُّونَ، <sup>٩</sup>فَالآنَ هَلُمَّ فَأَرْسِلْكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجْ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ».

<sup>١٠</sup>فَقَالَ مُوسَى لِلَّهِ: «مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَحَتَّى أَخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟» <sup>١١</sup>فَقَالَ: «إِنِّي أَكُونُ مَعَكَ، وَهَذِهِ تَكُونُ لَكَ الْعَلَامَةُ أَنِّي أَرْسَلْتُكَ: حِينَمَا تُخْرِجُ الشَّعْبَ مِنْ مِصْرَ، تَعْبُدُونَ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ». <sup>١٢</sup>فَقَالَ مُوسَى لِلَّهِ: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلَهٌ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟» <sup>١٣</sup>فَقَالَ اللَّهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهُ الَّذِي أَهْيَهُ». وَقَالَ: «هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ».

<sup>١٤</sup>وَقَالَ اللَّهُ أَيْضًا لِمُوسَى: «هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهُ إِلَهٌ آبَائِكُمْ، إِلَهٌ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهٌ إِسْحَاقَ وَإِلَهٌ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هَذَا اسْمِي إِلَى الْأَبَدِ وَهَذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. <sup>١٥</sup>إِذْهَبْ وَاجْمَعْ شَيْوْخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: الرَّبُّ إِلَهٌ آبَائِكُمْ، إِلَهٌ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ظَهَرَ لِي قَائِلًا:

إِنِّي قَدْ أَفْتَقَدْتُكُمْ وَمَا صُنِعَ بِكُمْ فِي مِصْرَ. <sup>١٧</sup> فَقُلْتُ أُصْعِدُكُمْ مِنْ مَدَلَّةِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحَوِيِّينَ وَالْبَبُوسِيِّينَ، إِلَى أَرْضِ تَفِيضِ لَبْنًا وَعَسَلًا.

<sup>١٨</sup> «فَإِذَا سَمِعُوا لِقَوْلِكَ، تَدْخُلُ أَنْتَ وَشِبُوحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُونَ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ التَّقَانَا، فَالآنَ نَمْضِي سَفَرًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبِجُ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا.

<sup>١٩</sup> وَلِكَيْ أَعْلَمَ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لَا يَدْعُكُمْ تَمْضُونَ وَلَا يَبِيدُ قَوِيَّةً، <sup>٢٠</sup> فَأَمُدُّ

يَدِي وَأَضْرِبُ مِصْرَ بِكُلِّ عَجَائِبِي الَّتِي أَصْنَعُ فِيهَا. وَبَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ.

<sup>٢١</sup> وَأَعْطِي نِعْمَةً لِهَذَا الشَّعْبِ فِي عِيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ

أَنْكُمْ لَا تَمْضُونَ فَارِعِينَ. <sup>٢٢</sup> بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ

بَيْتِهَا أُمَّتَعَةً فَضَّةً وَأُمَّتَعَةً ذَهَبًا وَثِيَابًا، وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ.

فَتَسْلُبُونَ الْمِصْرِيِّينَ». على الحاشية كتب: «ولا شك أن هناك اختلافًا

بين ما هو مذكور في العهد القديم وما جاء به القراءان الكريم،

ليس فقط في إسم الذي ذهب إليه موسى، وهو في القراءان نبي الله

شعيب وفي العهد القديم يثرون، وإنما في الإسم الذي سمى الله به

نفسه فيما يزعم بنو إسرائيل، وهو يهوه، أو أهيه؛ ثم إن مدين قد

أصبحت مديان؛ وإن مهنة يثرون هي الكهانة؛ وإنما ما علمناه من

القراءان أن شعيبا عليه السلام نبي من الأنبياء الذين أرسلهم الله

تعالى إلى أقوامهم ليدعوهم إلى عبادته وتوحيده، وقد أرسله إلى مدين

وأصحاب الأيكة، وما كان من شأنهم هو أنهم كانوا يطففون في

المكايل... والقصة في العهد القديم فيها الكثير من التفاصيل التي

وردت مجملة في القراءان العظيم؛ فجبل الطور هو جبل الله حوريب،

وأن الله تعالى قد أرسل ملاكه بالعليقة، وذلك ليجلب انتباه نبيه

موسى لأنه قرّر أن يخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون؛ وفي هذه

القصة نجد أن الله تعالى ينزل إلى الأرض في الهيئة التي يكون عليها

الناس لأن يهود مشبهة ومجسمة ولا يجدون حرجا في ذلك؛ فالله حسب

زعمهم هو واحد من البشر، حتّى أنّهم فيما يزعمون قد تصارع مع نبيّ الله إسرائيل الذي هو يعقوب عليه السّلام بن إسحاق بن إبراهيم بن أزر فصّره إسرائيل، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً؛ وهناك أقوام ذكروا هنا لم يذكرهم القرآن، وهم أقوام كانوا في زمن المصريين، والغالب على أمرهم أنّهم كانوا مشركين عبدة أوثان وتماثيل، فهناك الكنعانيون والأموريون والحثيون والفرزيون واليبوسيون والحويون؛ وكلّ هذه أقوام ظهرت في التّاريخ وكانت تتقاتل فيما بينها ويهزم بعضها بعضاً، ويستعبد بعضها بعضاً؛ وكان بنو إسرائيل قوماً من جملة هذه الأقوام وقد كانت لهم مملكة على زمن أنبيائهم وملوكهم إلى أن هزمهم بختنصر وأسرههم إلى بابل.» ثمّ كفّت يده عن الكتابة، ورفع رأسه إلى السّقف كأنّه يتأثّر شيئاً أو يقتفي أثر فكرة قد ضيّعها؛ وكان يبدو له أنّ تاريخ البشر عبارة عن سلسلة لا تنتهي من الخروجات التي كانت تتكرّر على مرّ الزّمن، فما لم يكن منها بمحض الإرادة والاختيار، فقد كانت تحتّمه ظروف وملابسات منها ما هو معروف ومنها ما كان سرّاً في باطن الغيب. وكتب مرّة أخرى: «وبنو إسرائيل قد تعدّدت خروجاتهم في الزّمان، فبعد أن جاز بهم موسى عليه السّلام البحر إلى سيناء، ما كان منهم إلّا أنّهم اغتروا بأقوام كانوا يعبدون الأصنام فطلبوا منه أن يصنع لهم أوثاناً مثلها ليعبدوها، فعاقبهم الله تعالى بتيهيم الذي تاهوا فيه بعد أن كانوا يعيشون على منّه وسلواه... وخرجوا بعد ذلك اضطراراً، بعد هزيمتهم على يد بختنصر الذي سلّطه الله عليهم عقاباً لهم؛ وعادوا ليحرّروا في زمن نبيّ من أنبيائهم؛ لكنّهم في زمننا لم تكن لهم دولة، وإنّما كانوا يعيشون في دول المسلمين الكثيرة.» وكتب بين معقّفين: «وهم أهل صنائع كثيرة وقد برعوا في الطّبّ والترجمة، واستعملهم بعض أمراء المسلمين لكفاءة رأوها فيهم، وأمانة، وإن لم تكن عند أكثرهم - انتهت الملاحظة.» وكان يرى أنّ أعظم خروج خرجته إنسان على مرّ التّاريخ إنّما ذلك الخروج الذي خرجه أبونا آدم، ولم

يكن خروجاً من أرض إلى أرض، وإنّما كان خروجاً من سماء إلى أرض، وهو خروج كان وراءه ابتلاء وأيّ ابتلاء: وذكر ما كانت تتداوله العامّة، ويفيضون فيه إلى حدّ الإسراف، حيث كانوا يقولون بحسرة إنّهُ لو لم يأكل أبونا آدم من تلك الشجرة المحرّمة لكنّا الآن نرفل في حير الجنان، ونلبس من سندسها، ونشرب من خمرها وعسلها، ولكنّا ننكح أجمل الفاتنات من الحسان في الجنّة: وكان يسخر منهم في سرّه، دون أن يجهّم برأيه فيهم، لأنّه كان يعلم أنّ تلك الجنّة وضعت للاختبار ولم تكن جنّة استقرار: فإنّه كان مقدّراً من البداية أن ينزل الإنسان إلى الأرض، وكان مكتوباً عليه أن يجعل دنياه مزرعة آخرته، وأنّ الحساب والعقاب في الآخرة، وأنّ الجنّة التي هي جنّة الخلود إنّما ادّخرت للمتّقين يوم القيامة. وذكر أبانا آدم وما كان من ابتلائه، فأخذ كتاب الأمم والرّسل، وبدأ يقرأ في فصل الابتلاء: «القول في ذكر امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السّلام وابتلائه إيّاه بما امتحنه به من طاعته وذكر ركوب آدم معصية ربّه بعد الذي كان أعطاه من كرامته وشريف المنزلة عنده ومكّنّه في جنّته من رغد العيش وهنيئه وما أزال ذلك عنه فصار من نعيم الجنّة ولذيذ رغد العيش إلى نكد عيش أهل الأرض وعلاج الحرّاة والعمل بالمساحي والزّراعة فيها. فلمّا أسكن الله عزّ وجلّ آدم عليه السّلام وزوجه أطلق لهما أن يأكلا كلّ ما شاء أكله من كلّ ما فيها من ثمارها غير ثمرة شجرة واحدة ابتلاء منه لهما بذلك وليمضي قضاء الله فيهما وفي ذريتهما كما قال عزّ وجلّ: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»<sup>(٣٥)</sup>. فوسوس لهما الشيطان حتّى زين لهما أكل ما نهاهما ربّهما عن أكله من ثمرة تلك الشجرة وحسّن لهما معصية الله في ذلك حتّى أكلا منها فبدت لهما من سواتهما ما كان موارى عنهما منها فكان وصول عدوّ الله إبليس إلى تزيين ذلك لهما ما ذكر في الخبر الذي حدّثني موسى بن هارون الهمدانيّ قال حدّثنا عمرو بن حمّاد قال

حَدَّثَنَا أُسْبَاطُ عَنِ السَّدِّيِّ فِي خَبَرِ ذِكْرِهِ عَنِ أَبِي مَالِكٍ وَعَنِ أَبِي صَالِحٍ  
 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنِ مِرَّةَ الِهْمَدَانِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنِ أَنَسٍ مِنْ  
 أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَمَّا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَدَمَ:  
 «اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ  
 الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»<sup>(٣٥)</sup>. «أَرَادَ إِبْلِيسُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِمَا الْجَنَّةَ  
 فَمَنَعَهُ الْخَزْنَةُ فَآتَى الْحَيَّةَ وَهِيَ دَابَّةٌ لَهَا أَرْبَعُ قَوَائِمٍ كَأَنَّهَا الْبَعِيرُ وَهِيَ  
 كَأَحْسَنِ الدَّوَابِّ فَكَلَّمَهَا أَنْ تَدْخُلَهُ فِي فَمِهَا حَتَّى تَدْخُلَ بِهِ إِلَى آدَمَ  
 فَأَدْخَلْتَهُ فِي فَمِهَا فَمَرَّتِ الْحَيَّةُ عَلَى الْخَزْنَةِ فَدَخَلَتْ وَهَمَّ لَا يَعْلَمُونَ لَمَّا  
 أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَمْرِ فَكَلَّمَهُ مِنْ فَمِهَا وَلَمْ يَبَالِ كَلَامَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ  
 فَقَالَ يَا آدَمَ: «هَلْ أَدْرُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْنَى»<sup>(١٢٠)</sup>. «يَقُولُ  
 هَلْ أَدْرُكَ عَلَى شَجَرَةٍ إِنْ أَكَلْتَ مِنْهَا كُنْتَ مَلَكًا مِثْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْ  
 تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ فَلَا تَمُوتَانِ أَبَدًا وَحَلَفَ لِهَمَا بِاللَّهِ: «إِنِّي لَكُفَمَا لِمَنْ  
 النَّاصِحِينَ»<sup>(١١)</sup>. «وَأِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَبْدِيَ لِهَمَا مَا تَوَارَى عَنْهُمَا مِنْ  
 سُوءِ أَتْمَتِهِمَا مَهْتِكٍ لِبَاسِهِمَا وَكَانَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ لَهُمَا سُوءَةَ لَمَّا كَانَ يَقْرَأُ مِنَ  
 كِتَابِ الْمَلَائِكَةِ وَلَمْ يَكُنْ آدَمُ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَكَانَ لِبَاسِهِمَا الظُّفْرُ فَأَبَى آدَمُ أَنْ  
 يَأْكُلَ مِنْهَا فَتَقَدَّمَتْ حَوَاءٌ فَأَكَلَتْ ثُمَّ قَالَتْ يَا آدَمُ كُلْ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُ فَلَمْ  
 يَضُرَّنِي فَلَمَّا أَكَلَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ  
 الْجَنَّةِ...» وَجَدَ نَفْسَهُ يَتَأَمَّلُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَاتِهَا، وَفِي حِكْمَةِ اللَّهِ  
 تَعَالَى فِي الْخَلْقِ: وَهَذَا إِلَى تَقْلِيْبِ مَا كَانَ قَالَهُ أَهْلُ الْقَدْرِ فِي الْقَدْرِ فِي  
 ذَهْنِهِ، وَتَسْأَلُ هَلْ الْإِنْسَانُ خَيْرٌ وَشَرٌّ: أَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ خَيْرٌ كُلَّهُ، أَمْ هُوَ  
 شَرٌّ كُلَّهُ؛ فَمَاذَا كَانَ سَيَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ إِذَا كَانَ هُوَ الْخَيْرُ كُلَّهُ؛ وَمَا كَانَ  
 سَيَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ لَوْ كَانَ شَرًّا كُلَّهُ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَمْتَلِكُ الْعِلْمَ  
 مُطْلَقًا، وَقَدْ تَغَيَّبَ عَنْهُ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ فِي مَوَاطِنٍ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ كَانَ إِبْلِيسُ  
 أَعْلَمُ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ فِي مَسَائِلٍ لَمَّا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ أَنَّ لَهُمَا سُوءَةَ مَدَارَاةٍ  
 كَانَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَيْهَا حِينَمَا كَانَ يَدْرُسُ فِي كِتَابِ الْمَلَائِكَةِ... وَشَرْدَ، انْتَابَهُ  
 السُّؤَالُ فَبَلَبَهُ، قَالَ: «مَتَى تَعْلَمُ إِبْلِيسُ ذَلِكَ؟ وَكَيْفَ هِيَ كِتَابُ الْمَلَائِكَةِ؟

وماذا كان مكتوباً فيها؟ وهل هي خلاف الكتب التي أرسلها الله تعالى فيما بعد إلى رسله؟» كان يميل إلى الاعتقاد أنّ تلك الكتب إنّما قرأها إبليس بعد أن خلق الله آدم؛ فلو كان قرأها قبل خلقه سيكون ذلك ضرباً من الغيب، والغيب لا يعلم؛ أو أنّ جزئيه وليس مطلقه هو ما أطلع الله تعالى عليه بعض عباده، من مثل ما ألهمه إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم؛ ومسائل أخرى، كانت مذكورة في الخبر الذي أورده أبو جعفر، ولم يذكرها القراء، وأولها أنّ هذه الحيّة التي نعلم عنها ما نعلم، والتي ذكرها العهد القديم أيضاً، ليست الكائن أو المخلوق الذي نعرفه بذاته وصفاته، وإنّما هي مخلوق من مخلوقات الله، له أربع قوائم. وقد سألت إبليس أن تدخله في فمها لئتمكّن بذلك من مغافلة الخزنة، لأنّ الله تعالى كان منعه من دخول الجنّة على آدم وحواء؛ وهنا يتأمّل قليلاً في الأمر، فقد بدا له أنّه في حاجة إلى أن يفهم شيئاً؛ وهو هذا المنع!! نعم المنع؛ والله تعالى إذا أراد شيئاً فلا بدّ أنّه سينفذه، وقد قضى بعدم دخول عدوّ الله إلى جنّته على مخلوقيه اللذين خلق، ثمّ يتمكّن أخيراً من مداراة الخزنة والدخول وإغواء آدم وحواء. هو يعلم علم اليقين أنّ شيئاً لم يكن ليحدث إلاّ بعلمه تعالى؛ لكن كيف يجب عليه أن يوفّق بين بعض الأشياء التي كانت تبدو له غير متوافقة... المنع... أمر الله... ثمّ إبليس يفعل ما يفعل في تحدّ صريح للذات العلية...؟! وبمثل الإلهام، جرت على ذاكرته آيات من القراءان الكريم، وذكر أنّ إبليس لما عصى الله تعالى إنّما سأل النّظرة بعد ذلك وقد أعطيها؛ وقد كان بينه وبين الله تعالى ما كان من المحاورّة؛ إذ سأله العليّ لماذا لم يسجد، فتعلّل بأنّه خير من آدم، خلقه الله من طين، وخلق هو إبليس من نار؛ فكتب الله عليه الخروج من الجنّة مطروداً مذموماً مدحوراً؛ وهنا سأل النّظرة فأنظره الله؛ فتوعّد الأبق أنّه سيغوي الخلق الأجمعين وسيفعل الأفاعيل؛ فتوعّد ربّ العزّة أنّه سيحشره ومن معه في نار جهنّم واستثنى المتّقين من عباده الصّالحين.

قال طاجيك، وقد بدا له في هذا الموطن أنّ يدوّن بعض الملاحظات على الحاشية حتّى يبيّن بعض الأشياء لمن سيقراً هذه الحواشي فيما بعد، وهي ملاحظات تتعلّق بالقدر خيره وشره. فكتب: «إنّ الله لما قال ما قال. وتوعّد إبليس لم يكن بعد خلق من الخلق غير آدم، ولكنّه حينما حدّد إنّما ذكر الأخيار والأشرار، ولم يكونوا قد خلقوا بعد. فلسائل أن يسأل: «هل كان الله كتب الشقاء على عباد له قبل أن يخلقهم، وكتب السعادة لغيرهم قبل أن يخلقهم أيضا؟ فهل أنّ أفعال العباد بعد ذلك هي مخلوقة فيهم، وليس لهم خيار فيما يفعلون؟ سيقول أحدهم: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا أنزلهم الله إلى الأرض، ليكدّوا ويعملوا، وليفعلوا خيرا وشرّا الله تعالى مدركه سلفا؟ فيكون الأمر. وحاشا لله تعالى أن يفعل ذلك. مجرد عمل بلا طائل!! قال طاجيك: «إنّ الأسلم والأقرب إلى الثّقة بالله أن نقول إنّ الإنسان مخيّر في أشياء ومسير في أشياء أخرى. الإنسان مسير فيما ليس منه بدّ من مسائل اشتغال أجهزته في بدنه، فأكله بمقدار وشربه بمقدار، وخروجه لقضاء حاجته بمقدار، ونومه بمقدار، ويقظته من نومه بمقدار، فلو ترك كلّ ذلك إلى الإنسان لتداخلت عليه الأمور. ولانتهى كلّ أمره في بضعة أيام معدودات، فكيف له أن يضبط دقات قلبه وهو نائم، وكيف له أن يتنفس أيضا، وكيف له أن يتحكّم في الدّم المتدفّق من قلبه إلى كلّ ذرّة من جسده حتّى يبلغ الدماغ، وغيرها من الأشياء التي لا يحكم ضبطها إلاّ قوته وتدييره سبحانه وتعالى: وفيما عدا ذلك فالإنسان مخيّر في أمره بين خير وشرّ. وقد هداه الله النّجدين، وجعل له آلة تمكّنه من التّمييز بين الحلال والحرام، وبين ما يجب أن يفعل وبين ما يجب أن يترك، ألا وهي العقل، وهي الميزان، الذي يزن به الإنسان كلّ شيء في حياته... غير أنّ الأمر على هذا الشّكل لم يحسم كلّه، فما يزال غموض لا بدّ من تجليته؛ وهو أنّ الله تعالى يظلّ عالما بما سيفعله عباده، وقد كان ذلك في سابق علمه؛ نقول إنّ الله تعالى وإن كان يعلم فهو لا يتدخّل

فيما سيفعله عبده على رغم معرفته بما سيفعله سلفا؛ فيكون سبحانه بذلك هو العدل الذي نفا عن نفسه الظلم لقوله جلّ ذكره في محكم تنزيله: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ<sup>(٤٦)</sup>». وطفت على ذاكرته صورة ذلك المضطرّ الذي خرج، وقال إنّ الله ينظر إليه، ويكلّؤه بعين رعايته؛ حتّى لو كان لا يدري لماذا خرج، ووجد نفسه مدفوعا إلى هذا الخروج دفعا، فربّما يكون ذلك لحكمة لا يعلمها إلا صاحب الحكم؛ وظهر الصوّت جليّا هذه المرّة؛ وفي المكان الذي ظنّ أنّه نبع منه، وجد نورا مشعّا كالهالة العظيمة، ووسط تلك الهالة، رأى ذلك الرّجل كما رآه أخر مرّة في المسجد، يلقّه البياض من رأسه حتّى أخمص قدميه، رغم أنّ كلّ ملامحه غطّى عليها النّور. قال:

الآن، ستكتب شيئا جديدا... وستثبته حيث أثبتت كلّ ما كتبت؛ فالأمر كلّ واحد؛ فلا فرق بين الأسرار والتّاريخ؛ فما لم يفهم في التّاريخ وغفل عنه المؤرّخون فهو الأسرار والمواجيد... ولكّهما تظّل الأسرار في الرّمان والمكان، وإن لم نفهمها؛ ولتعلم أنّ هناك دائما من يستطيع أن يرى ما لا يراه الآخرون...

ثمّ، وبعد أن صمت للحظات واصل:

- في عرف المؤرّخين إذا كتبوا شيئا أن يقولوا: حدّث فلان عن فلان عن فلان، ويوردون بعد ذلك المتون: أمّا الرّأؤون فلا يقولون بذلك وهم يرون رأي العين، ويسمعون ملء الأذان، وهم في كلّ مكان، وهم في كلّ زمان...

قاطعه طاجيك، وقد ذهب كلّ خوفه وتوجّسه السّابق، وبات يستأنس بحضوره:

- كيف لمن هم في الرّمان والمكان أن يروا ما لا يراه غيرهم؛ وخالقهم واحد؛ وخالقهم لم يصطف غير من اصطفاهم من الرّسل والصّالحين؟!

---

قال له، وبات صوته كالقرار، ساكنا سكون الماء في نهر توقّف ماؤه  
عن الجريان، واكتنفه هدوء وسكينة وطمأنينة ما عليها من مزيد:  
-ذكرت الرّسل والصّالحين؛ والرّاؤون من جملة الصّالحين؛ فلو  
لم يكونوا كذلك لما رفع الله تعالى ما على أعينهم من حجب؛ وهم وإن  
كانوا في زمان البشر ومكانهم فمكانهم وزمانهم الذي يعرفونه يتشكّل  
وفق إرادتهم؛ وإذا أرادوا طوته مواجيدهم وعشقمهم... الحبّ، يا ولدي،  
هو زمانهم ومكانهم، وعشقمهم هو بداياتهم ونهاياتهم... والآن، اكتب ما  
سأمليه عليك، واجعله حدوك النّعل بالنّعل من الموطن الذي أثبتّ  
فيه حديثك عن القدر خيره وشرّه...

أخذ طاجيك قلمه وقرّبه من الكتاب، وتطلّع إلى تلك الهالة من  
النّور، فبدأ الصّوت يملي:

-رأى من لا أشكّ في أمانته، وقد كان أراه من رأى أوّل مرّة. ومن  
رأى أوّل مرّة جاءه الإلهام بذلك، وكان يرى كلّ شيء بعينيه، ويسمع  
بأذنيه، وتطوى له المسافات والمراحل، وقد زار البلدان، وقطع الوديان  
والأنهار، وكان يطير بغير أجنحة، ويلتقي السّادة في حضرتهم ويستمع  
إليهم ويستمعون إليه؛ وكانوا يتواجدون، ويغبرون، وترتفع أهاتهم فتعبر  
الأفاق، ويسمعها من لم يكن بعد معهم فتسحّ مآقيهم بالدموع الغزار  
ويتمنّون لو كانوا معهم؛ فأهل الطّريق ليسوا كلّهم سواء، ولا قواهم  
واحدة، فهناك الطّائر المقيم، المقيم الطّائر. وهناك من هو طائر على  
الدّوام، وهناك من هو مقيم على الدّوام، ولكنّه ما يفتأ يرى، من أيّ  
مكان يكون فيه، ومنهم من سما فكان روحا بلا جسد، ومنهم من فني،  
فاستغرقت الأزمنة جميعا فاستغرقتها، واستغرقت الأمكنة جميعها  
فاستغرقتها؛ وقد قال لي: «رأيت في محلّته، في زقاقه، في مكان ليس ككلّ  
الأمكنة، غريب، لا يدري أهو من زمان دبر، أم من زمن مازال طاويا  
في مجاهل الغيب، وكان الأكبر من أبناء أبيه، وكانت له زوجة وأبناء،  
وإخوة وأخوات، ووالد ووالدة...» ويتأنّى كأنّه يتطلّع إلى حيث يرى كلّ

ذلك مرسوما على لوح محفوظ من النور، ثم يقول: «وقد كان مقدرا له أن يرى طواسين عشقه، وأن يجرب الهجر والبعد، ليعرف طريقه... أسماؤه عدة، وليست واحدة، وهو البدر في الليل الداجي، وهو بداران بن النور، وهو بدارون الذي انكشفت له الستور؛ ولكن قبل ذلك كان عليه أن يخرج من محلته إلى المحلة الكبرى التي ليس بعدها محلة، ليس لها دور ولا أعمدة، وترتفع شامخة، ولا يراها إلا الواصلون الذين أجهدتهم المشقة، ورمتهم المقادير من طريق إلى طريق، فرأوا الصوامع، ورأوا الدور المقفرات، ورأوا الفلوات التي كانت عامرة بالنور. وقد كان تاريخهم ترسمه دموع الخجل والوجل، وهم مع ذلك يسبحون ويذكرون، ويبكون، ويسبحون ويذكرون، ويبكون، ولا يتوقفون عن البكاء... كان الصبر زادهم، وكانت الألام طريقهم إلى خلاص أرواحهم... حدث بذلك الرائي،» واختفى الصوت، واختفت معه تلك الهالة؛ فلم يستغرب طاجيك، وإنما استغل ذلك الغياب ليعيد قراءة ما كتبه من جديد، وبدا له شيئا غريبا غاية في الغرابة؛ شيئا لم يقرأ مثله من قبل ولا سمع أحدا يذكره أو يروي مثله في الزمان؛ نعم لقد عرف صوفيّة في بغداد، وكان يراه في صوفهم؛ ولكن كان يكتنفهم الصمت دائما، وهم في الخارج، ولا يرتفع تغييرهم إلا في زواياهم أو الأماكن التي اتخذوها في بعض أروقة المساجد، أو بعض كهوفهم في شعاف الجبال؛ وقد قرأ عن أبي حيان التوحيدى، وقد تصوّف في مبدأ شبابه لقلّة ذات يده؛ وكان يرى أنّ التّصوّف هو حرفة الفقراء والمساكين والمنقطع بهم ممّن لفظهم الناس وجفوههم؛ ويفاجأ الآن أنّ السبيل شيء آخر، وأنّ الطريق هو طريق الواصلين... أه، لكم يتعجّل أن يعرف قصّة هذا الخارج، بدر النور، البدر في الليل الداجي، الذي انكشفت له الستور...!!! ونازعته نفسه إلى الكتابة من جديد، وكانت بين يديه الأسفار، وكان كتاب الأمم والرسل إلى جانبه أيضا؛ ثم أثر في الأخير أن ينهض قليلا من مكانه ويتريّض في الغرفة لينشط دورته الدّموية، وليجدّد نشاطه من

جديد... كان الوقت ما يزال عصرا، ولم يذكر أنه صَلَّى فرضه، رغم أنه في أوقات سابقة كان يصلي كل صلاة في وقتها إن لم يكن في المسجد الجامع مع باقي المصلين ففي الخان؛ وإذا صادف أن كان مسعود معه، فإنهما يصليان معا؛ هو في الأمام ومسعود وراءه؛ وقد كان يتعمد الإطالة إذا وجد من نفسه نشاطا، وكان يتفكر في الآيات، ويتخير من السور طوالها... لقد كان القراءان تعزية حقيقية له في هذه البلاد التي هو غريب عنها، كما كانت السور والآيات التي يقرأها معينا له ومفاتيح لبعض مغاليق لما كان يقرأه في كتبه الكثيرة، والتي كان مفروضا فيه أن يعلق عليها أو يكتب في حواشها... في الداخل سكون، في الداخل صمت وسكون، وفي الزواق خارج غرفته، وصمت في كل مكان حوالي الخان الذي كان بعيدا نوعا ما عن صدر المدينة وأرباضها ومنزهاتها ودورها الكثيرة وبعض قصورها؛ ولا يدري لماذا كان الصمت في ذهنه قسيما للندر، ولم يكن بعد قد آمن أن هناك بشائر قد تأتي في أكثر الأوقات عسرا؛ ورأى نفسه مرة أخرى غريبا عن نفسه، وعن كل ما حوله، وتمنى من كل قلبه في تلك اللحظات، ولحظات أخرى كانت تمر عليه ثقيلة ثقل الهم على القلب، لو كانت له زوجة بجانبه، وله ابن أو ابنة، زوجة يحادثها وتحادثه، ومن حين لأخر يغازلها، ليرطب قلبه بطيب الحديث؛ فالقلوب إن استمرت على جفائها صدئت، ومن شأن الكلمات الجميلة الطيبة أن تحيها؛ ولطالما تمنى أن تكون له ابنة من صلبه، طويلة الشعر، حينما تدهمه وساوسه وأوهامه يتخلل شعرها الأصهب بأصابعه ويرحل بعيدا إلى ذرى لم تطأها قدم إنسان... هل كان شاعرا؟! هل قرض الشعر في إحدى مراحل حياته وهو الذي كان يحب الشعر والشعراء؟! كانت مشاغله في الكتابة تمنعه من قول الشعر، كان لا يجد وقتا لذلك، سوى ما كان من بعض أوقات كان يحلوه فيها أن يقرأ شيئا للمتنبّي أو لأبي العلاء المعري أو للبحري أو لأبي تمام؛ ولم يكن آنذاك تصلهم أشعار فطاحل الأندلسيين لبعده

الشَّقَّة من ناحية وللخلاف بين الخلافة في بغداد وإمارة الأمويين في قرطبة: وقد سمع أنهم أدخلوا لونا جديدا في الشعر سمّاه نقاد الأدب الرّوضيات أو شعر الحدائق والجنان التي كانت تزخر بها الأندلس؛ وسمع أيضا عن شاعر من شعرائهم كان يتعشق أميرة من الأميرات اسمها ولادة بنت المستكفي؛ وقد هام بها ابن زيدون حبّا وكتب فيها أجمل قصائده؛ فمن جملة ما قال فيها:

يا غزالا جمعت فيه	من الحسن فنون
أنت في القرب وفي البعد	من القلب مكيّن
بهواك الدهر الهـو	وبحبيك أديـن
منية الصبّ أغثنني	قد دنت مميّ المنون
واحفظ العهد فإني	لست والله أخون
وارحمن صبّا شجيّا	قد أذابتة الشّجون
ليله همّ وغمّ	وسقام وأنيـن
شفّه الحبّ فأمسى	سقما لا يستبين
صار للأشواق نهبّا	فنبت عنه العيون

ومن أجمل ما قاله الشعراء في الهجر والتّباعد والتّداني قاله ابن زيدون في ولادة في رائعته التي أولها «أضحى التّنائي...»: وكذّ ذهنه، أراد أن يتذكّر القصيدة غيبا كاملة، وكان حفظها في أحد مجالس شيوخه الذين كانوا مولعين بالشّعر والأدب؛ وقد كانت الأسطر تؤوب إلى ذهنه شيئا فشيئا، وكان يتمايل طربا لقصيدة ليس فيها الغزل وحسب، ولكن فيها الكثير من الموسيقى التي كانت تتسرّب إلى الحواس فتخدرها تماما:

أضحى التّنائي بديلا من تدانينا  
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ألا وقد كان صبح الين صبحنا  
حين فقام بنا للحين ناعينا  
من مبلغ الملبسنا بانتزاحهم  
حزم مع الدهر لا يبلى ويبلينا  
أن الزمان الذي مازال يضحكنا  
أنسا بقرهم قد بات يبكيننا  
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا  
بأن نعص فقال الدهر آميننا  
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا  
وانبت ما كان موصولا بأيدينا  
وقد نكون وما يخشى تفرقنا  
فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا  
يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم  
هل نال حظا من العتي أعادينا  
لم نعتقد بعدكم إلا الوفا لكم  
رأيا ولم نتقلد غيره ديننا  
ما حقنا أن تقرّوا عين ذي حسد  
بنا ولا أن تسرّوا كاشحا فينا  
كنّا نرى اليأس تشلينا عوارضه  
وقد يئسنا فما لليأس يغرّينا  
بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنّا  
شوقا إليكم إليكم ولا جفت مآقينا  
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا  
يقضي علينا الأسي لولا تأسينا  
حالت لفقكم (و) أيّامنا فعدت  
سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

---

إذ جانب العيش طلق من تألفنا  
ومربع اللهوصاف من تصافينا  
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية  
قطافها فجنينا منه ما شينا  
ليسق عهدكم عهد السرور فما  
كنتم لأرواحنا إلا رباحينا  
لا تحسبوا نايكم عنا يغيرنا  
أن طالما غير النَّاي المحبيننا  
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا  
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا  
يا ساري البرق غاد القصر واسق به  
من كان صرف الهوى والود يسقينا  
اسأل هنالك هل عني تذكرونا  
إلفا تذكّره أمسى يعنيننا  
ويا نسيم الصبا بلغ تحيّننا  
من لو على البعد حيا كان يحيينا  
فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة  
منه وإن لم يكن غبا تقاضينا  
ربيب ملك كأن الله أنشأه  
مسكا وقدّر إنشاء الورى طينا  
أوصاغه ورقا محضا وتوجّه  
من ناصع التبر إبداعا وتحسينا  
إذا تأوّد أدته رفاهيّة  
توم العقود وأدمته البرى لينا  
كانت له الشمس ظلّرا في أكلته  
بل ما تجلّى لها إلا أحيينا

---

كأنما أثبتت في صحن وجنته  
زهر الكواكب تعويدنا وتزيينا  
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا  
وفي المودة كاف من تكافينا  
يا روضة طالما أجت لواحظنا  
وردا جلاه الصبا غضبا ونسرينا  
ويا حياة تملينا بزهرتها  
منى ضروبا ولدات أفانينا  
ويا نعيما خطرنا من غضارته  
في وشي نعمى بنا ذيله حيننا  
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة  
وقدرك المعتلى عن ذاك يغنيننا  
إذا انفردت وما شوركت في صفة  
فحسبنا الوصف إيضاحا وتبييننا  
يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها  
والكوثر العذب زقوما وغسلينا  
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا  
والسعد قد غض من أجفان واشينا  
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم  
في موقف الحشر نلقاكم وتلقونا  
سران في خاطر الظلماء يكتمننا  
حتى يكاد لسان الصبح يفشيننا  
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت  
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا  
إننا قرأنا الأسي يوم النوى سورا  
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

---

أما هواك فلن نعدل بمنهله  
شربا وإن كان يروينا فيظميننا  
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه  
سالين عنه ولم نهجره قالينا  
ولا اختبارا تجنّبناه عن كئيب  
لكن عدتنا على كره عوادينا  
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة  
فينا الشمول وغنانا مغنينا  
لا أكؤس الزاح تبدي من شمائلنا  
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا  
دومي على العهد ما دمنا محافظّة  
فالحز من دان إنصافا كما دينا  
فما استعضنا منك خليلا منك يحسبنا  
ولا استفدنا حبيبا عنك يثنينا  
ولو صبا نحونا من علو مطلععه  
بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا  
أبكي وفاء وإن لم تبذلي صلّة  
فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا  
وفي الجواب متاع إن شفعت به  
بيض الأيادي التي مازلت تولينا  
عليك منا سلام الله ما بقيت  
صباية بك تخفيها فتخفيننا

...الحسرات، الضنك والضحى؛ وبخارى هذه الجميلة الفاتنة، وهي  
تستقبل آلاف المنقطعين، لا يمكنها أن توفّر ركننا، ولو ضئيلا، لمعاقرة  
بعض الملدّات الأليفة، نظرة شزراء إلى خبايا تلوح على البعد؛ ويغتي

---

القلب، وتصدح من داخله موسيقى لا أجمل ولا أروع؛ ويثوب إلى نفسه فيقول إنه التعلل؛ وذكر قوت القلوب وجمالها وحسنها، وحلاوة منطقتها، وقال إنها بشرى خير، وسيسلم أمره للقضاء، ما دام لا يعلم ما هو مضمّر في باطن الغيب... إن لديه أعمالا لا بدّ من إنجازها، فما لا ينجزه وقت حلوله قد تمرّ عليه آماذ بعد ذلك دون أن يكون قادرا على إنهاءه حينما تحلّ الخمدة من بعد النّشاط، ويذهب مضاء العقل ليحلّ معه الخدر الذي لا يمكنه أن يعول عليه. في وقت ما سمع طبلية المنادي: وقد انتشلتته من أفكاره، وحدّ سمعه ليسمع ما يقول... كان المنادي يوقّع صوته على ضربات طبلته، وكان يعلن بابتهاج زفاف ابنة الوالي من أمير أفشنة، وكان ينقل رغبة الوالي أن الجميع مدعوون للحضور... وذكر طاجيك أنّ في مثل الحالات، كما هو الشّأن في كلّ حواضر المسلمين، ستقام سرادقات، وستعلّق أعلام الزّينة، وتزدهي بخارى بكلّ ألوانها الجميلة، وسيكون هناك أكل من كلّ لون وصنف، وسيحضر الفقراء والأغنياء؛ وإن كانت المقامات دائما محفوظة، ما دام هؤلاء لا يختلطون بأولئك، وستكون للأغنياء أماكنهم المخصّصة لهم وللفقراء أماكنهم إمّا في نهايات السّرادقات أو في زوايا الدّور التي أعدت للطّهو وتحضير صنوف المأكّل، فسيأكل الجميع مع ذلك، منهم من سيأكل على خجل، لأنّه إنّما يأكل لأجل خاطر الوالي وتودّدا له، لأنّه ليس في حاجة إلى الأكل ما دام لديه الكثير منه في قصوره؛ والوالي هو رأس البلد وهو الحاكم الذي يسعى الجميع إلى إرضائه، ومنهم من سيغالي في هذا الإرضاء الذي كان يتحوّل في أحيان كثيرة إلى تزلف وبذل ماء الوجه. أمّا الفقراء فقد كانت تلك المناسبات في نظرهم فرصا لا تتكرّر إلاّ في القليل النّادر؛ فالأكل في بيوتهم شبه معدوم، ولا قدرة لهم على تحصيل الرزق الذي كان يتحكّم فيه بعض المتنفّذين الذين كانوا يدخرونه لمحاسبيهم وذوي قرباهم؛ فيأكل الفقراء وهم يلهجون بالثناء من قلوبهم على صاحب تلك العزومات ويدعون الله تعالى له في

---

سرهم وجهرهم. أه، يا بخارى، إن كل شيء فيك جميل، لو فقط يهدأ هذا القلب! لو فقط ترتاح هذه النفس! والنفس غالبا ما تكون أمارة بالسوء، فإذا لم يكن كذلك، ففي اللوامة التي لا تكف عن التذمر والتأفف؛ ولكن على الرغم من كل ذلك، يبدو أن الله قد أسعفه بهذا الكشف. هذه الأسرار التي كانت تتوارد عليه الواحدة تلك الأخرى؛ وقد يكون هو أيضا أحد هذه الأسرار، هذه الكشوفات، أو ربما يكون هو نفسه كل هذه الأسرار مجتمعة؛ فإذا كان هناك هذا الخارج الذي خرج اضطرارا، أو ليس هو أيضا قد خرج اضطرارا؟ وإذا كان هذا الخارج لا يعرف وجهته، أو ليس هو أيضا لا يعرف وجهته بعد؟ أجل، إنه هنا، وفي هذا المكان الذي يعجّ بساكنيه، وحرفه، وأشغاله، ودوره، وقصوره، وأسواقه، وكل ما تستلزمه حاجات العباد، إلا أنه يحس أنه بعيد عن كل ما يرى وأن عينيه معلقتان بشيء آخر، بعالم آخر، مختلف تماما عما يراه؛ لو فقط يتسنى له أن يرى هذا الخارج مرة أخرى ربما ليرى فيه مخايله، ليرى فيه قلقه ووجده، وحزنه وأوقات اضطرابه حين يخلو إلى نفسه ولا معين له سوى أوهامه على أوهامه، ولا معين له على وساوسه غير وساوسه... إنه ليجد وجدا في نفسه، وحيرة أيضا، ويريد أن يحب، لا أن يكره، غير أن قلبه يأخذه إلى ضفة أخرى، لا يحمله إلى امرأة بعينها، أو كل النساء، وإنما يأخذه إلى جمال غير الجمال، إلى موقف يتساوى فيه كل شيء مع كل شيء، ولا تبقى غير المناجاة، والسكون مليا، ثم تنطلق الأصوات وتبدأ المخاطبات... هل كان يكلم شخصا بعينه؟ هل كان يعني له شيئا كثيرا أن يكلم شخصا بعينه؟ أم أن توفقه كان إلى شيء آخر، إلى صوت آخر غير الأصوات المكرورة، إلى دمعة يذرفها بحرقة، لكن وهي تسقط ستطهر قلبه من أدرانته وتحمله إلى أجواز أخرى غير أجواز الملكوت الذي يعيش فيه، حيث تنعدم الأوزان والمسافات ويتخلص الجسد من عوارضه ويستحيل كله إلى روح هفهافة تطير من حالة إلى حالة ومن مقام إلى مقام؛ كان يبغى

---

مramات أخرى، وكان يريد لمشاعره أن تهدأ، أن يستعيض عنها بسكينة المستكينين، ورغبة الرّاعبين، وذكر الواقف ومخاطباته: وبدأ يستعيد في ذاكرته، ما قاله الذي أوقفه في أول مواقفه، ولكن وجد كأنّ سداً يقوم بينه وبين الكلمات، بين الحروف؛ ربّما لم يحن الوقت بعد لكلّ ذلك، وأنّ عليه أن ينتظر، أن لا يتعجّل كما قال له ذلك الصّوت الذي جاءه أول مرّة، ثمّ تحوّل بعد ذلك، إلى بياض، ثمّ إلى هالة من نور، وهو يحدثه عن بدر التّور... عاد إلى مكانه، وأخذ كتبه من جديد، وقد أزمع أن يؤخّر موعد أكله إلى ما بعد صلاة المغرب حين يصلّحها في المسجد الجامع، ثمّ يعرّج على القهوة ليطمئنّ على صديقه الجديد علاء الدّين، ومن بعد ذلك سيذهب إلى مطبخ الخان وسيأكل هناك. أخذ «الخروج» وتصفّح ما كتبه على حواشيه، وتأمّل في إصحاح بعد إصحاح، وتركّزت عيناه على الإصحاح السّابع، وراح يقرأ دون أن تكون له الرّغبة أن يكتب في نفس الوقت على الحاشية: «أَقَالَ الرَّبُّ مُوسَى: «انظُر! أَنَا جَعَلْتُكِ إِلَهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونَ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا أَمْرُكَ، وَهَارُونَ أَخُوكَ يُكَلِّمُ فِرْعَوْنَ لِيُطَلِّقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِهِ. وَلَكِنِّي أَقْسِي قَلْبَ فِرْعَوْنَ وَأَكْثُرُ آيَاتِي وَعَجَائِبِي فِي أَرْضِ مِصْرَ. وَلَا يَسْمَعُ لَكُمْ فِرْعَوْنَ حَتَّى أَجْعَلَ يَدَيَّ عَلَى مِصْرَ، فَأُخْرِجَ أَجْنَادِي، شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ. فَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حِينَئِذٍ أُمْدُ يَدَيَّ عَلَى مِصْرَ وَأُخْرِجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِهِمْ». فَفَعَلَ مُوسَى وَهَارُونَ كَمَا أَمَرَهُمَا الرَّبُّ. هَكَذَا فَعَلَا. ٧ وَكَانَ مُوسَى ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَهَارُونَ ابْنُ ثَلَاثِ وَثَمَانِينَ سَنَةً حِينَ كَلَّمَ فِرْعَوْنَ.

٨ وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا: ٩ «إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنَ قَائِلًا: هَاتِيَا عَجِيبَةً، تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَانًا». ١٠ فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلَا هَكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. ١١ طَرَحَ هَارُونَ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا.

فِرْعَوْنَ أَيضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أَيضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ.<sup>١٢</sup> طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتْ الْعِصِيُّ ثَعَابِينَ. وَلَكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ.<sup>١٣</sup> فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ.

<sup>١٤</sup> ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَلْبُ فِرْعَوْنَ غَلِيظٌ. قَدْ أَبِي أَنْ يُطْلِقَ الشَّعْبَ.<sup>١٥</sup> اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ. إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ، وَقِفْ لِلِقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ. وَالْعَصَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ حَيَّةً تَأْخُذُهَا فِي يَدِكَ.<sup>١٦</sup> وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلًا: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي فِي الْبَرِّيَّةِ. وَهُوَذَا حَتَّى الْآنَ لَمْ تَسْمَعْ.<sup>١٧</sup> هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: بِهَذَا تَعْرِفُ أَبِي أَنَا الرَّبُّ: هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا.<sup>١٨</sup> وَيَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَيَتَبَّنُّ النَّهْرُ. فَيَعَافُ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ».

<sup>١٩</sup> ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى أَنْهَارِهِمْ وَعَلَى سَوَاقِمِهِمْ، وَعَلَى آجَامِهِمْ، وَعَلَى كُلِّ مُجْتَمَعَاتِ مِيَاهِهِمْ لِتَصِيرَ دَمًا. فَيَكُونُ دَمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ فِي الْأَشْجَابِ وَفِي الْأَحْجَارِ».<sup>٢٠</sup> فَفَعَلَ هَكَذَا مُوسَى وَهَارُونَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. رَفَعَ الْعَصَا وَضَرَبَ الْمَاءَ الَّذِي فِي النَّهْرِ أَمَامَ عَيْنِي فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِيُونِ عِبِيدِهِ، فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ دَمًا.<sup>٢١</sup> وَمَاتَ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَأَنْتَنَ النَّهْرُ، فَلَمْ يَقْدِرِ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ. وَكَانَ الدَّمُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ.<sup>٢٢</sup> وَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ كَذَلِكَ بِسِحْرِهِمْ. فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ.

<sup>٢٣</sup> ثُمَّ انصَرَفَ فِرْعَوْنَ وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَلَمْ يُوجِّهْ قَلْبَهُ إِلَى هَذَا أَيضًا.<sup>٢٤</sup> وَحَفَرَ جَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ حَوَالِي النَّهْرِ لِأَجْلِ مَاءٍ لِيَشْرَبُوا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ مَاءِ النَّهْرِ.

<sup>٢٥</sup> وَلَمَّا كَمُلَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ مَا ضَرَبَ الرَّبُّ النَّهْرَ. «وهو يقرأ، كانت رأسه تراكم فيها التساؤلات وتتضخم؛ وأثارت فيه حكاية خروج بني

إسرائيل من مصر لجبا من الأسئلة، ووجد نفسه يتساءل: هل أن أي خروج لا بد أن يكون مقدراً من البداية؟ وهل أن خروج شعب من الشعوب من أرض إلى أرض لا بد فيه من تدخل إلهي؟ أم أن هذا الأمر لا يتعلق إلا بمن اختارهم الله لرسالته وأرسل فيهم رسله؟ أم أن الله لا يتدخل إلا في حال الضعفاء؛ فيتدخل لينقذهم من الجبارين؟... ويبالغ في تهويماته ثم يعود إلى صورة الرجل، إلى بدر النور، ويقول: هو ذا يخرج وهو وحيد؟ ولا يبعد أن يكون خروجه بأمر إلهي، فلا فرق إذن في هذه الحالة بين الفرد الواحد، وبين الشعوب؛ ولا يبعد أن يكون الله قد تدخل في كلتا الحالتين لحكمة: فهو يخرج الشعب من ضيق الحال إلى سعة الأرض والرزق، وهو يخرج الأفراد بنقلهم من الجهل إلى العلم، ومن الضياع إلى الخلاص. ولكن أي خلاص؟... وكتب على الحاشية، إذا أخذنا بظاهر ما ذكر في الإصحاح، فإن الله تعالى كان يضم من البداية أن يهلك فرعون، ولكنه قبل إهلاكه أراد أن يري الناس فيه آياته ليكون عبرة للمعتبرين؛ فالمبالغة في التبيين، وإيراد الآية تلو الآية كانت الغاية منه المبالغة في الاعتبار؛ فإذا كان المتأمل يرى كيف ابتلى الله فرعون وملاه بإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم وكل الآيات المفصلات التي ذكرت في غير موضع من القراءان علم أن الله كثير الحلم، ولكنه يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ فإن أخذه سيكون أخذ عزيز مقتدر: وقد قال الله تعالى، وهو يخاطب موسى ويرسله إلى فرعون لينذره: «وَلِكَيْ أُقَبِّلَ قَلْبَ فِرْعَوْنَ وَأَكْثُرَ آيَاتِي وَعَجَائِبِي فِي أَرْضِ مِصْرَ. وَلَا يَسْمَعُ لَكُمْ فِرْعَوْنُ حَتَّى أَجْعَلَ يَدِي عَلَى مِصْرَ، فَأُخْرِجَ أَجْنَادِي، شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ...» في الداخل، كانت الظلال تتكاثف شيئا فشيئا، وكانت تغطي على بقية النور في الغرفة، فأصبح لا يستطيع التمييز بين الحروف والكلمات، فأثر أن يغلق كتبه ودفاتره، وأن يضع كل شيء في مكانه، ويخرج لينال قسطا من الراحة قبل أن يذهب إلى المسجد الجامع... كانت الشمس تؤذن بالمغيب حين

---

خرج، وكان يجد في نفسه نشاطا غير عادي؛ وطفا على ذاكرته صوت المخاطب وهو يوقف المخاطب على الموقف: « أوقفني في العزّ وقال لي لا يستقلّ به من دوني شيء، ولا يصلح من دوني لشيء، وأنا العزيز الذي لا يستطيع مجاورته، ولا ترام مداومته، أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه فما يدركني قربه ولا يهتدي إليّ وجوده، وأخفيت الباطن وأنا أخفي منه فما يقوم عليّ دليله ولا يصحّ إليّ سبيله. وقال لي أنا أقرب إلى كلّ شيء من معرفته بنفسه فما تجاوزه إليّ معرفته، ولا يعرفني أين تعرّفت إليه نفسه. وقال لي لولاي ما أبصرت العيون مناظرها، ولا رجعت الأسماع بمسامعها. وقال لي لو أبديت لغة العزّ وظفت الأفهام خطف المناجل، ودرست المعارف درس الرّمال عصفت عليها الرّياح العواصف. وقال لي لو نطق ناطق العزّ لصممت نواطق كلّ وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كلّ حرف. وقال لي أين من أعدّ معارفه للقائي لو أبديت له لسان الجبروت لأنكر ما عرف، ولمار مور السّماء يوم تمور مورا. وقال لي إن لم أشهدك عزّي فيما أشهد أقررتك على الدّلّ فيه، وقال لي طائفة أهل السّماوات وأهل الأرض في ذلّ الحصر، ولي عبید لا تسعهم طبقات السّماء ولا تقلّ أفئدتهم جوانب الأرض. أشهدت مناظر قلوبهم أنوار عزّيّي فما أتت على شيء إلا أحرقته، فلا لها منظر في السّماء فتثبته، ولا مرجع إلى الأرض فتقرّ فيه. وقال لي خذ حاجتك التي جمعت عليّ وإلا رددتك إليها وفرقتك عني. وقال لي مع معرفتي لا تحتاج، وما أتت معرفتي فخذ حاجتك. وقال لي تعرّفني الذي أبديته لا يحتمل تعرّفني الذي لم أبده. وقال لي لا أنا التّعرف ولا أنا العلم، ولا أنا كالتّعرف ولا أنا كالعلم.»

---

كان ما يزال إلا دقائق معدودات على الإقامة، وكان المؤذن قد رفع الأذان منذ قليل؛ فجلس حذاء السارية المقابلة للمنبر بعد أن أخذ المصحف الشريف من على نضد قصير وراء ساريتته، وراح يتصفح الأوراق التي كان يبدو عليها القدم؛ ولم تكن في ذهنه سورة محدّدة؛ غير أنّه كان يعي أنّ كثيرا من سور القراءان قد ورد فيها ذكر موسى وأخيه هارون عليهما السلام وبني إسرائيل؛ وقال بينه وبين نفسه أن ليس في الأمر غرابة؛ فموسى عليه السلام هو من أهل العزم من الرّسل، وما استمرار ذكر وروده في غير سورة من القراءان إلا أنّّه كان نبيا على قوم لم يرسل الله تعالى في غيرهم من الرّسل أكثر منهم؛ وقد اختارهم الله وفضّلهم على كثير من الأمم من حولهم، كانوا لا يعبدون مثلهم إلها واحدا وإنّما كانوا مشركين غير موحدّين. ثمّ إنّ الله تعالى بحكمته أراد أن يبيّن بما لا يدع مجالا للشكّ كيف يمكنه أن يحوّل من حال إلى حال، وكيف بإمكانه أن يجعل من شعب مستضعف، قليل ذليل، شعبا ذا بأس، وأن ينصرهم على من هم أكثر منهم قوّة وعتادا، وذلك بعظيم رحمته بهم، وبتفضيلهم إيّاهم على من سواهم؛ فلو تأملنا قوّة فرعون وبطشه، وقوّة العيلاميين، والحثيين، والحويين، واليبوسيين، وكيف أنّ الله مكّن بني إسرائيل من الخروج من مصر، ووقاهم شرّ من حولهم من الأعداء، علم أنّ الله لا يعجزه شيء وأنه القادر على كلّ شيء؛ ولكنّه سبحانه وتعالى على الرّغم من ذلك يأخذ على أيّ شعب من الشعوب ممّن فضّلهم العهود والمواثيق بأن يكونوا معه، وأن لا يشركوا بعبادته شيئا؛ فإذا فعلوا كانوا مثل غيرهم عرضة لغضبه

وجبروته وقوة سلطانه... وضع المصحف في مكانه حين الإقامة، وأخذ مكانه في الصف الأول وراء الإمام مباشرة وهو يقرأ بعد الفاتحة: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ»<sup>(١٠٣)</sup> وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(١٠٤)</sup> حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ<sup>(١٠٥)</sup> قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ<sup>(١٠٦)</sup> فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ<sup>(١٠٧)</sup> وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ<sup>(١٠٨)</sup>» ورغم أنه كان يريد التركيز في صلاته، لا يدري لماذا بدت لعينه تلك العصا، وكأنه يراها في الحال، في ذلك الزمان، وفي ذلك الوقت بالذات تتحوّل إلى ثعبان مبین، وكيف كان ذلك الثعبان الضخم يتلوّى. وقد سمّاه الله أيضا حيّة؛ وكيف كان يلتقم كلّ حيات السحرة؛ وكانت تلك آية من الآيات البيّنات الّتي لا مرأى فيها ولا اختلاف، وكانت دليلا على عظمة الخالق الّذي أراد السّلامة للسحرة فأسلموا وأمّنوا به، في حين كان قلب فرعون يقسو المرّة بعد المرّة... كان السحرة يدركون أنّ من قهر سحرهم (وهو سحر لا يستطيع أن يأتي بمثله بشر) لا يمكن إلا أن يكون ربّا لا يضاهى، ولا بدّ أن يكون هو من خلق السحر والسحرة، وموسى وهارون، وفرعون وجنده والنّاس أجمعين... وأنهى صلاته، فانتعل حذاءه وواره الباب وهو يتّجه صوب القهوة، قهوة صديقه علاء الدّين الّذي وجده كعادته أمام أركيلته وهو يسرّح طرفه بعيدا وراء الباب... الأشياء في الخارج مجردّ خيالات، مجردّ أطياف بدأ اللّيل يواربها، والشّمس قد اختفت تماما ولكيّها تركت في مكان اختفائها صفرة وحمرة قد استحالت إلى قرميّة كامدة؛ والحركة بدأت تخفّ، فرؤاد الخان قد أووا إلى غرفهم، وأهل بخارى الّذين كانوا يسكنون غير بعيد عن الخان قد غيّبتهم الأزقة الضيّقة والحواري وهم في طريقهم إلى منازلهم، وأصحاب الأسواق قد أغلقوا دكاكينهم، وأصحاب المصالح قد أنهوا مصالحهم... الحياة في

بخارى لا تتوقّف... دائما هناك جديد، ما تراه العين في الظاهر يتبدّل ولا يثبت على حال، غير أنّ ما يحدث في الباطن لا يعلمه إلاّ الله، وحتى أولئك الذين ابتلوا بالهواجس والوساوس لا يعلمون من أمرها غير ما تحدّثه في أنفسهم من الأوجاع التي كانت تتواتر عليهم من حين إلى حين ويكون لها مثل الوخز الذي يظلّ يسبّب قلقا من حين لآخر، ولا يتوقّف أبدا... اتّخذ مجلسه المعتاد مقابل صديقه بعد أن أطلق التحيّة، وأوماً إلى الغلام الذي كان يخدم بعض الزبائن غير بعيد، فهم عنه وراح ليجلب له أركيلته ومشروبه المعتاد... لم يشأ أن يقطع على صاحبه شروده، وغاب هو الآخر مع الخيالات والأطيفاف في الخارج، وقال: «سبحان مبدّل الأحوال، الذي يغيّر من حال إلى حال... سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر.» كان مرتاحا، رغم الضنى، رغم الحنين إلى بغداد، رغم المدّة الطويلة التي لم يروم يسمع فيها لا عن والده ولا عن بوران اللذين انقطعت أخبارهما عنه فجأة؛ كان يريد أن يؤخّر الحديث إلى حين قدوم الأركيلة، وقد رأى الغلام وقد بدا أخيرا وهو يحملها بيد وباليد الأخرى كان يحمل كوبا كبيرا يعلوه بخار كثيف؛ وقال: «ما أحلى أن يدقّ الإنسان نفسه بمشروب ساخن في هذا المساء البارد.» استقرّ كلّ شيء في مكانه، وكان الدخان يعلو بطيئا في البداية، ثمّ يلتحم في وقت ما، ويتفرّق أخيرا شذرا منذر حين يبلغ السقف، ثمّ يتلاشى أخيرا بين الزوايا التي لم تكن مضاءة تماما ولا مظلمة تماما. قال:

- يبدو أنّها ستكون ليلة باردة...

نظر إليه علاء الدّين، وهو يفيق من شروده أخيرا، وقد بدا أنّ الذي أيقظه هاجس في داخله أكثر من صوت طاجيك الذي كان مقابله تماما.

- يبدو ذلك...

قال طاجيك:

- هل ستحضر زفاف ابنة الوالي؟

---

أجاب علاء الدين وهو يقرب خرطوم الأركيلة من فمه:  
- لا يمكن أن أترك القهوة وحدها؛ والغلام وحده لا يمكن أن يقوم  
بها بمفرده.

كان طاجيك هو الآخر يسحب الدخان إلى صدره. وقد بدأ ينتعش  
شيئا فشيئا من أثر الدخان الذي كان يثير فيه خدرا لذيذا؛ وقال بعد  
لأبي:

- ما رأيك لو تمنح غلامك إجازة، ونحضر العرس سويا. ستكون  
تلك فرصة للتغيير...

ثم بعد أن حسا من كوبه حسوات سريعات:  
- ولا أظن أنك حضرت من قبل عرسا من أعراس بخارى؛ وستكون  
هذه مناسبة للتعرف على بعض عادات أهل البلد... ولا تنس أن عرسا  
كهذا لا بد أن يكون عرسا مميزا، سيما أن العروس هي ابنة الوالي،  
والعريس هو أمير أفشنة.

أراد علاء الدين أن يمنح نفسه وقتا كافيا لاتخاذ قراره. تمللم قليلا  
في مكانه. وجد أن الفكرة لا بأس بها. وقال في نفسه إن طول مكوثه في  
مكان واحد من شأنه أن يثقل بدنه وأن يعيبه قبل الأوان. قال:  
- لم لا؟ تبدو فكرة جيدة...

وأراد أن يتأكد من موعد العرس؛ لأنه رغم أنه سمع طبلة المنادي  
إلا أنه كان غارقا في تأملاته حين سمع النداء. قال سائلا:

- ومتى العرس؟

قال طاجيك مجيبا:

- بعد غد؛ سيكون يوم الخميس...

ثم أضاف:

- سأمر عليك، وسنذهب سويا.

ثم لوى الخرطوم حول الأركيلة، وقال وهو يستدير بظهره ليخرج:

- سأدعك الآن؛ فلا تنس موعدنا بعد غد، وكن مستعدا.

---

وخرج. عرّج على مطبخ الخان وتناول عشاءه ثمّ أوى إلى غرفته حيث كان ترك كتبه ودفاتره، فوجده هناك... كان يراه، ويرى نفسه؛ وفي وقت ما بدا له أنّه هو، وهو هو نفسه، وتماهى الطّيفان فباتا واحدا؛ وكان يراه أو يرى نفسه تغيّبه الحارات والنّواصي، في بلد بعيد بعيد جدّا؛ وحدّ عينيه فبدت له أسماء لم يسمع بها من قبل، «حارة الفرنساوي»، «شارع الجيش»، «العجوزة»، «الجيزة»، وأسماء وأسماء، وكانت تتكرّر بينها صورة لوكالة في مكان ما من فضاء فسيح... فسيح جدّا؛ قال له هاجس في نفسه، حين أعوزته الكلمات لتسمية ما كان يراه أمامه في عظمتها وضخامته وهو معلق بين السّماء والأرض: «إنّها الكباري!!»، وقال له الهاجس: «إنّك ترى العتبة.» وصار الطّيف الآن واضحا أمامه وضوح الشّمس في رابعة النّهار... ولكن ما هذا الذي يلبسه؟ ما هذه القيافة الغريبة عنه؟ هذه الأشياء؟ وبدا له أنّه يتخلّص من ملابسه القديمة: الشّملة والقفطان والعمامة الصّغيرة وسراويله الفضفاضة، وأنّه يلبس مثل الذي كان يراه أمامه، فهل هو هو، أم هو آخر؟ ونبع الصّوت الذي كان زاره في مرّات سابقة، ورآه بياضا خالسا في المسجد الجامع، ثمّ رآه هالة من نور في غرفته: «الآن ترى الأعيان عيانا؛ فلا معمّيات؛ والآن أنت أنت، وأنت آخر؛ وزمانك زمان غيرك، وزمان غيرك زمانك، وأسراره أسرارك؛ ومواجيده... وهو في سفره أنت، وأنت في سفره هو؛ فلا فرق؛ وما سيراه ستراه، وما ستراه كان هو رآه؛ أحماله ستحملها بعد أن حملها وناء بها؛ وقد خرج، وكنت خرجت أنت؛ ولكن كان منذ البدء مقدّرا لك أن تراه وهو يرى، أن تراه وهو ينوء بأثقاله؛ وتشطح به المسافات، وتخفظه الأقدار إلى آل، وترفعه إلى آل...» وقال الصّوت الذي نبع فجأة: «قال الرّائي: وخرج من القاهرة، وهي أحبّ أرض الله إليه، وترك فيها زوجة وأولادا، وقد نازعته نفسه إلى البقاء، ولكن ما كان كان، ولو خير لبقني، لأثر المكوث حيث هو، في أرض أجداده؛ ما يعزّيه أنّ أخاه عبد المنعم كان هناك، وأنّه سيقوم بأمر

الجميع من بعده: وكان يتساءل، مرارا وتكرارا: «لماذا أخرج؟» فيجيبه صوت، بداخله أو من خارج وعيه: «لا تسأل... لا تسأل... تسأل...» وكان ذلك صوتا لا يراجع، ولا ينتظر اعتراضا: وقال له: «سر... قدماك ستحملك إلى حيث شئت لك أقدارك أن تذهب...» واختفى فجأة كل شيء، وكأن من كان يريد له أن يرى ما رأى إنما كان همه أن يريه الأشياء واحدة بعد أخرى، وفي أوقات، وقت بعد وقت، فربما لورأى دفعة واحدة لناء بالحمل، أو لربما التاث عقله، أو أنكر نفسه: قال له الصوت، وهو يغادر: «لا تحسبن الأسرار هيئته، ولا الجروح دائما من الممكن احتمالها، وأن تعرف طريقا أمامه طريق، وأمام الطريق طريق آخر، وأمام الطريق الثاني طريق ثالث، وطريق رابع، وخامس، وسادس، وسابع... أن تعرف أن تسبح، في بحر غير البحر، أن تعرف أن تطير في فضاء غير كل فضاء، أن تعرف أن تتجرد، وأن تصير ذاتا بلا صفات، أن تعرف أن تكون في جسدك، وأن لا تحس به... أن تعرف أن تترك نفسك للأصوات، لصوامع الحق، لمن كانوا وسيكونون، وإن لم يكونوا...» كان الأمر أكثر من أن يحتمله فتهالك على حشيته، وأغمض عينيه، وراح يجهد نفسه أن ينسى للحظات كل ما سمعه ورأه، فما عتم أن أحسن كأنه لم يسمع شيئا ولم ير شيئا، ووجد داخله نشاطا كان يدعوه، بكل قوة، ورغم ما عنه، إلى القيام لكتبه ودفاتره... كان «اللاويون» ينتظره هذه المرة، ففتحه، والقلم بين إصبعيه السبابة والإبهام، يديره في حركة من يريد أن يطرد شيئا مزعجا من أمام عينيه، وفي نفس الوقت يريد أن يحفز نفسه ويقنعها أنه قادم على القيام بعمل جليل. كان يمر على الإصحاحات إصحاحا بعد إصحاح، دون أن يكتب شيئا في الحاشية، إلى أن بلغ الإصحاح التاسع، فقرأه كاملا: «وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ دَعَا مُوسَى هَارُونَ وَبَنِيهِ وَشِيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُارُونَ: «خُذْ لَكَ عَجَلًا ابْنُ بَقْرٍ لِنَذِيحَةِ خَطِيئَةٍ، وَكَبْشًا مُحْرَقَةً صَحِيحَيْنِ، وَقَدِّمَهُمَا أَمَامَ الرَّبِّ. وَكَلَّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: خُذُوا تَيْسًا

مِنَ الْمُعْزِ لَذِيْبِحَةِ خَطِيئَةٍ، وَعِجْلاً وَخَرَوْفًا حَوْلِيِّنِ صَحِيْحِيْنِ لِمُحْرَقَةٍ،  
 ٤ وَثَوْرًا وَكَبْشًا لَذِيْبِحَةِ سَلَامَةٍ لِلذَّبْحِ أَمَامَ الرَّبِّ، وَتَقْدِيْمَةً مَلْتُوْتَةً بَزِيْتٍ.  
 لِأَنَّ الرَّبَّ الْيَوْمَ يَتَرَاءَى لَكُمْ». ٥ فَأَخَذُوا مَا أَمَر بِهِ مُوسَى إِلَى قُدَامِ خِيْمَةِ  
 الْاجْتِمَاعِ. وَتَقَدَّمَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ وَوَقَفُوا أَمَامَ الرَّبِّ. ٦ فَقَالَ مُوسَى: «هَذَا  
 مَا أَمَر بِهِ الرَّبُّ. تَعْمَلُونَهُ فَيَتَرَاءَى لَكُمْ مَجْدُ الرَّبِّ». ٧ ثُمَّ قَالَ مُوسَى  
 لِهَارُونَ: «تَقَدَّمْ إِلَى الْمَذْبُوحِ وَعَمَلْ ذَبِيْحَةَ خَطِيئِكَ وَمُحْرَقَتِكَ، وَكَفِّرْ  
 عَن نَفْسِكَ وَعَنِ الشَّعْبِ. وَعَمَلْ قُرْبَانَ الشَّعْبِ وَكَفِّرْ عَنْهُمْ كَمَا أَمَرَ  
 الرَّبُّ». ٨ فَتَقَدَّمَ هَارُونَ إِلَى الْمَذْبُوحِ وَذَبَحَ عِجْلَ الْخَطِيئَةِ الَّذِي لَهُ. ٩ وَوَقَدَّمَ  
 بَنُو هَارُونَ إِلَيْهِ الدَّمَ، فَغَمَسَ إصْبَعَهُ فِي الدَّمِ وَجَعَلَ عَلَى قُرُونِ الْمَذْبُوحِ،  
 ثُمَّ صَبَّ الدَّمَ إِلَى أَسْفَلِ الْمَذْبُوحِ. ١٠ وَالشَّحْمَ وَالْكُلَيْتَيْنِ وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ مِنْ  
 ذَبِيْحَةِ الْخَطِيئَةِ أَوْقَدَهَا عَلَى الْمَذْبُوحِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى. ١١ وَأَمَّا اللَّحْمُ  
 وَالْجِلْدُ فَأَحْرَقَهُمَا بِنَارِ خَارِجِ الْمُحَلَّةِ.

١٢ ثُمَّ ذَبَحَ الْمُحْرَقَةَ، فَنَاوَلَهُ بَنُو هَارُونَ الدَّمَ، فَرَشَهُ عَلَى الْمَذْبُوحِ  
 مُسْتَدِيرًا. ١٣ ثُمَّ نَاوَلُوهُ الْمُحْرَقَةَ بِقَطْعِهَا وَالرَّأْسَ، فَأَوْقَدَهَا عَلَى الْمَذْبُوحِ.  
 ١٤ وَغَسَلَ الْأَحْشَاءَ وَالْأَكَارِعَ وَأَوْقَدَهَا فَوْقَ الْمُحْرَقَةِ عَلَى الْمَذْبُوحِ. ١٥ ثُمَّ  
 قَدَّمَ قُرْبَانَ الشَّعْبِ، وَأَخَذَ تَبَسُّ الْخَطِيئَةِ الَّذِي لِلشَّعْبِ وَذَبَحَهُ وَعَمَلَهُ  
 لِلْخَطِيئَةِ كَالأَوَّلِ. ١٦ ثُمَّ قَدَّمَ الْمُحْرَقَةَ وَعَمَلَهَا كَالْعَادَةِ. ١٧ ثُمَّ قَدَّمَ التَّقْدِيْمَةَ  
 وَمَلَأَ كَفَّهُ مِنْهَا، وَأَوْقَدَهَا عَلَى الْمَذْبُوحِ، عِدَا مُحْرَقَةِ الصَّبَاحِ. ١٨ ثُمَّ ذَبَحَ  
 الثَّوْرَ وَالْكَبْشَ ذَبِيْحَةَ السَّلَامَةِ الَّتِي لِلشَّعْبِ. وَنَاوَلَهُ بَنُو هَارُونَ الدَّمَ  
 فَرَشَهُ عَلَى الْمَذْبُوحِ مُسْتَدِيرًا. ١٩ وَالشَّحْمَ مِنَ الثَّوْرِ وَمِنَ الْكَبْشِ: الْأَلْيَةَ  
 وَمَا يُعْشِي، وَالْكُلَيْتَيْنِ وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ. ٢٠ وَوَضَعُوا الشَّحْمَ عَلَى الصَّدْرَيْنِ،  
 فَأَوْقَدَ الشَّحْمَ عَلَى الْمَذْبُوحِ. ٢١ وَأَمَّا الصَّدْرَانِ وَالسَّاقُ الَّتِي مَنَى فَرَدَدَهَا  
 هَارُونَ تَرْدِيدًا أَمَامَ الرَّبِّ، كَمَا أَمَرَ مُوسَى.

٢٢ ثُمَّ رَفَعَ هَارُونَ يَدَهُ نَحْوَ الشَّعْبِ وَبَارَكَهُمْ، وَأَنْخَدَرَ مِنْ عَمَلِ ذَبِيْحَةِ  
 الْخَطِيئَةِ وَالْمُحْرَقَةِ وَذَبِيْحَةِ السَّلَامَةِ. ٢٣ وَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى خِيْمَةِ  
 الْاجْتِمَاعِ، ثُمَّ خَرَجَا وَبَارَكَا الشَّعْبَ، فَتَرَاءَى مَجْدُ الرَّبِّ لِكُلِّ الشَّعْبِ

٢٤ وَخَرَجَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ وَأَحْرَقَتْ عَلَى الْمَذْبَحِ الْمُحْرَقَةَ وَالشَّحْمَ. فَرَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ وَهَتَفُوا وَسَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ.» وكتب على الحاشية: «وهناك تفصيل دقيق فيما كان يجب على بني إسرائيل أن يفعلوه، وأن يلتزموا به حتى لا يغضبوا الرب؛ وكان الرب قد وضع لهم ما يجب عليهم، لكلِّ حالٍ حالها، فحدّد لهم القرابين التي يجب عليهم أن يقدموها؛ وفي حال الأخطاء أو تعمّد الأخطاء ما كان يجب عليهم القيام به للتكفير عن تلك الخطايا؛ وكانت تلك هي العهود التي بينهم وبين الربّ: أشياء عينية...» وكتب بين معقّفين: «وربّما يرجع ذلك إلى الطّبيعة التي جبل عليها الله تعالى بني إسرائيل؛ وهي طبيعة من لا يصدّق شيئا حتى يراه؛ وهي من جملة عيوب لهم ذكرها الله تعالى لنا في القرءان الكريم، سيّما في سورة البقرة التي كانت في جزء كبير منها ذكرا لقصص بني إسرائيل وما وقع لموسى عليه السّلام معهم؛ فنقرأ، بعد أعود بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: «وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)»

ومثل ذلك غير يسير في غير موضع من القرءان؛ ولذلك كان تعامل الله معهم بما يرونها؛ ومن مثل ذلك أيضا ما ورد عن البقرة التي أمر الله موسى أن يأمرهم بذبحها، فلم يفعلوا حتى جادلوه في ماهيتها ولونها وأخيرا في تحديدها تحديدا لم يبق لهم معه سوى أن يرضخوا وينفذوا؛ ولا غرو بعد ذلك في أتهم كانوا لا يستنكفون أن يضيفوا على الله صفات البشر ويتعاملون معه كأنه واحد من جملة ما خلق؛ ويدخل فيه

والعياذ بالله . الكثير من الكفر والشرك.» وأغلق المعقّفين؛ ثم كتب من جديد على الحاشية: «وإنّما كانت تلك عهد لمن أراد أن يعاهدكم الله، وحتّى تكون شاهدا عليهم، وحتّى يعلم من يعلم أنّه لا مجال له لمخالفتها، فإذا خالفها كان عليه أن يأتي بما أمره الله أن يأتي به حتّى يتحلّل من مخالفته... وهذا الأمر من أمور العيان، قد كان مثيل له من مبدأ تاريخ البشر، حيث يعلمنا الحقّ تعالى أنّه حينما قتل قابيل هابيل أرسل الله إليه، كي يريه ما يجب عليه فعله، ذينك الغرايين فكان منهما ما كان منهما حيث اقتتلا وقتل أحدهما الآخر فحفر له حفرة واره فيها. وفي «اللاويون» إنّما ينقل لنا الله أخبار بني إسرائيل مع موسى وهارون عليهما السلام، وهما من نسل لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام...» ثمّ وهو يضع القلم على النضد بجانبه، كان يخيل إليه أنّه يرى أشياء، وأنّ ما كان يقرأه كان يتمثّل له عيانا أمامه، وكان يرى الخيمة، ويرى المذبح والتّقدّمات التي كانت تقدّم، وكان يرى الكهنة، وأبناء هارون، وأبناء موسى، وكان يرى الشعب الذي اختاره الله في ذلك الزّمان لرسالته، وهم يحملون أبقارهم وكباشهم، ومعزاهم وتيوسهم، وزيتهم ودقيقهم، وهم يترنّمون بترانيمهم... وكان يرى الدّم الذي يسفح؛ وكان يشمّ رائحة الشّواء؛ وكان يرى الدّخان الذي كان يتعالى ويتعالى ثمّ يكون حلقات حتّى يبلغ عنان السّماء؛ واختلط المشهد الذي يراه بأخر قديم، قديم جدّا موغل في القدم؛ رأى قابيل يجادل أخاه هابيل، ويأبى عليه أن تكون توأمته لأخيه متحجّجا أنّ توأمته هي أجمل من توامة أخيه هابيل؛ ورآه وهو يلجّ في المعاندة والتكبر؛ وسمع كأنّ صوتا يخاطبهما ويقول: «إذا كنت تأبى عليه، وتصرّ، فقدّمنا قربانا إلى الله، فمن قبل الله قربانه كان هو المحقّ، ومن لم يقبل قربانه فذلك دليل على أنّه على غير الصّواب.» ثمّ يرى الأخوين وهما يقدّمان إلى الله؛ وقد كان هابيل صاحب ضرع فقدّم أجود ما لديه، وكان قابيل صاحب زرع فاختر حزمة سنبل وجد فيها سنبل

كبيرة فأخذها وفركها ببديه ثم أكلها؛ وجاءت نار من السماء وأكلت  
تقدمة هابيل وتركت مقدمة قابيل؛ وعلم هابيل أن أخاه لا شك قاتله  
ففر منه في شعاف الجبال، وتوارى عن عينيه أياما، حتى لقيه في أحد  
الأيام وهو نائم، فشدخ رأسه بصخرة فمات؛ وكان من أمر قابيل بعد  
ذلك ما كان، فعاش طريدا شريدا إلى أن قتله بعد ذلك رجل من نسله  
كان أعمى؛ وتتواتر الصّور أمام عينيه، ويرى كأنه يراه، كأنه يرى نفسه  
في ذلك الجمع، يرى نفسه وقد تماهى مع بدر النور الذي كان خرج  
من محلّته والنّاصية التي كان يقوم فيها بيته، ويراه وهو يغادر القاهرة  
صبا، ويتماهى في هذا الجمع، تتأطر صورته في هذا المشهد القديم؛  
ويراهما، يرى نفسه ومع من تماهى معه يأخذان عهدا على نفسيهما،  
هو غير العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وإنّما هو عهد المحبّة،  
العهد الذي يأخذه الشيوخ على مريديهم؛ ويسمع على البعد، ربّما في  
زاوية قصية من اللامكان، أو في حدود لامحدّدة بين السماء والأرض،  
أو في صومعة من الصّوامع، أصواتا لم يسمع أجمل منها توقيعا ولا  
أحلى نغمة وهي تردّد: «مدد... مدد...» وتتوالى الأصوات؛ ثمّ تزداد بعد  
ذلك حدّة وشدّة وهي تترافق مع أصوات الدّفوف... ويرى بعد ذلك  
حلقة الذّكر وهي تتسع وتتسع، ويرى المريدين وهم يدورون ويدورون.  
يقول: «ألا يتعبون؟ ألا يصيبهم الإغماء من هذا الدّوران المتواصل؟»  
وتتالى المشاهد، مشاهد تتلوها مشاهد أخرى: وفي صحراء، أو في بادية  
من بوادي العرب، كانت تترأى له خيمة على البعد، ولكن ما من ديار  
ولا نافخ نار؛ وبدت له الدّنيا تضيء بنور شمس ساطعة، وعلى الرّغم  
من شدّة حرارتها لم يكن هناك ما يوحي أنّ عناصر الطّبيعة في ذلك  
المهमे القفر كانت متأثرة لذلك؛ ثمّ بدأت الخيمة تتضح شيئا فشيئا،  
وما بداخلها يسفر عن امرأة، رغم سنيها الكثيرة التي كانت تحملها على  
كاهلها، كانت تبدو عليها سكينه ووقار، وكانت تلوح على وجهها آثار  
وسامة كانت تشعّ نورا وضياء؛ ورأهما، هما هما، رأى نفسه وصنوه

---

وهما يتقدّمان من تلك الخيمة، ودخلا. فاستقبلتهما المرأة بابتسامة  
بادية وكأنتها تعرفهما منذ قديم الزّمان. قالت:

-مرحبا بالقامين، وهما واحد؛ مرحبا بالبدر، الذي كان منذ الأزل.  
وقد بدا له، بدا لهما، أن يسأل، أن يسألا؛ ثمّ أحجما، ثمّ أحجم.  
كانت يداها تشيران إلى متكآت بسيطة بجانبها، ولكتها كانت أيضا  
مريحة؛ ومن لاشيء، من العدم الذي لا يعلم أهو عدم أم وجود، ظهر  
طبق من القشّ عليه تميرات وختارة لبن في إناء من خزف؛ وأشارت مرّة  
أخرى، وقالت:  
- كل، كلا، بسم الله.

كانت تميرات لم ير، لم يريا، مثلها في حياته، حياتهما؛ وكانت  
ختارة اللّبن ختارة ولم تكن ختارة؛ كانت كأنتها غسل مصفى؛ وطففت  
على ذاكرته، وذاكرة صنوه. الآيات من سورة «محمّد» صلى الله عليه  
وسلم: «مثل الجنّة التي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن. وأنهار  
من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من خمر لذّة للشاربين، وأنهار من غسل  
مصفى، ولهم فيها من كلّ الثّمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في  
النّار وسقوا ماء حميما فقطّع أمعاءهم.» وبدا له أن يسأل، وقد اتّحدا  
الآن، وصارا واحدا بلا مرء:  
- من أنت يا امة الله؟

اتّجهت إليه بكلّ حبّ، بكلّ عطفها، بكلّ شوقها، وبكلّ نور وجهها،  
وبكلّ وجدها الخفيّ الذي لا يرى. قالت، مجيبة على سؤال بسؤال:  
- ألم تعرفني؟! وأنا التي لم أغب عن الذي أحبّني وأحببتّه؛ ولم  
أغب عن الذين أحبّوني وأحببتهم؛ وأنا كنت وقد كنت وما كنت، فلمّا  
لم أكن كنت... أنا العدوّة.

ضرب بيده ضربة خفيفة على جيّته كمن تذكّر فجأة. أه، العدوّة!  
لكم شاخنت! لكم هرمت! ولكن يظلّ فيها جمال خفيّ لا يعلم مصدره.  
رابعة الصّبا... رابعة الجمال؛ ورابعة الزّهو والطّرب في مرابع بني

---

عدوة... الجميلة اللعوب التي اختارها الله لقربه... رابعة... يا رابعة...  
رابعة ثوبان بن إبراهيم ذي النون المصري... قال:

- حدّثني .يرحمك الله .كيف انتهى بك المطاف إلى هنا؟!

قالت:

- إن لي صحبة في الفلاة.

قال:

- وأنت وحدك. إنّي لا أرى أحدا.

قالت:

- ليس كلّ ما لا يرى لا يرى... عليك أن تحدّ عينيك لترى.

وحدّ عينيه فلم ير. قال:

- لم أر شيئا.

قالت:

- لترى لا بدّ أن يكون قلبك معه: أن تكون له كلّك.

قال سائلا:

- أنت المنشدة في الزّمان الأوّل؟

قالت سائلة أيضا:

- فماذا قلت؟

قال، والأسئلة حين تبدأ لا تتوقّف؛ وكأنّها تأبى وهي تسأل أن تكون

لها أجوبة، فتتواصل أسئلة بلا توقّف؛ وكأنّ السّؤال قد تحوّل نفسه

إلى إجابة:

- أنت القائلة:

أحبك حبين حبّ الهوى      وحبّا لأنّك أهل لذاكا

فأمّا الذي هو حبّ الهوى      فشغلي بحبّك عمّن سواكا

وكانّها ذكرت زمانها الأوّل، فانحدرت دموعها على خديها

الخاسفين، فتركها تنزل بهدوء وصمت؛ وشعر وهو يراها كأنّ قلبها بدأ

---

يخفق بين جنبات صدرها ويريد أن ينطلق إلى الفضاء الرّحيب الذي ليس له حدود حيث يتّصل بعالم الكمالات ويطلّق عالم الضّلالات. قالت تكمل الأبيات بصوتها الأبيح اللّذيذ الذي لم تفارقه عدوبته، عدوبة المغنيّة اللّعوب التي كانت حين تغني في الرّمان الأوّل تأسر قلوب السّكّارى والحيارى وندمان الرّاح قبل أن ينبج عليهم الصّباح:

وأما الذي أنت أهل له      فشغلي بحبك عمّن سواكا  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي      ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وحين نظر إليها وهي تنشد رأى كلّ شيء، رآها في خلواتها، ومن حولها الأبواب مغلقة، والأنوار مطفأة، ومصاريع الشّبابيك مغلقة، ولا أنيس لها إلا اللّيل، ومرافقة المحبوب الذي لا يدع مرافقة أحبّائه؛ وفي اللّيل تحلو المناجاة، مناجاة الخلّ لخلّه، والحبيب لمحبوبه، والعاشق لمعشوقه، وتنتفح أبواب السّماء، فتتغامز النّجوم، وتنجلي صفحة السّماء وقد كانت تغطّيها سحابيات ملحاح، ويفصح القمر عن طلّعه المهيّبة؛ وعلى رغم التعب، على رغم قهر القاهرين وانتقام الفانين، تأتي لذائد الرّوح فتحي موات القلوب؛ وتنطلق الأصوات، من قرار لا يعلم له قرار، وتصدح موسيقى الأعماق، لتتحدّ البدايات والنّهائيات، وترجع الفروع إلى الأصول. سمعها وهي تناجي:

«إلهي أنارت النّجوم، ونامت العيون، وغلّقت الملوك أبوابها، وخلا كلّ حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك... إلهي هذا اللّيل قد أدبر، وهذا النّهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت منّي ليلتي فأهنأ، أم رددتها عليّ فأعزّي، فوعزّتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني، وعزّتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك.» وفي زمان غير زمان العدويّة، في زمن غير الذي كان لثوبان بن إبراهيم، كانت هناك مواجيد أخرى، وكان هناك أحباب وأحباب، وكانت هناك أناشيد غير

الأناشيد؛ وكان المنشدون كذلك كثيراً؛ فقد كان الحبّ لا يني، والعشق في كلّ القلوب، والقلوب به صادحة؛ وعلى البعد، في المهامه التي كانت تنجلي فيها الرّوح، كانت هناك أصوات تتردّد، وتغيير يسمع، وكان هناك شيوخ ومريدون، وكانت الحلقات التي تبدأ مساءً ولا تنتهي حتّى الصّباح: «رقصا رقصا يا منتجعا للبلوى، رقصا في الشّكوى، ولك البشري، رقصا رقصا حين الخوف السّريّ يمزّق جلدته، ويبدّل ثوب الخشية بالنّجوى... لا تسأل بعد الآن وبعثر أسرار الأحكام وراءك. لا تسأل ما ولى وتدّى، فالفيض العلويّ بدايته الصّمت، أوجاع تحفل في التّيه... شوك في القدمين، وحيث يمزّق جلدك يشفيك... لا تسأل ما ولى عن سرّ الأسرار، فبالفاظ النّاسوت، كلام الجفلى، لن تمتدّ إلى الضّفة، لن تشرب من نهر الذّكري، لن تسطع في شوق الأشواق...» وتتالى الأصوات، لا تهدأ، ولا يقرّ لها قرار، وتنعدم المسافات، تمّحي الأزمان زمنا بعد زمن، ولا يظلّ غير السّرمد، غير الازل والأبد، والحبّ الذي ما له حدود: «في المدى رونق واحتجاب، وشيش ببوابة القلب، عشق المرّيدين، لا شيء يبقى فيفنى، ولا شيء يفنى ليبقى، هو الله ذات التّجلى، هو الله نفس التّخلى، ولا شيء غير الحروف، ولا شيء غير العزوف، ولا شيء مثل انكفاء الصّفات... دليلى بماذا أجيبك حين السّؤال، ولا طاقة للحروف لتعرب عمّا يخالجي: منصفي، يا انكفائي على كلّ ذاتي، بماذا أنافح عن رهبتي وانشداهي، وكيف أقول هو الحرف ظلّي ولا ظلّ لي، كيف يشتاقي الصّمت أشتاقه. ننفر الآن من بعضنا، نشتكى، نتعاب حدّ التّباغض والانشطار، وبعد التّنافر يصفو الوصال، يخاطبنا الله تترى: تعال، تخفّف من الصّمت والإثم، وازرع بكقيك كلّ الضّجيج وكلّ السّكون، تمدّد ترى ما أرى، وترى ما أرى، لا يرى...» ومن عمق الأعماق يأتي صوت آخر، فينسيه إلى حين العدويّة وأشواقها، ينسيه ثوبان ولدائذه في عذاباته: «الشّقوة غبّ اللّهفة، يا مولاي، أنوء بها، أشتاق السّكرة فيها، والخدر الزّابض في شفتين

مدملجتين؛ أتوق إلى الصّمت المسكوب على الكأس، فليت الرّحلة في الرّاح توافي... ليت سليلا من زمن المحنة يبرك حيث الفورة والتّحنان، وبحر الرّغوة يلثم في الشّفتين الشّفتين، ولا عتب بين العشاق المنذورين للنّشوة في النّشوة... الشقوة غبّ اللّهفة، يا مولاي، طريقي الكأس إليها، من أحببت غداة الشّوق، وكلّ الغمر المتجلّي؛ فاقض بأنّ الشقوة أشلاء فيّا، وحنين يدنيني فيك وإليك؛ إلهي، الكأس، وفيض الخمرة، أقسمت أريق الخمرة في الكأس، وأشرب حدّ الشّوق القدسيّ، وأرحل في الرّحلة للمحنة، أعتمد الخوف الصّامت، رؤياك تقرّبي منك، تباعدني من حوض الورد إلى الهلكه... مولاي، فهل ترضى؟! اللهمّ أسألك، اللهمّ بأن ترضى، وتمسّد في قلبي ما القلب هواه، يكون القلب بأحرفك الزّبدية بحرا آخر للشكوى، ومراح... ويكون القلب بأحرفك السّريّة بحرا آخر للنّجوى، وبراح... ويكون الحرف بأعطفك القدسيّة قلبا آخر للصّمت المسكون بطعم الحضرة؛ كالسرّ الحضرة، كالخمر المخبولة في العشق، وللعشق... فالهي تعطف، وتكرم؛ وإلهي أسألك الخفض، وشأو الرّفعة في المحنة والتّجذيف إلى الضّفة... وإلهي، عبيدك يسألك الغفران، ومن ذلّ الرّحمة تبذل في الجنّة كلّ الأسرار... يا ربّ تجلّ وتجلّ؛ يا ربّ دنوت فتدلّ، يا ربّ تسورّ في قلبي جدران اللّهفة... يا ربّ - تعاليت - تجلّ...!!!

تجسّد فيّه	تجسّد فيّ
دعوته فيّ	فجاء إليّ
وجئت إليه	فأوغل فيّ
وصحت إلهي	فقال إليّ
وبحت بما بي	فكان العطية
كان الصّفاء	وكان السّميّ
الذي ضاء قلبي	وكان التّوغلّ

مّيّ إليّ!!!»

كانت رابعة تراه ولا تراه: وكانت هي الأخرى مشغولة بما يعتلج في صدرها من المواجيد؛ وذكرت مقامها بالبصرة. ذكرت كيف انتقلت من خفض العيش وأهنته، كيف انتقلت من حياة القصور ومن حولها الجوّاري والغلمان. والخدم والحشم، ذكرت كيف انتقلت من كلّ ذلك إلى شظف العيش، إلى خشونتته، إلى الجوع والمسغبة؛ ومع ذلك كانت تشعر أنّها ليست وحيدة، أنّها لا تملك إرادة على نفسها، وأنّ هناك قوّة خفيّة توجّهها إلى الحقّ والاكتفاء؛ وقالت لكم يتعب الإنسان نفسه ويجري وراء ما ليس من ورائه طائل، والخير فيما خلفه وراءه. قالت إنّ الحياة مظهر خداع، وإنّ على الذي يريد أن يعرف أن ينظر داخل ذاته، أن يتأمّل أعماقه الزاكدة كي يكتشف الرضا... كي يكتشف حبّ المحييين؛ وذكرت لقاءها إماما من أئمّة البصرة وأحد أعلامها في علم الحديث، سفيان الثوريّ، وسؤاله إيّاها: «صفي لي درجة إيمانك واعتقادك باللّه جلّ وعلا، فقالت رابعة: إنّني لا أعبد اللّه شوقاً إلى الجنّة، ولا خوفاً من جهنّم، وإنّما أعبده لكمال شوقي إليه، ولأداء شرائط العبوديّة.» وكانت رابعة وطاجيك كأنّهما يتخاطران، وكأنّ أفكارهما تتواردان في نفس اللّحظة؛ ورغم أنّ أحدهما لم يكن يعلم بما يدور في خلد الآخر، إلّا أنّهما مع ذلك كانا مشدودين إلى بعضهما بسبب وثيق؛ وكانا كأنّما إذا أنهت رابعة تغييرا أو أحد مواجيدها انطلق طاجيك يصدح بأحد ما يجيش في صدره من عشق مكتوم: «ما زالت كلّ قباب الرّبّ مواربة،/في القلب قباب الرّبّ مواربة،/والقلب خلاء،/والقلب خليل الخللانّ المجدودين.../القلب خلوت إليه،/فدعاني،/خلل بالخوف العليّ مراقي الشّوق،/غليلي ولهاتي.../ناداني من بدء الرّحلة،/عمد فيّ خيول الخلوّة والنّجوى.../لم أدربأيّ رحيق مسدني/لم أدربأيّ عبير ختمني؟!/والخمر تحاصرني!!/بغداد/وصومعة الشّيخ الشّبلي،/وأصوات التّرديد إلى الفجر،/ومخاوف من ماتوا.../مروا من بين أتون السّدرة والسّتر،/والصّوت غريب،/والصّوت حبيب

حدّ الفتنة والسحر.../بغداد/وصومعة الشَّيخ السَّبلي/وهيمنة الصَّوْفِيِّين/والقلب خلاء،/والقلب خليل الخلانّ المجدودين.../القلب خلوت إليه،/فدعاني:-/ أن صاح ابذل خديك، تعال:/تخلّل صوتك بالترديد،/وخَوْضٌ في اللَّجَّة حدّ التَّخْلِيل الثَّاني،/واسكب في النَّفس القيوم جذور الرِّحلة/والمحنة.../والقلب خلاء،/والقلب خليل الخلانّ المجدودين.../القلب خلوت إليه،/فدعاني:-/ أن صاح (الله)/وكلّ الصَّحبة والأخيار،/على الشَّطّ الثَّاني من المحنة،/فادخل،/خَوْضٌ في اللَّجَّة حدّ التَّخْلِيل الثَّالث،/وادع الحضرة أن تشتقّ من الإسم العلويّ/كلّ مفاتيح الكشف/وتغرقني حدّ الذَّوبان!!»

أه، لكم تخبّي البادية من الأسرار!! لكم تطرح من الحبّ في الأرض اليباب: وينبت الحبّ مع ذلك!! ليس الحبّ في حاجة إلى شمس أو تربة أو هواء؛ فالحبّ هو أعظم من حبّ الأرض، ويطرحة القلب، يغذّيه من حشاشته فيكبر شيئا فشيئا، ويسمق بقامته ليخترق حصون البدن إلى آفاق ما لها حدود!! وكانت رابعة تغيّ، أو رابعة كانت تهينم أو تترنم، أو تعيد القول مرّات ومرّات، وهي لا تدري أكانت تتذكّر، أم ترى بعيني قلبها أشياء ما زال يحتجها باطن الغيب؛ وكان هو ينظر إليها وينظر إلى نفسه، فيرى أنّه على الرّغم من قربهما فقد كان كلّ منهما يسبح في عالمه الخاصّ؛ وكانت تتراقص داخلهما الحروف والكلمات، وكلّ القصائد التي لم تقل في الحبّ، والعشق، والهيام، والترانيم، والمواجيد، والتّعبير، وما قيل في التّصوّف، في كلّ زمان ومكان... وذكر شيئا قيل له، أو قاله هو نفسه، ودوّنه، ليس على حاشية من الحواشي كما كان يفعل، ولكن على لفافة، أو طرف ورقة، أو شيء آخر لم يعد يذكره: رنا إلى نقطة غير مرئيّة كأنّه يروم أن يستعيد ما غاب عن ذهنه... يروم أن يعرف من جديد، فقد كانت الشّجون تستدعي الشّجون؛ وهذه الصَّحبة الجديدة كانت عزيزة عليه، ولم يرد أن يدعها تمرّهدرا؛ فمن يعلم، لعلّه يغمض عينيه ويتطلّع إلى حيث كانت العدوّة فلا يراها...

---

يريد أن يعرف منها كل شيء... أولى المقامات: توبتها، التي سطرتها بدموعها، ببكائها وتضرعها، ووقوفها أمام يدي الحضرة مجردة من كل رغباتها ونزوعها، وكرهها وبغضها... وكانت لهاته تلهج بما في قلبه: وكان كأنما يبكي، كأن أشياء بداخله هي التي كانت تبكي، كأن صوتاً أو أصواتاً في أعماقه تردّد مجتمعة في حرقة، في لوعة، في صباغة: «دلّني على السبيل إلى سبيلك؛ وقدني من ضيقي إلى سعتك، وجلّ غشاوة عن عينيّ قد تكاثفت عليها أوظار الظنون... إلهي، أنت مبتدأ كل شيء، وأنت الحبّ الذي كان به الكون، وأنت الرحمة التي صيغت منها قلوب المحيّين، اجعل قلبي لا ينشغل بسواك، وقدني من عمى بصري إلى بصيرة نورك، واجعل لي نصيباً من حياض عفوك ورحمتك...».

وكان ما بداخله يتجاوب مع كلمات أخرى كانت تسمع خارج دائرة وعيه، كانت ترددها العدويّة، وهي ترنو إليه في حنان ما عليه من مزيد:

راحتي يا إخوتي في خلوتي  
وحبيبي دائماً في حضرتي  
لم أجد لي عن هـواه عوضاً  
وهـواه في البرايا محنتي  
حيثما كنت أشاهد حسنه  
فهـو محرابي إليه قبلتي  
إن أمت وجدا وماتمّ رضا  
واعناني في السورى وشقوتي  
يا طبيب القلب يا كلّ المـننى  
جد بوصل منك يشفي مهجتي  
يا سرورى وحياتي دائماً  
نشأتى منك وأيضاً نشوتي  
قد هجرت الخلق جميعاً أرتجي  
منك وصلاً فهل أقضى أمنيتي

---

كان ضيق الغرفة يتّسع، وهو موثق بين ثناياها؛ ومن أمكنة خفية لا يدري كيف كانت تنبع، ومن كان يجلبها، كانت تتوارد عليه الأحداث والذكريات كأنما هي الكشف؛ وعلى الرغم من قناعته أنه في مكانه لا يريم، وأنّ الزّمان الذي هو موارد بين حدوده هو زمان الفنانين، وأن لا أحد من الخلق الذين خلقهم الله تعالى بدءاً من آدم عليه السّلام وإلى يوم النّاس هذا لم تسعفه الأقدار بالسّفر في حدود الأزمنة إلّا ما كان من أمر قلة قليلة من عباده كان قد جعلهم عبدة لغيرهم وأراد أن يحقّق بهم معجزات لمن أراد لهم الكرامة أو أراد لهم النّدامة؛ لم يكن أحد تسمّى له أن يتجاوز محدودية المسافات، ولا أن يخترق سلطة السّاعات؛ وما هو يرى نفسه الآن، على رغم قصوره، تتجلى أمامه المعمّيات، ويرى رأي العين أشياء ليست فقط متواربة في المكان، ولكن متباعدة أيضاً في الزّمان؛ وهو لا يتحوّل، لا يرحل، لا يسافر، وإنّما هو مقيم، وبينه وبين العدوّة التي كانت قضت، ما شاء الله من السّنين... كان اللّيل قد أسدل سجوفه في الخارج، ولم يعد هناك مجال لرؤية الأشياء في غرفته؛ فتحسّس طريقه إلى موضع شمعات كان يحتفظ بها في جراب له في زاوية ما، فأخرج شمعتين أضواءهما ووضعهما على النّضد؛ وترث قليلاً ريثما طرد آخر الصّور التي كانت تهوم في ذاكرته الكليّة، وتناول كتاب الأمم والرّسل، وقد استبدّ به هاجس أن يقرأ بعض ما رواه الطّبريّ عن الزّمن... لم يكن ينتظر شيئاً كبيراً، على كلّ حال، وما قاله الطّبريّ هو ما تناقلته الألسن عن الزّمن الفيزيقي الذي لا يتغيّر، والذي تقاس به حياة الخلق من عباد الله؛ ورغم أنّه كان في حاجة إلى شيء آخر، إلى زمن التّصوّف والصّوفيّة، الزّمن الذي يتجاوز كلّ الأزمنة، ويتناول على كلّ حساب من حسابات الدّنيا، إلّا أنّ نفسه كانت تنازعه إلى بعض رياضة يذهب بها كلل عقله إلى حين... وفي زمن من الأزمنة، سمع نتفا من حكاية، لم يسمعها من صاحبها، ولكن رواها له أحد أبنائه؛ وقد حدثت سنة كذا في مكان كذا، حيث كان الأب ما

---

يزال غلاما يتدرّج في مدارج العرفان في زاوية أحد الصّالحين الواصلين؛ وكان الشّيخ دائم الحبّ والمودّة للغلام، وكان الغلام دائم المشاكسة لشيخه، وقد كانت له دوّال عليه ليتمه وقلة حيلته، ولكلف الشّيخ باليتامى والمنقطعين، وانضاف إلى ذلك أنّ الغلام كان يمتّ إلى الشّيخ بسبب وثيق وقرابة قريبة. وقد لاحظ الغلام أنّه في أوقات بعينها حين كان يحمل ماء الوضوء إلى شيخه في غرفته لم يكن يجده هناك؛ وقد سبق للشّيخ أن أنذره أن لا يدخل غرفته حتّى يستأذن؛ إلى أن كان في يوم من الأيام، وكان ذلك يوم ثلاثاء، ضرب الغلام صفحا عن تحذير شيخه ودخل الغرفة دون استئذان، فرأى شيخه معلقا بين أرض الغرفة وسقفها وهو يستعدّ للطيران... كان الشّيخ ميالا إلى معاتبته والقسوة عليه قليلا في الكلام إلاّ أنّه أحجم لعلّه لم يكن يعلمها الغلام آنذاك؛ وقد سمع بعد ذلك من آخرين (ولم يخبره شيخه أبدا بذلك) أنّه كان على موعد مع زورات إلى ديون الحضرة حيث كان يجتمع أقطاب الشيوخ من كلّ أرض من أرض المسلمين فيتذاكرون ويغفرون ويلقون بمواجيدهم على أعتاب صاحب الحضرة!!... أخذ الكتاب بين يديه، وقرأ: «القول في الزّمان ما هو: قال أبو جعفر فالزّمان هو ساعات اللّيل والنهار وقد يقال ذلك للطّويل من المدّة والقصير منها والعرب تقول أتيتك زمان الحجّاج أمير وزمن الحجّاج أمير تعني به إذ الحجّاج أمير وتقول أتيتك زمان الصّرام وزمن الصّرام تعني به وقت الصّرام ويقولون أيضا أتيتك أزمان الحجّاج أمير فيجمعون الزّمان يريدون بذلك أن يجعلوا كلّ وقت من أوقات إمارته زمانا من الأزمنة كما قال الرّاجز... جاء الشّتاء وقميصي أخلاق ... شراذم يضحك منه التّواق ... فجعل القميص أخلاقا يريد بذلك وصف كلّ قطعة منه بالإخلاق كما يقولون أرض سباسب ونحو ذلك ومن قولهم للزّمان زمن قول أعشى بني قيس بن ثعلبة:... وكنت امرأ زمانا بالعراق ... عفيف المناخ طويل التّعن ... يريد بقوله زمانا زمانا فالزّمان اسم لما ذكرت من

---

ساعات الليل والنهار على ما قد بيّنت ووصفت. « كان النوم يتسرّب إلى عينيه، والوهن يتسلّل إلى جسده المتعب، فيشعر حيال ذلك كأنّ أحمالاً ألقيت عليه دفعة واحدة وأنّه على وشك السقوط في وهدة ما لها قرار؛ وفي المسافة الفاصلة بين مغادرته لآخر خيط من خيوط اليقظة ولوجه إلى عالم الأحلام التهيّؤات، كانت تنتظره العدويّة على غير مبعده وهي تمدّ إليه يدها، وقد ابتسمت ابتسامة ملأت كلّ وجهها الذي ما عاد مغضّناً، وعاود وجهها رواؤه وعادت صبيّة كما كانت، في ملابسها البيض، وقد نبت لها جناحان وهي تستعدّ للطيران صوب القبّة.

قالت:

- تعال!

قال:

- إلى أين؟

قالت:

- ألا تعلم بعد؟!

قال:

- أرشديني!

قالت:

- أنصت إلى قلبك.

قال:

- لقد أتعبني الإنصات إليه، وما سمعت شيئاً.

قالت:

- حاول ثانية.

ثمّ أضافت:

- تعال.

فوجد نفسه يترك العنان لأشواقه، ويتخفّف من كلّ الأثقال التي

---

---

كانت تكبّله: وفي داخله كان يتحرك شيء آخر، روح أخرى كانت تنازعه، كانت تلتبس به، ولا تترك له مجالاً لأن يغادر من دونها... وكان هو هو، بدر النور، وقد صاروا واحداً بلا مرأى... وحينما نظرنا حية العدوّة ثانية كان يراها تنتظم في سرب من الحمام التي كانت قد اخترقت السحب والحجب ويممت شطر النور الذي ليس بعده حدود...!!

قال: «وقلت في نفسي، في يوم من أيام الصيف، وقد ضاقت بي غرفتي، واشتدَّت عليَّ الحرارة حتَّى لكأني أشعر برغبة في الخروج من جلدي: «إلى متى، يا طاجيك بن لامار، تريد أن تكون نكرة من النكرات، وأنت الذي درست العلوم ومساءل الشَّرع على يد جلة من العلماء والفقهاء، وتكتفي بمجرد كتابة لا معنى لها على الحواشي. أرضيت، من دهرك، بأن تكون حوشيًا بلا معنى ولا قيمة؟ وهب أنّ المنتفعين بهذه الحواشي سيكونون من الكثرة بحيث لا يمكنك إحصاؤهم، فماذا ستجني أنت؟! قل. ستجني الثناء؛ ولكن بئس الثناء الذي سيجمك به النَّاس: «نعم الحوشي أنت!!» وقلت في نفسي: «إني لا أريد أن أكون حوشيًا! وأبي حينما صرف الأموال الطائلة على تعليمي، إنّما كان يريد لي أن أكون علما من الأعلام، أو أن أكون فقيها من الفقهاء الذين يشار لهم بالبنان، والذين لا يمرّ عليهم يوم من الأيام إلّا وتعلو فيهم كعابهم على كعاب غيرهم.» وقلت في نفسي: «اعقلها، يا طاجيك، وتوكل.» وهكذا كان بعد المكابدة والمجاهدة، وسهر الليالي وأنا غارق في التّفكير وتدبّر أمري؛ وقررت بعد الاستخارة أن أكون عالما من العلماء لا يقلّ قيمة عن الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، أو عبد الله بن المقفّع، أو عبد الحميد الكاتب، ومن لفّ لفهم من الكتاب والمشتغلين بالأدب... وأخذت دفترا من دفاتري، وكتبت في رأس الصّفحة:

«بخارى، لثمان ليال خلون من شهر محرّم الحرام، من سنة (...)  
من هجرة الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم... وفي سفر الأعداد .  
والأعداد على ضروب، وليست كلّ الأعداد سواء، فالأعداد عندنا

نحن المسلمين ليست كأعداد اليهود أو النصارى؛ وأعداد المسلمين أنفسهم مختلفة أيضا بين الفرق والنحل وأصحاب المذاهب والأهواء؛ فأهل السنّة يأخذون الأعداد على علائها، وربّما لم يلقوا إليها كبير انتباه لأنّه في نظرهم، كما ذهب ذلك المؤرّخون من أمثال أبي جعفر بن جرير الطبريّ، أو الحافظ بن كثير، أو ابن الأثير، وغيرهم، أو كما ذهب إلى ذلك الفلاسفة المتقدّمون من أمثال الكنديّ وبعض فلاسفة النصارى في بلاد النصارى، أو كما ذهب إلى ذلك غيرهم من أرباب الحرف والصنّاع، فإنّ الأعداد هي ما تحسب بها المواقيت؛ والمواقيت كما هو معلوم هي ما تحسب به مدّة معاشات النّاس على الأرض؛ فلا يعلم من عاش إلاّ بميقات، ولا يعلم من مات إلاّ بميقات، ولا يعلم من حجّ، أو اعتمر، أو سافر، أو أقام، إلاّ بميقات، وذلك داخل في الأعداد، الّتي هي أعداد. لا تخرج عن كونها أعدادا؛ وقد ذكرت المواقيت الّتي هي أعداد بحساب الزّمن في القرءان الكريم، حيث يقول الحقّ سبحانه: «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للنّاس والحجّ وليس البرّبان تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتقى واتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلّكم تفلحون.» فيقال للسّائل حين يسأل: «وهب أنّا علمنا من المواقيت ما يهمنّا من أمرها، فما نفع ذلك على الجملة، قيل له إنّه إضافة إلى أنّ الله قد أرشد إلى نفعها، فإنّها الأداة الّتي تتخذ حتّى لا تضيع مصالح النّاس؛ فالمواقيت مضبطة للمهمل من الأمور؛ وهي من الأشياء الّتي سيسأل عنها العبد يوم الحساب؛ حيث سيكون من جملة ما يسأل عنه: «عمره فيما أفناه.» والأشياء الّتي ذكرناها لا يختلف فيها الجمهور؛ وقد ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والتهاية في الجزء الأوّل منه نتفا ممّا هو متعلّق بالخلق في ارتباطه بالميقات والمواقيت، فقال: «وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشكّ في ذلك مسلم أنّ الله خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام كما دلّ عليه القرآن الكريم فاختلفوا في هذه الأيّام أيّ كأيّامنا هذه أو كلّ يوم كألف سنة ممّا

تعدّون على قولين كما بيّنا ذلك في التّفسير وسنتعرّض لإيراده في موضعه واختلفوا هل كان قبل خلق السّموات والأرض شيء مخلوق قبلهما فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنّه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض وقال آخرون بل كان قبل السّموات والأرض مخلوقات أخر لقوله: «وهو الذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيّام وكان عرشه على الماء.» الآية، وفي حديث عمران بن حصين كما سيأتي كان الله ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء وكتب في الذّكر كلّ شيء ثمّ خلق السّموات والأرض وقال الإمام أحمد بن حنبل حدّثنا به حدّثنا حمّاد بن سلمة حدّثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن عمّه أبي رزين لقيط بن عامر العقيليّ أنّه قال: «يا رسول الله أين كان ربّنا قبل أن يخلق السّموات والأرض؟» قال: «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثمّ خلق عرشه على الماء.» ورواه عن يزيد بن هارون عن حمّاد بن سلمة به ولفظه: «أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه؟» وباقية سواء وأخرجه التّرمذيّ عن أحمد بن منيع وابن ماجّة عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمّد بن الصّبّاح ثلاثهم عن يزيد بن هارون وقال التّرمذيّ حسن: واختلف هؤلاء في أيّها خلق أوّلا فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلّها؛ وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزي وغيرهما قال ابن جرير: «وبعد القلم السّحاب الرقيق.» واحتجّوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والتّرمذيّ عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إنّ أوّل ما خلق الله القلم، ثمّ قال له اكتب فجرى في تلك السّاعة بما هو كائن إلى يوم القيامة.» لفظ أحمد وقال التّرمذيّ حسن صحيح غريب والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أنّ العرش مخلوق قبل ذلك وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضّحّاك عن ابن عبّاس كما دلّ على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه حيث قال حدّثني أبو الطّاهر أحمد بن

عمرو بن السرج حدّثنا ابن وهب أخبرني أبو هانيء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «قال سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.» قال: «وعرشه على الماء.» هذا ولو شئنا لأُطلنا؛ والأحاديث في ذلك كثيرة؛ وما يهتَمنا في هذا المقام أنّ أهل السنّة والجماعة. وإن اختلفوا في بعض المسائل اليسيرة، فإنّ قولهم واحد في العدد والميقات. فالأعداد عندهم لا تحمل أيّ أسرار؛ وإن كان أهل النجوم والطّوابع ممّن يحسب عليهم قد ذهب إلى أنّ الأعداد لها ارتباط وثيق بالنجوم، وأنّ مصائر العباد قد تحدّدها تلك الأعداد في علاقتها بالنجوم والأفلاك، وما شاكلها. ثمّ نقول، وبالله التوفيق، إنّ الأعداد والمواقيت، إذا استثنينا أهمّيّتها في علاقاتها بمعاشات العباد، فإنّ لها أهميّة فيما يختصّ بأوقات فراغهم وهجوهم، فإنّ النّفس تكلّ وتملّ، ولا بدّ من الترويح عنها ساعة بعد ساعة، لقول الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما روي عنه في الحديث: «رَوْحوا عن أنفسكم ساعة بعد ساعة فإنّ القلوب إذا كلّت عميت.»

فاذن فإنّ المواقيت أيضا يمكن أن تحسب بها أوقات الفراغات، التي قد تصرف في النّافع من الأشياء. وقد تصرف كذلك في المعاصي؛ ولكلّ دليل يدلّه. غير أنّ هناك من المسلمين، وفي فرقة من فرقهم، ونحلة من نحلهم، وطائفة منهم، من كانت الأعداد عنده سرّاً من الأسرار، فيها تتجلّى الفيوضات، وتتحقّق بها الأشواق، فنجد ذكرا لما يسمّى بالأعداد الفرديّة من مثل الثلاثة والسبعة والثلاثة عشر، وغيرها من الأعداد التي أوجد لها الصّوفيّة طرقا في مناهج تفكيرهم وذكرهم؛ وقد كانت الأعداد عند بعضهم كائنات من الكائنات التي يمكنها أن تحسّن وأن تنقل إلى النّفس البشريّة جملة من الكشوفات للذين امتدّت بهم طرق المجاهدة والصّبر والرّضا؛ وعند ابن عربي أنّ الأعداد تمرّ بمراحل الطّفولة والشّباب والكهولة والشّيخوخة، والأرقام تعيش وتموت؛

ففي بهذا المعنى كائن من جملة ما خلق الله من الكائنات، وهي دائمة المصاحبة للإنسان في حلّه وترحاله؛ ويرجع كلّ ذلك إلى أنّ الصّوفيّة إنّما يرومون الباطن ويرون أنّ للشريعة ظاهراً هو الذي يجب أن تعلمه العامّة حتّى يستقيم بذلك دينهم، وأنّ هناك لها باطن لا يعلمه إلاّ من اصطفاهم الله تعالى لحكمته والوصول إليه؛ وهؤلاء، وإن كان فيهم من يعلم الشريعة بحذافيرها ولا يفوته منها شيء، فإنّما كان أغلب اشتغالهم بوساوس الرّوح ومستدقات النّفس؛ وقد ذهب هؤلاء في ذلك مذاهب كثيرة، وهناك اختلاف بينهم على اختلاف منطلقاتهم في النّظر إلى هذا الباطن... ومن غير العرب، ومن غير المسلمين، من نظر في الأعداد منذ قديم الزّمان؛ وكان اليهود من أوّل من أشار إلى ذلك، وهم ينقلون في العهد القديم، عن ربّ بني إسرائيل، وكيف حدّد لموسى عليه السّلام الطّريقة الّتي يجب عليه بها أن يقسم طوائف بني إسرائيل على حسب الأعداد وبيوتات العشائر منهم، حيث نقرأ في الأصحاح الأوّل من الأعداد: «وكلّم الربّ موسى في برية سيناء، في خيمة الاجتماع، في أوّل الشهر الثّاني في السنّة الثّانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً: <sup>١</sup> «أحصوا كلّ جماعة بني إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم. بعدد الأسماء، كلّ ذكر برأسه. <sup>٢</sup> من ابن عشرين سنّة فصاعداً، كلّ خارج للحرب في إسرائيل. تحسبهم أنت وهارون حسب أجنادهم. <sup>٣</sup> ويكون معكم رجل لكلّ سبط، رجل هو رأس لبيت أبيه. وهذه أسماء الرّجال الّذين يقفون معكم: لراوبين أليصور بن شديثور. <sup>٤</sup> لشمعون شلوميئيل بن صوريشداي. <sup>٥</sup> ليهودا نحشون بن عميناداب. <sup>٦</sup> ليساكر نثنائيل بن صوغر. <sup>٧</sup> ليزبولون ألياب بن حيلون. <sup>٨</sup> لابيئوس يوسف: لأفرايم أليشمع بن عممود، ولمنسى جمليئيل بن فدهصور. <sup>٩</sup> لبنيامين أبيدن بن جدعوني. <sup>١٠</sup> ليدان أخيعزر بن عميشداي. <sup>١١</sup> لأشير فجعيئيل بن عكرن. <sup>١٢</sup> لجاد ألياساف بن دعوييل. <sup>١٣</sup> لئفثالي أخيرع بن عين». <sup>١٤</sup> هؤلاء هم مشاهير الجماعة، رؤساء أسباط آبائهم. رؤوس

أَلُوفِ إِسْرَائِيلَ.<sup>١٧</sup> فَأَخَذَ مُوسَى وَهَارُونَ هَوْلَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَعَيَّنُوا بِأَسْمَائِهِمْ،<sup>١٨</sup> وَجَمَعَا كُلَّ الْجَمَاعَةِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الثَّانِي، فَانْتَسَبُوا إِلَى عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ، مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا بِرُؤُوسِهِمْ،<sup>١٩</sup> كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى. فَعَدَّهُمْ فِي بَرِّيَّةِ سِينَاءِ.

<sup>٢٠</sup> فَكَانَ بَنُو رَأُوْبَيْنَ بَكْرِ إِسْرَائِيلَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ بِرُؤُوسِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،<sup>٢١</sup> كَانَ الْمُعْدُوْدُونَ مِنْهُمْ لِسَبْطِ رَأُوْبَيْنَ سِتَّةً وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِئَةٍ.

<sup>٢٢</sup> بَنُو شَمْعُونَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ، الْمُعْدُوْدُونَ مِنْهُمْ بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ بِرُؤُوسِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،<sup>٢٣</sup> الْمُعْدُوْدُونَ مِنْهُمْ لِسَبْطِ شَمْعُونَ تِسْعَةً وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِئَةٍ.

<sup>٢٤</sup> بَنُو جَادَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،<sup>٢٥</sup> الْمُعْدُوْدُونَ مِنْهُمْ لِسَبْطِ جَادَ خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَسِتُّ مِئَةٍ وَخَمْسُونَ.

<sup>٢٦</sup> بَنُو يَهُوذَا، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،<sup>٢٧</sup> الْمُعْدُوْدُونَ مِنْهُمْ لِسَبْطِ يَهُوذَا أَرْبَعَةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَسِتُّ مِئَةٍ.

<sup>٢٨</sup> بَنُو يَسَّاكِرَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،<sup>٢٩</sup> الْمُعْدُوْدُونَ مِنْهُمْ لِسَبْطِ يَسَّاكِرَ أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.

<sup>٣٠</sup> بَنُو زَبُولُونَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،<sup>٣١</sup> الْمُعْدُوْدُونَ مِنْهُمْ لِسَبْطِ زَبُولُونَ سَبْعَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.

<sup>٣٢</sup> بَنُو يُوْسُفَ: بَنُو أَفْرَايِمَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبَيُوتِ آبَائِهِمْ، بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ،

٣٣ المَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ أَفْرَايِمَ أَرْبَعُونَ أَلْفًا وَخَمْسُ مِئَةٍ.

٣٤ بَنُو مَنَسَّى، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بَعَدَ الأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٣٥ المَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ مَنَسَّى اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا وَمِئَتَانِ.

٣٦ بَنُو بَنِيَامِينَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بَعَدَ الأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٣٧ المَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ بَنِيَامِينَ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.

٣٨ بَنُو دَانَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بَعَدَ الأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٣٩ المَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ دَانَ اثْنَانِ وَسِتُونَ أَلْفًا وَسَبْعُ مِئَةٍ.

٤٠ بَنُو أَشِيرَ، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بَعَدَ الأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٤١ المَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ أَشِيرَ وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَخَمْسُ مِئَةٍ.

٤٢ بَنُو نَفْتَالِي، تَوَالِيدُهُمْ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ، بَعَدَ الأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ، ٤٣ المَعْدُودُونَ مِنْهُمْ لِسِبْطِ نَفْتَالِي ثَلَاثَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِئَةٍ.

٤٤ هَؤُلَاءِ هُمُ المَعْدُودُونَ الَّذِينَ عَدَّهُمُ مُوسَى وَهَارُونَ وَرُؤَسَاءُ إِسْرَائِيلَ، اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، رَجُلٌ وَاحِدٌ لِبَيْتِ آبَائِهِ. ٤٥ فَكَانَ جَمِيعُ المَعْدُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ ٤٦ سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَلَاثَةَ أَلْفٍ

وَخَمْسَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ. ٤٧ وَأَمَّا اللَّأْوِيُّونَ حَسَبَ سِبْطِ آبَائِهِمْ فَلَمْ يُعَدُّوا بَيْنَهُمْ. ٤٨ إِذْ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٤٩ «أَمَّا سِبْطُ لَأوِي فَلَا تَحْسُبْهُ وَلَا

تَعُدَّهُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٥٠ بَلْ وَكَلِّ اللَّأْوِيِّينَ عَلَى مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ وَعَلَى جَمِيعِ أُمَّتَيْهِ وَعَلَى كُلِّ مَا لَهُ. هُمْ يَحْمِلُونَ الْمَسْكَنَ وَكُلَّ أُمَّتَيْهِ، وَهُمْ يَخْدُمُونَهُ، وَحَوْلَ الْمَسْكَنِ يَنْزِلُونَ. ٥١ فَعِنْدَ ارْتِحَالِ الْمَسْكَنِ يُنْزَلُهُ

اللَّأْوِيُّونَ وَعِنْدَ نَزْوِلِ الْمَسْكَنِ يُقِيمُهُ اللَّأْوِيُّونَ. وَالْأَجْنِيُّ الَّذِي يَقْتَرِبُ

يُقْتَلُ. <sup>٢١</sup> وَيَنْزِلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلٌّ فِي مَحَلَّتِهِ وَكُلٌّ عِنْدَ رَأَيْتِهِ بِأَجْنَادِهِمْ. <sup>٢٢</sup> وَأَمَّا اللَّائِيُونَ فَيَنْزِلُونَ حَوْلَ مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ لِكَيْ لَا يَكُونَ سَخَطٌ عَلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيَحْفَظُ اللَّائِيُونَ شَعَائِرَ مَسْكَنِ الشَّهَادَةِ. <sup>٢٣</sup> فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى كَذَلِكَ فَعَلُوا. <sup>٢٤</sup> وَالَّذِي نَعْلَمُهُ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ الأَعْدَادَ إِنَّمَا تَحَدَّدُ بِهَا الكَائِنَاتُ مِنْ صِنُوفِ البَشَرِ كَمَا تَحَدَّدُ بِهَا الجَمَادَاتُ وَغَيْرَهَا؛ وَإِنَّمَا حَدَّدَ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ وَذَلِكَ لِيَضْبُطَ بِيُوتَاتِهِمْ وَأَفْرَادِهِمْ، بَعْدَ أَنْ تَكَثَّرُوا عَلَى إِثْرِ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ: وَفِي الأَعْدَادِ فَوَائِدُ جَمَّةٍ لِأَنَّهَا تَحَدَّدُ بِهَا الأَجْنَادُ وَتَعَيَّنَ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَيْنِ الجُنْدِ، وَمَنْ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَكُونَ؛ وَقَدْ يَصْبِحُ العَدَدُ، فِي وَقْتِ مَا، رَدِيفًا لِشَخْصٍ أَوْ لِلشَّيْءِ الَّذِي عَيْنَ لَهُ...» وَهُوَ يَكْتَبُ، كَانَ يَطَّلَ عَلَيْهِ بِعَيْنِيهِ، أَوْ رَبَّمَا كَانَ هُوَ يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ وَهُوَ يَكْتَبُ؛ كَانَ كَأَنَّمَا يَسْمَعُ لَوْ مَا أَوْ عَتَابًا، وَلَا يَعْلَمُ تَحْدِيدًا أَكَّانَ يَسْتَمَعُ إِلَى صَوْتِ بَدَاخِلِهِ أَوْ آخَرَ خَارِجَ عَنَّهُ، خَارِجَ عَن دَائِرَةِ وَعِيهِ: «اَكْتَبْ...» لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَجَالٌ لِأَنْ يَدَقِّقَ، أَنْ يَتَأَنَّى، أَوْ أَنْ يَمْنَحَ نَفْسَهُ وَقْتًا لِاتِّخَاذِ قَرَارٍ؛ وَقَدْ وَجَدَهُ يَكْتَبُ مِنْ جَدِيدٍ: «وَالعَدَدُ هُوَ الْفَرْدُ... هُوَ الأَوْحَدُ الَّذِي لَا يَحَدُّ، وَليْسَ بَعْدَ الأَوْحَدِ إِلاَّ الأَوْحَدُ... كَانَ فِي الْمَبْتَدَأِ، وَكَانَ فِي الْمُنْتَهَى، هُوَ الأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَدَايَةُ، وَهُوَ الآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ نَهَايَةُ، وَهُوَ الَّذِي بَرَأ الْبَرَايَا مِنَ العَدَمِ المَعْدُومِ، وَهُوَ الَّذِي سَمَّى نَفْسَهُ فِي الأَزَلِ قَيُّومًا...» وَصَمَّتْ مَا كَانَ بَدَاخِلَهُ أَوْ خَارِجَهُ؛ وَتَسَاءَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: «هَلْ يَتْرِكُ عَلَى الصَّفْحَةِ مَا كَتَبَ رَغْمًا عَنَّهُ، أَمْ يَمْحُوهُ لِیُوَاصِلَ مَا كَانَ بِصَدَدِهِ مِنَ الأَمْرِ؟» وَحِينَمَا أَوْشَكَ أَنْ يَمْحُو بِقَلَمِهِ مَا كَانَ كَتَبَهُ وَجَدَ يَدِيهِ لَا تَطَاوَعَانَهُ، وَكَانَ يَرَى نَفْسَهُ عَلَى ضَفَّةٍ أُخْرَى مِنْ ضَفَافِ الذَّاكِرَةِ أَوْ النَّسْيَانِ؛ فَقَدَ كَانَ إِلَى حَدِّ تِلْكَ اللَّحْظَةِ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى اسْتِيعَابِ مَا يَحْدُثُ لَهُ... إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا... أَنْ يَتَخَلَّى عَن حَوْشِيَّتِهِ مَرَّةً، وَإِلَى الأَبَدِ، وَلَكِنْ هُنَاكَ شَيْئًا بِالدَّخْلِ يَدْفَعُهُ دَفْعًا إِلَى مَجَاهِلٍ لَا يَعْلَمُهَا، إِلَى أَسْرَارٍ لَا يَدْرِكُ كُنْهَهَا. إِنَّهُ لَتَطْرَأُ عَلَيْهِ مِنْذُ وَقْتِ

ليس باليسير حالات مجهولة، قد تكون تلبّسا، أو مساكنة، أو تناسخا من جنس تناسخ لم يسمع عنه من قبل... ولكن ما حيلته في كلّ ذلك. عليه أن يحاول، عليه أن يكتب بقلمه، فإن لم يكن بالقلم، فبقلبه، بالدّم الذي في قلبه، بشوقه الذي ما فتئ يتزايد... وطفّت على ذاكرته فجأة أهزيج أعراس... لم يكن عرسا واحدا، وإنما أعراس كثيرة، أو قد يكون هما عرسين، تداخلت فيهما ذكريات أعراس كثيرة من أزمان متباعدة... حاول أن يركّز... أن يستعيد ذكرى بناء ابنة الوالي بأمر أفسنة الذي كان سبق بناءه بقوت القلوب بأيام... حنّ قلبه... رقت مشاعره. ووجد الدّموع تنزل من عينيه رغما عنه.

أخذ دفترًا جديدًا، وخطّ في رأسه: «بخارى لثلاث ليال بقين من ذي القعدة من السنّة (...). من الهجرة الشريفة. يوم الخميس... وعرجت على علاء الدّين في القهوة صبيحة ذلك اليوم، وبخارى قد لبست ثوبا جديدا، وفرشت أرضها بالرياحين والياسمين، وارتفعت على بيوتها أعلام الزينة، وعلقت في شبابيكها المصابيح بكلّ الأحجام والألوان؛ وكانت الحركة لا تهدأ أبدا، في الشوارع، وعلى النّواصي، وفي الأسواق حيث تضاعفت الحركة واضطراب النّاس، وكثر البيع والشراء، وانتشر جنود الوالي في الأزقة وفي كلّ مكان للحفاظ على النّظام... وقد كنت أسير أنا وعلاء الدّين ونتعجّب من كلّ ما يحدث حولنا؛ وكان كلّ همّنا أن نبلغ القصر الذي قيل لنا إنّّه تحوّل إلى خلية نحل؛ كما قيل لنا أيضا إنّ الوالي، أدامه الله، قد أعطى أوامر صارمة بأن لا يحجب عن قصره أحد في ذلك اليوم، سيّما الفقراء والمساكين وكلّ من انقطعت به السبيل. وبالرغم ممّا كان يعترينا من التّهيّب والخوف كوننا غرباء عن البلد ولسنا من أهله فقد انخرطنا مع بقية النّاس فيما كانوا فيه... إنّها مناسبة، ويا لها من مناسبة!! فليس في كلّ يوم تزفّ بنت من بنات بخارى إلى أمير كبير كأمر أفسنة الذي ذاع صيته في الافاق ولهجت بذكره الركبان وتحدّث عن شجاعته كلّ راكب وراجل ليس في بخارى

وحدها ولكن في كلِّ بلاد ما وراء التَّهر. وبلغنا القصر، وكانت سبقتنا إليه الأمازيج والزَّغاريذ وأصوات الدَّفوف والمزاهر والعيدان؛ والجنود الَّذِينَ كانوا في أوقات سابقة صارمين لا يغادرون أماكنهم كانوا في ذلك اليوم متبسِّطين ضاحكين؛ بل إنَّهم كانوا يقفشون القفشة إثر القفشة وقد وضعوا أسلحتهم جانبا، وكانوا يجرون مع جملة من يجري من الصَّبيان، ويتقاذفون بقطع الحلوى. ويغنَّون بلغتهم، فقد كانوا مزيجا، ليسوا كلَّهم من بخارى، فمنهم من قدم من مناطق مختلفة من أذربيجان وأرمينيا، وبلاد القفقاس، وبلاد البلغار. وتقدَّمتنا ولم يعترض سبيلنا معترض، حتَّى ولجنا إلى ساحة كبيرة كان فيها سرادق كبير... كان كبيرا جدًّا، أكبر من كلِّ ما رأته عينا في حياتي؛ قال لي علاء الدِّين، ونحن مازلنا في المدخل، ولا يرى ما في الدَّاخل من كثرة النَّاس، الَّذِينَ كان منهم من يحمل أطعمة منها ما أعرفه ومنها ما لا أعرفه، وكان منهم من يأكل، وكان منهم من هو جالس، ومن هو واقف، ومنهم من كان يعالج آلات موسيقى في أوَّل السَّرادق، وهم العازفون والمغنَّون، وكان منهم كلُّ شيء؛ إلاَّ أنَّ الفقراء كانوا أكثر من غيرهم، فذلك اليوم هو يومهم الَّذي ربَّما لن يتكرَّر مرَّة أخرى في أسابيع أو شهور أو حتَّى سنوات، فليس كلِّ من كان يقيم عرسا في بخارى ميالا إلى استدعاء هؤلاء الفقراء:

- يبدو أنَّ هذا اليوم من الأيَّام التي ستكون تاريخا من التَّواريخ؛ وسيكون علامة تحسب بها الأحداث... ألا تنظر إلى كلِّ هؤلاء النَّاس، وكأنَّهم في موقف من المواقف الجليلة...

وهو يقول ذلك طافت بذهني مواقف أخرى، في أمكنة أخرى، في بغداد، التي شهدت يفاعتي وشبابي؛ وذكرت أيَّام الرِّخاء والسَّعادة وأنا أنعم بالحبِّ الَّذي كان يسبغه عليَّ كلِّ من والدي وبوران، وكادت تطفّر من عيني الدَّموع لولا أن تماسكت...

قال علاء الدِّين، وهو يتظاهر بعدم الاهتمام بما كان يراه من

---

أمري، في حين كان يختلس إليّ النّظر من حين لآخر، وقد اهتمّ قليلا  
واغتمّ لأنّه ربّما يكون قد نكأ فيّ جروحا عن غير قصد:

- انظر!!

ونظرت حيث أشار، فإذا موكب الوالي قد أقبل، فهدأت الأصوات،  
وخفّت الحركة على حين غرة، وتوقّف من كان يأكل عن الأكل،  
وتوقّف من كان يجري، وتوقّف من كان يلاحق الخدم ليظفر ببعض  
ما يحملونه من الكنافة والفالودج، ومن صنوف اللّحوم... وكان  
الوالي يتقدّم موكبا صغيرا من النّساء تتوسّطن فتاة كانت غارقة في  
البياض من رأسها حتّى أخمص قدميها، وكان وجهها تغطّيه طرحة لم  
يرأجمل منها من الحرير المخرمّ؛ وتقدّم الجميع فاتخذوا مجالسهم في  
الأماكن المخصّصة لهم، وقد جلست تلك الفتاة على مصطبة مرتفعة  
قليلا حتّى يراها كلّ من كان في السّرادق. وارتفعت أصوات الموسيقى،  
وفي حلبة وسط السّرادق دخل مجموعة من الفتيان وهم يحملون  
السّيوف، فجالوا مليّا، ولعبوا بسيوفهم، ورقصوا وهم يهزجون؛ وقد  
كانوا وهم يرقصون كأنّما يرومون الطّيران... قال علاء الدّين:

- يبدو أنّ عادات أهل البلد هنا غير عاداتنا في بغداد، أو أماكن  
أخرى من بلاد العرب.

قلت:

- إنّ عادات الأعاجم تختلف قليلا عن عاداتنا؛ ويبدو أنّ أهل  
البلد هنا تنكشف نساؤهم على رجالهم، ولا يجدون في ذلك حرجا أو  
مندوحة...

وجاء الأمير أخيرا وهو متسرّبل في زينته وقيافته الباذخة، واتّجه  
صوب المكان الذي كان يجلس فيه الوالي، فجلس حذوه، وقد كانا  
يضحكان ويتحدّثان طيلة الوقت...»

ما الذي يحدث؟ ما هذا الشّجن الممضّ؟ وهل يتسّى السلوان؟  
والقلب يستكين، وتهدأ فيه فورة المشاعر أخيرا بعد ما حدث في ذلك

الخميس الذي تلا الخميس الذي تزوجت فيه ابنة الوالي؟ وهل... وهل...؟ متى تبدأ هذه الأسئلة، ويعاوده سكونه أخيرا؟ إن أمره ليس من اليسير فهمه أو استيعابه؟! وما حصل له لو تناقلته ألسنة العامة ولاكته الأفواه لتحوّل إلى مثار للسخرية فيما تبقى له من سني عمره؛ ولكن الله ستر؛ وقد كتبت أمره قوت القلوب، وتناسى صهره الأمر كأن لم يكن، بل إنه بالغ في تعزيتته، في دعوته إلى التدرّع بالصبر، ولم يوثسه من معاودة المحاولة من جديد، إذا أنس من نفسه نشاطا، استعدادا؛ غير أنه . وزيادة في الرفق به وبتّ الطمانينة في نفسه . نصح بالبعد قليلا، بالإخلاق إلى الراحة والاستجمام... لقد قال له في حنو وعطف: «قوت القلوب لك أنت، وليست لغيرك... وهي عاقلة وستفهم!!» وقد فهمت فعلا ولم تقل شيئا حين أجفل... كان على وشك الإقدام، وهو يرى جمالها وقد كشف الطرحة عن وجهها... لم يبد عليها أنها متهيبّة، أو أنها مثل العذراوات الأخريات اللواتي لا يتخلّين في ظروف مشابهة عن خجلهنّ وخفرهنّ؛ وكانت دوناً عنهنّ جميعاً في جرأتها، في ثباتها، في رباطة جأشها، وحكمتها أيضاً؛ ولولا أن يقال فيما بعد إنها امرأة مستتيسة؛ أو إنها . لا سمح الله . ليست بعذراء لكانت بادرت، ولكانت الخطوة الأولى منها؛ وكانت ستجنّبه في هذه الحالة ما وقع له من المشقّة والمعاناة؛ ولكن هل كانت تدري تحديدا ما وقع له في تلك الليلة، في خلوتها في تلك الغرفة في ذلك البيت الذي كان مفروضا فيه أن يكون بيته بعد أن يرحل كبير الشرطة . أمّد الله في عمره . عن هذه الدنيا؟ هل خمنت، بحدسها، الدافع الذي نأى به إلى الإعراض، إلى الهروب منها كأنه مطارّد، وقد كانا قاب قوسين أو أدنى من المباح التي كانت تنتظرهما في تلك الليلة؟ هل كانت رأّت ما رأى في تلك اللحظات القليلة؟ وهل كانت ستصدّق ما حدث له لو رأّت ما رأى؟ هل شكّت فيه لحظة، وأنها في نهاية الأمر لم تتزوج رجلا، ولكن ابتلاها قدرها بعين لا قدرة له على المجاعة؟ لا، لا، هي لا تعتقد ذلك؟ إنّ لها نظرة

في الرجال، وهي تدرك من صميم قلبها أنه رجل من خيرة الرجال؛ فماذا حصل له إذن؟ لماذا جمع كالفرس على حين غرة؟ لم انفض عنها كمن اخترقته السيوف أوتناوشته الرماح؟! في لحظة من اللحظات، خانها شجاعتهما، ووجدت نفسها تبكي من الداخل، وقد أوشكت دموعها أن تغافلها وتسقط على خدها، لولا أن ضغطت بأصابعها على عينيها حتى كادت تدميها. قالت: «لا، يجب أن لا أبكي! يجب أن لا يرى دموعي، فيتضاعف قهره، وربما إحساسه بالذنب! يجب أن أكون شجاعة؛ والأهم من كل ذلك أن لا أتخلى عنه... يجب أن أصبر... أن أمهله، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا!!» فماذا عنه هو؟! هل كان يتوقع أن يراه في موقف مثل موقفه، أن يعكّر عليه صفوه أثناء أكثر أوقاته أنسا وانسجاما، أن يقتحم عليه خلوته؟! ألم يشعر بخجل؟ ألم يشعر بحرج وهو يرى امرأة ورجلا شبه عارين، وقد كانا على وشك أن يحصل بينهما ما يحصل بين المرأة وزوجها؟ أم أنه، وإن اقتحم عليهما خلوتهما، فإن عينيها لا تريان ما يراه بقية الناس من تلك المواقف التي لا تحدث إلا وراء الأبواب المقفلة، والأمكنة المواربة...؟! قال له: «لا، لا، لا». في البداية سمع الصوت، ولم ير شيئا. وكان صوتا فيه سلطة لا ترد. لماذا يمنع؟ وهل أتى محرّما، وقد عقد على المرأة التي هو معها عقدا على سنة الله ورسوله؟ لماذا يلاحقه هذا الصوت في كل مكان، في غرفته بالخان، في المسجد الجامع؟ هل يكون تابعا من التوابع وهو لا يعلم؟ هل يكون موكلا بمصيره وقدره؟ وهبه كذلك، هل يكون في الزواج ما يشين؟ هل يكون الزواج لعنة من اللعنات التي بدل أن تطهر فإنها تنجس صاحبها؟... أحسن أنه أخذ على حين غرة، وارتد لإراديا لعلمه بعريه، وهو الذي كان يخشى منذ صباه أن يراه أحد عاريا؛ حتى بوران حينما كانت تغير له ملابسه وهو صغير كان يصرا أن تغمض عينيها كي لا تراه؛ فكيف به إذا كان خاليا بامرأة وكان على وشك مجامعتها؟! لبس ملابسه كيفما اتفق، وحين نظر ثانية ناحية قوت القلوب وجدها على

حالتها، على ما هي عليه، كأنّها لم تسمع شيئا؛ ورأى البياض، وتلك الهالة، وكان الوجه يطغى عليه نور ساطع لا قبل للعين باحتماله؛ وسمع الصّوت يقول من جديد: «ليس الآن... ليس الآن...» نظر إلى قوت القلوب، وسألها: «هل تسمعين شيئا؟ هل ترين شيئا؟» وشعرت قبل أن تجيبه أنّ في الأمر سرًّا ما، فغطّت نفسها، وقد جالت عينها في كلّ المكان كأنّما كانت تتوقّع أن ترى أحدا يتطلّع إليها، وقالت في دهشة: «إني لا أسمع شيئا ولا أرى شيئا...» وخرج، وهو لا يدري ماذا يفعل أو أين يذهب، وقد أحسّ كأنّ الدّنيا على رحابتها تضيق من حوله؛ واستقبله كبير الشّربة، وكان في المهبو، قائلا: «ما الذي جرى؟» وقد استغرب خروجه على تلك الهيئة من الخوف والتّحسّب والجزع؛ ويبدو أنّه حدس شيئا، فوقف وأخذ بيده وأجلسه إلى جانبه، وكان بالقرب منه كوب من الرّزنجبيل، فأمره أن يشرب منه. أمهله ريثما شرب جرعة أو جرعتين، ثمّ قال: «خيرا، يا ولدي!!» أراد أن يتكلّم، فشعر بالعبرات تخنق حلقه، تململ في مكانه قليلا، وكان أميل إلى الهروب، إلى المغادرة، يكفيه الآن الخزي الذي هو فيه، ودّ لو يكون وحيدا، خاليا بنفسه، ليتجرّع مرارة ما حصل له على مهل؛ ولكنّ الرّجل لا يعتقه، يريد أن يعرف، وهذا من حقّه، فالجريحة ابنته، وهو يريد أن يطمئنّ عليها، قال شيئا مدغما، كان يريد أن يقول الحقيقة كاملة فلم يطاوعه لسانه: اضطرابه كان موحيا، لم يكن كبير الشّربة في حاجة إلى أكثر من ذلك ليفهم، قال مهوّنا عليه الأمر: «لا عليك، يا ولدي... هوّن عليك... أنا في مقام والدك، وإني أفهم ما أنت فيه... سأدعك الآن، وسنتحدّث في وقت آخر!!» ولم يزد على ذلك.

الغرفة على حالها، والنّور يتكاثف في النّهار، حينما يكون قد أخذ شيئا يتبلّغ به ليومه ويجلس إلى نضده وحواله أدوات كتابته، ثمّ يبدأ النّور بعد ذلك في التدرّج من صفرة وهّاجة تشي بالشمس في الخارج إلى خيوط ضئيلة تظلّ تتلوّن بألوان الطّيف إلى أن تتلاشى تماما، وتحلّ

محلها ظلمة حالكة كانت تضطره إلى إضاءة الشموع حتى يكون قادرا على مواصلة عمله... لقد كان ذلك دأبه من قبل، وقد صار اليوم أشبه بالأمر القاهر لسجين كتب عليه أن يقضي باقي عمره في السجن بعد الذي حصل له؛ وكانت تعزيتة الوحيدة أن يكتب، أن يسهب وقد كان من قبل يميل إلى الاقتضاب حتى لا يفوت على نفسه جلسات القهوة التي كان يقضيها مع علاء الدين وهما يدخنان الأركيلة ويتعاونان على قتل الوقت بأحاديث من كل حذب وصوب، على الأقل من جانبه هو، حيث كانت وطأة الغربة لديه أقوى، في حين كان علاء الدين صديقه قد اعتاد على وحدته وعزلته مواربا في سجوف من صمت لا يريم... ولا يدري لماذا كان مشدودا إلى العهد القديم تحديدا رغم أنه في حياته لم يعرف أحدا من اليهود، ولم يكن يهتم كثيرا لتاريخهم. بلى، كان يعرف مثلا، كأبي مسلم له إمام بمسائل دينه، أن عددا كبيرا منهم كان يقيم بالمدينة، ومن قبائلهم كان هناك بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة؛ ولكنه لم يكن يدقق في أمرهم، وكان جل اهتمامه مصروفا إلى تاريخ قومه، إلى ما حصل لهم من أيام وأحداث؛ وكان كلما أنس من نفسه نشاطا كتب شيئا؛ وما كان يهتم مثلا أن يتخير لمؤرخين محددين وإنما كان يختار من كتبهم عفو الخاطر، وكان يمضي الساعات وهو يتأمل سلسلة خلفاء المسلمين وأنسابهم وما كان في أيامهم من الحوادث والنوازل؛ وكان يتأني كلما وصل إلى أيام بني العباس وما جرى لهم وما ابتلوه من الأتراك في بادئ أمرهم ثم ما أصابهم من البويهيين والسلاجقة...

كان انتهى إلى «الأعداد»؛ فأخذ الكتاب من جديد، وتصفح أوراقه على مهل، لا رغبة في القراءة أو الكتابة، وإنما كانت تلك حركة الغاية من ورائها نسيان بعض اضطرام نفسه، وتركيزه في حاضره وإن كان أليما؛ ورغم ذلك فقد كانت عيناه تقعان بين الفينة والأخرى على الإصحاحات وما كتب فيها؛ وقد أعجبه أن الذي بين يديه ليس فصلا

أوفصولاً من كتب الفلسفة أو علم التنجيم أو علم العمران البشري،  
 أو رسائل في الطب لابن سينا أو الرازي أو غيرهم؛ وارتاحت نفسه قليلاً،  
 فبدأ يقرأ على استحياء: «<sup>١</sup> وَهَذِهِ تَوَالِيدُ هَارُونَ وَمُوسَى يَوْمَ كَلَّمَ الرَّبُّ  
 مُوسَى فِي جَبَلِ سَيْنَاءَ. وَهَذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي هَارُونَ: نَادَابُ الْبِكْرُ، وَأَبِيهُو  
 وَالْعَازَارُ وَإِيثَامَارُ. <sup>٢</sup> هَذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي هَارُونَ الْكَهَنَةِ الْمُسَوِّحِينَ الَّذِينَ  
 مَلَأَ أَيْدِيَهُمْ لِلْكَهَانَةِ. <sup>٣</sup> وَلَكِنْ مَاتَ نَادَابُ وَأَبِيهُو أَمَامَ الرَّبِّ عِنْدَمَا قَرَّبَا  
 نَارًا غَرِيبَةً أَمَامَ الرَّبِّ فِي بَرِيَّةِ سَيْنَاءَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا بَنُونَ. وَأَمَّا الْعَازَارُ  
 وَإِيثَامَارُ فَكَهَنَا أَمَامَ هَارُونَ أَبِيهِمَا.

<sup>٤</sup> وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: <sup>٥</sup> «قَدِّمُ سَبْطَ لَأَوِي وَأَوْقِفْهُمْ قُدَّامَ هَارُونَ  
 الْكَاهِنِ وَلْيَخْدِمُوهُ. <sup>٦</sup> فَيَحْفَظُونَ شَعَائِرَهُ وَشَعَائِرَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ قُدَّامَ  
 خِيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ، وَيَخْدِمُونَ خِدْمَةَ الْمَسْكَنِ، <sup>٧</sup> فَيَحْرُسُونَ كُلَّ أُمَّتَعَةِ  
 خِيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ، وَحِرَاسَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَخْدِمُونَ خِدْمَةَ الْمَسْكَنِ.  
<sup>٨</sup> فَتُعْطِي اللَّاَوِيِّينَ لِهَارُونَ وَلِبَنِيهِ. إِنَّهُمْ مَوْهُوبُونَ لَهُ هِبَةً مِنْ عِنْدِ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ. <sup>٩</sup> وَتُوكَلُّ هَارُونَ وَبَنِيهِ فَيَحْرُسُونَ كَهْنُوتَهُمْ، وَالْأَجْنَبِيُّ الَّذِي  
 يَفْتَرِبُ يُقْتَلُ».

<sup>١١</sup> وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: <sup>١٢</sup> «وَهَا إِنِّي قَدْ أَخَذْتُ اللَّاَوِيِّينَ مِنْ بَيْنِ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ، بَدَلُ كُلِّ بَكْرٍ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَكُونُ اللَّاَوِيُّونَ لِي.  
<sup>١٣</sup> لِأَنَّ لِي كُلَّ بَكْرٍ. يَوْمَ ضَرَبْتُ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَدَسْتُ لِي كُلَّ بَكْرٍ فِي  
 إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّاسِ وَالْمِهَائِمِ. لِي يَكُونُونَ. أَنَا الرَّبُّ».

<sup>١٤</sup> وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى فِي بَرِيَّةِ سَيْنَاءَ قَائِلًا: <sup>١٥</sup> «عُدَّ بَنِي لَأَوِي حَسَبَ  
 بُيُوتِ آبَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ. كُلُّ ذَكَرٍ مِنْ ابْنِ شَهْرٍ فَصَاعِدًا تَعُدُّهُمْ».  
<sup>١٦</sup> فَعَدَّهُمْ مُوسَى حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَمَا أَمَرَ. <sup>١٧</sup> وَكَانَ هَوْلَاءُ بَنِي لَأَوِي  
 بِأَسْمَائِهِمْ: جَرِشُونَ وَقَهَاتُ وَمَرَارِي. <sup>١٨</sup> وَهَذَانِ اسْمَا ابْنَيْ جَرِشُونَ  
 حَسَبَ عَشَائِرِهِمَا: لِبْنِي وَشَمْعِي. <sup>١٩</sup> وَبَنُو قَهَاتِ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ: عَمْرَامُ  
 وَيَصْهَارُ وَحَبْرُونُ وَعَزْرِيئِيلُ. <sup>٢٠</sup> وَأَبْنَا مَرَارِي حَسَبَ عَشَائِرِهِمَا: مَحْلِي  
 وَمُوشِي. هَذِهِ هِيَ عَشَائِرُ اللَّاَوِيِّينَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ.

١١ لَجَرَشُونِ عَشِيرَةَ اللَّبْنِيِّينَ وَعَشِيرَةَ الشَّمْعِيِّينَ. هَذِهِ هِيَ عَشَائِرُ  
الْجَرَشُونِيِّينَ. ١٢ الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ بَعْدَ كُلِّ ذَكَرٍ مِنْ ابْنِ شَهْرِ فِصَاعِدًا،  
الْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ سَبْعَةُ آلَافٍ وَخَمْسُ مِئَةٍ. ١٣ عَشَائِرُ الْجَرَشُونِيِّينَ يَنْزِلُونَ  
وَرَاءَ الْمُسْكَنِ إِلَى الْغَرْبِ. ١٤ وَالرَّئِيسُ لَبَيْتُ أَبِي الْجَرَشُونِيِّينَ أَلْيَاسَافُ  
بُنُ لَآيِلَ. ١٥ وَحِرَاسَةُ بَنِي جَرَشُونَ فِي خَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ: الْمُسْكَنُ، وَالْخَيْمَةُ  
وَعِطَاوُهَا، وَسَجْفُ بَابِ خَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ، ١٦ وَأَسْتَارُ الدَّارِ وَسَجْفُ  
بَابِ الدَّارِ اللَّوَاتِي حَوْلَ الْمُسْكَنِ وَحَوْلَ الْمُدْبِحِ مُحِيطًا وَأَطْنَابُهُ مَعَ كُلِّ  
خِدْمَتِهِ.

١٧ وَلِقَهَاتُ عَشِيرَةِ الْعَمْرَامِيِّينَ وَعَشِيرَةُ الْيَصْهَارِيِّينَ وَعَشِيرَةُ  
الْحَبْرُونِيِّينَ وَعَشِيرَةُ الْعَزْبِيلِيِّينَ. هَذِهِ عَشَائِرُ الْقَهَاتِيِّينَ، ١٨ بَعْدَ كُلِّ ذَكَرٍ  
مِنْ ابْنِ شَهْرِ فِصَاعِدًا ثَمَانِيَةَ آلَافٍ وَسِتُّ مِئَةٍ حَارِسِينَ حِرَاسَةَ الْقُدْسِ.  
٢٩ وَعَشَائِرُ بَنِي قَهَاتٍ يَنْزِلُونَ عَلَى جَانِبِ الْمُسْكَنِ إِلَى النَّيْمَنِ، ٣٠ وَالرَّئِيسُ  
لَبَيْتُ أَبِي عَشِيرَةِ الْقَهَاتِيِّينَ أَلْيَصَافَانُ بْنُ عَزْبِيلَ. ٣١ وَحِرَاسَتُهُمُ التَّابُوتُ  
وَالْمَائِدَةُ وَالْمَنَارَةُ وَالْمُدْبِحَانُ وَالْمِئْتَةُ الْقُدْسِيَّةُ الَّتِي يَخْدُمُونَ بِهَا، وَالْحِجَابُ  
وَكُلُّ خِدْمَتِهِ. ٣٢ وَلِرَّئِيسِ رُؤَسَاءِ اللَّوِيِّينَ أَلْعَازَارُ بْنُ هَارُونَ الْكَاهِنِ وَكَالَتُهُ  
حُرَّاسِ حِرَاسَةِ الْقُدْسِ.

٣٣ وَلِمَرَارِيِّ عَشِيرَةِ الْمُحْلِيِّينَ وَعَشِيرَةِ الْمُوشِيِّينَ. هَذِهِ هِيَ عَشَائِرُ مَرَارِيِّ.  
٣٤ وَالْمَعْدُودُونَ مِنْهُمْ بَعْدَ كُلِّ ذَكَرٍ مِنْ ابْنِ شَهْرِ فِصَاعِدًا سِتَّةُ آلَافٍ  
وَمِئَتَانِ، ٣٥ وَالرَّئِيسُ لَبَيْتُ أَبِي عَشَائِرِ مَرَارِيِّ صُورِيئِيلُ بْنُ أَبِيحَايِلَ.  
يَنْزِلُونَ عَلَى جَانِبِ الْمُسْكَنِ إِلَى الشَّمَالِ. ٣٦ وَوَكَالَتُهُ حِرَاسَةُ بَنِي مَرَارِيِّ:  
أَلْوَا حُ الْمُسْكَنِ وَعَوَارِضُهُ وَأَعْمِدَتُهُ وَفُرْضُهُ وَكُلُّ أَمْتِعَتِهِ وَكُلُّ خِدْمَتِهِ،  
٣٧ وَأَعْمِدَةُ الدَّارِ حَوْلَهَا وَفُرْضُهَا وَأَوْتَادُهَا وَأَطْنَابُهَا.

٣٨ وَالنَّازِلُونَ قُدَّامَ الْمُسْكَنِ إِلَى الشَّرْقِ قُدَّامَ خَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ، نَحْوَ  
الشَّرُوقِ، هُمْ مُوسَى وَهَارُونُ وَبَنُوهُ، حَارِسِينَ حِرَاسَةَ الْمَقْدِسِ لِحِرَاسَةِ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْأَجْنَبِيُّ الَّذِي يَقْتَرِبُ يُقْتَلُ.  
٣٩ جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنَ اللَّوِيِّينَ الَّذِينَ عَدَّهُمُ مُوسَى وَهَارُونُ حَسَبَ

قَوْلِ الرَّبِّ بِعَشَائِرِهِمْ، كُلُّ ذَكَرٍ مِنْ ابْنِ شَهْرِ فَصَاعِدًا، اثْنَانِ وَعِشْرُونَ  
أَلْفًا.

٤٠ وَقَالَ الرَّبُّ مُوسَى: «عُدَّ كُلَّ بَكَرٍ ذَكَرٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ابْنِ شَهْرِ  
فَصَاعِدًا، وَخُذْ عِدَّةَ أَسْمَائِهِمْ. ٤١ فَتَأْخُذُ اللَّائِيَيْنِ لِي. أَنَا الرَّبُّ. بَدَلْ كُلِّ  
بَكَرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَمَهَائِمَ اللَّائِيَيْنِ بَدَلْ كُلِّ بَكَرٍ فِي مَهَائِمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ». ٤٢  
فَعَدَّ مُوسَى كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ كُلَّ بَكَرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٤٣ فَكَانَ جَمِيعُ  
الْأَبْكَارِ الذُّكُورِ بِعِدَّةِ الْأَسْمَاءِ مِنْ ابْنِ شَهْرِ فَصَاعِدًا، الْمَعْدُودِينَ مِنْهُمْ  
اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَثَلَاثَةَ وَسَبْعِينَ.

٤٤ وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٤٥ «خُذِ اللَّائِيَيْنِ بَدَلْ كُلِّ بَكَرٍ فِي بَنِي  
إِسْرَائِيلَ. وَمَهَائِمَ اللَّائِيَيْنِ بَدَلْ مَهَائِمِهِمْ، فَيَكُونُ لِي اللَّائِيُونَ. أَنَا الرَّبُّ. ٤٦  
وَأَمَّا فِدَاءُ الْمِئَتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ وَالسَّبْعِينَ الزَّائِدِينَ عَلَى اللَّائِيَيْنِ مِنْ أَبْكَارِ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ، ٤٧ فَتَأْخُذُ خَمْسَةَ شَوَاقِلَ لِكُلِّ رَأْسٍ. عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ  
تَأْخُذُهَا. عِشْرُونَ جِيرَةً الشَّاقِلِ. ٤٨ وَتُعْطِي الْفِضَّةَ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ فِدَاءَ  
الزَّائِدِينَ عَلَيْهِمْ». ٤٩ فَأَخَذَ مُوسَى فِضَّةَ فِدَائِهِمْ مِنَ الزَّائِدِينَ عَلَى فِدَاءِ  
اللَّائِيَيْنِ. ٥٠ مِنْ أَبْكَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذَ الْفِضَّةَ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِئَةٍ وَخَمْسَةَ  
وَسِتِّينَ عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، ٥١ وَأَعْطَى مُوسَى فِضَّةَ الْفِدَاءِ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ  
حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى. - عند هذا الحد، استدرك ما  
كان غاب عنه من قبل، وربما جاء ذلك فجأة، ودون تخطيط، بمثل  
الإلهام كما يقال: وقد كان يأتي في كتب المؤرخين العرب على المتون،  
وما من متن إلا كان مصحوبًا بسلسلة سنده من آخر قائل إلى أول من  
نقل عنه الخبر؛ وقال: «حق أن الله كلم موسى مباشرة من جانب  
الطور الأيمن؛ وحق أن الله أوحى إليه بما أوحى، وأمله التوراة، وقربه  
نجيًا؛ وهذا كله مذکور في القراءان؛ ولكن قبل نزول التوراة، من كان  
أخبر بني إسرائيل أن الله تعالى قد كلم موسى؟! الإجابة في زمن موسى  
أن موسى نفسه هو الذي أخبر بني إسرائيل بذلك؛ ولكن بعد أن  
تطاوت الآماد، وتلت الدهور الدهور، من كان ينقل لمتأخريهم ما وقع

لأبائهم في عهد موسى الأول؟ وهنا حاول أن يفهم، أن يقدم بعض الافتراضات، فقال: «إذا سلّمنا أنّ بني إسرائيل قد كتبوا، وكان فيهم كتبة، فلا يستبعد أن يكون أحدهم قد كتب شيئا عمّا حدث في ذلك الزّمان؛ ولكن من هذا الذي كتب؟ ما كان اسمه؟ ما كان نسبه؟ لأيّ قبيلة من قبائل يهود كان ينتمي؟ أم أنّ بني إسرائيل لم يكن يعينهم ذلك الأمر لأنهم فوّضوا أمر دينهم إلى أبحارهم وكهنتهم؛ وهؤلاء لم يكن شأنهم أن يعلموهم بمن قام بإرسال ما أرسل بقدر ما كان همّهم منصرفا إلى التّأكد من التّطبيق الصّحيح لما ورد في التّوراة؛ فيهود، بعكس المسلمين مثلا، ما كان مسموحا لهم أن يناقشوا مسائل دينهم أو أن يستفسروا عنه ما دام هناك من هو موكول إليه القيام بذلك؛ فهم يفعلون ما يؤمرون به... وحمد الله في سرّه أن كان مسلما، وأنّه وإن لم يكن دائما قادرا على فهم الكثير من الأشياء، فلم يمنع مع ذلك من أن يتفكّر ويتأمّل؛ ثمّ قال: «وإذا اعتبرنا مثلا أن لم يكن هناك من كتب، وكان الأمر يتّمّ مشافهة من جيل إلى جيل، فلماذا لم تذكر سلسلة الرّواية؟ لماذا كان المتن خاليا دائما إلّا من عبارة: وخاطب الرّب موسى؛ أو: وخاطب الرّب موسى وهارون... قال في نفسه: «إنّ كلّ ذلك محيّر.» ولم يستبعد أن يكون الأمر كلّه من فعل الأبحار الذين ذكر عنهم القرءان الثّيء الغير القليل؛ ثمّ قارن بين الله الواحد الأحد الفرد الصّمد، وربّ بني إسرائيل؛ وتمعّن فيما كان النّاس يقولونه ويتناقفونّه في ذلك العصر أو في ما مرّ من عصور من أنّ الإسلام واليهوديّة التي جاء بها موسى إنّما هي تنبع من مصدر واحد، ألا وهو التّوحيد؛ وأنّ الإسلام واليهوديّة هما من الدّيانات السّماويّة التي تؤمن بإله واحد؛ فقال: «إذا كان ذلك كذلك، فلماذا يبدو إله أو ربّ بني إسرائيل دائم الغضب والانتقام، ولا مجال في قلبه للرحمة، فهو دائم البطش، وهو دائم القتل والحقد، وإن بدا له أحيانا أن يمهل إلى حين كما كان فعل مع فرعو مثلا؛ إلّا أنّه حتّى في حال فرعون قال لموسى عليه السّلام:

سأقسّي قلبه، أي أنّ أمر إمهاله لم يكن لهديته أو إرشاده إلى الصّواب، وإنّما كان بغاية المبالغة في توريطه والختم على قلبه؛ في حين أنّ الله سبحانه وتعالى هو كثير الرّحمة كما هو كثير الانتقام، وهو حلِيم، وغضبه تابع لحلمه، والله يقبل من العبد توبته، وترك له اختيار أعماله فلا يجبره إلّا في حالات؛ وحالات الإجبار هذه إنّما كانت في صالح الإنسان الذي لو ترك في تلك الحالات لنفسه لربّما كان ضيّع وضاع؛ فالله تعالى رؤوف به في نومه، رؤوف به في مسائل أكله وشربه، التي لو ترك فيها الإنسان لنفسه لنسيها، أو نسي بعضها فهلك... والله تعالى سبقت رحمته عقابه.» وقال: «في السّفر شيء لا يخفى؛ وهو أنّ الله بدل أن يعطي ويمنح فهو يأخذ ويستصفي: فهو كما كان قتل كلّ بكر من أبكار مصر، فهو يريد أن يأخذ لنفسه كلّ بكر من بني إسرائيل، وهذا ضدّ «إنّ الله يعطي بغير حساب!» و«إنّ الله هو الكريم الجواد!» وقال: «إذا كان الله عادلا، وهو العدل؛ والله هو الأمر بالقسطاس، وفي العرف الذي سنّه الله، وهو أمر الشريعة، حرّم الله أن تكون المفاضلة إلّا على أساس من التّقوى والخوف منه؛ فلماذا يكون ربّ بني إسرائيل محاييا إذا كانت التّوراة تصدر من مشكاة واحدة مع القرءان؟ فما هو ذا نراه يقضّل بني إسرائيل على من سواهم من الشّعوب، وفي بني إسرائيل نراه يفضّل بني لاوي؛ وقد يقول قائل: «فالله كذلك فضّل أمة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم على بقيّة الأمم، وكان ذلك أمرا صريحا في سورة البقرة حين يقول: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيدا.» وفي سورة آل عمران، التي تلي مباشرة سورة البقرة، يقول الحقّ جلّ ذكره: «كنتم خير أمة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون.» قلنا: إنّ الله إنّما شرط ذلك ولم يطلقه، فنحن خير أمة أخرجت للنّاس ما أقمنا على أمر الله تعالى نأمر بالمعروف الذي سنّه

ودلّ عليه، ونهى عن المنكر الذي حدّده. ونؤمن به واحدا أحدا لاشريك له، نفرّ له بالعبوديّة ونخضع لفردانيّته ونبتعد عن الشّرك به؛ وهي أشياء نأى عنها أكثر أهل الكتاب، ومن أهل الكتاب بنو إسرائيل: فإذن فالأمر ليس سواء فيما بين التّوراة والقرآن، وبين الإسلام واليهوديّة، وإنّما بينهما بون شاسع. «وكان مرتاحا لما يفكر فيه، فبدا له أن يدوّنه، ليس على الحاشية هذه المرّة ولكن في دفتره الذي كان حدّد في رأسه التّاريخ؛ وبعد أن اطمأنّ إلى سلامة ما كتبه وراجعه ليصحّح أخطاءه، بدا له أن يذكر طرفا من شمائل موسى عليه السّلام الذي كان جعله الله سببا في نجاة بني إسرائيل، كما بدا له أيضا أن كلّ هذا الخلل الذي كان يفكر فيه لم يكن منشؤه نيّ الله وإنّما كان على أيدي مجهولين كانوا أزمعوا التّحريف والتّصحيف لخدمة أغراضهم وتبيين أنّ بني إسرائيل دوننا عن غيرهم هم شعب الله المختار وإنّ الله قد مكّن لهم في الأرض وجعل باقي الشّعوب الأخرى الذين كانوا يسمّونهم الأميين خولا لهم وعبيدا. وقد ذكر الحافظ ابن كثير في كتاب «البداية والنّهاية» الكثير من تلك الشّمائل فقال: «باب فضائل موسى عليه السّلام وشمائله وصفاته ووفائه. قال الله تعالى: «وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا<sup>(٥١)</sup> وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا<sup>(٥٢)</sup> وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا<sup>(٥٣)</sup>». وقال تعالى: «قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي.» وتقدّم في الصّحّاحين عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تفضلوني على موسى فإنّ النّاس يصعقون يوم القيامة فأكون أوّل من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطّور.» وقدّمنا أنّه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من باب الهضم والتّواضع والآفه صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدّنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض وقال تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ

نُوحَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ. «إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا<sup>(١٦٤)</sup>». وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا<sup>(١٦٩)</sup>». قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَارِيُّ حَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ رُوحِ بْنِ عِبَادَةَ عَنْ عَوْفٍ عَنِ الْحَسَنِ وَمُحَمَّدِ وَخَلَّاسٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سَتِيرًا لَا يَرَىٰ جِلْدَهُ شَيْءَ اسْتَحْيَاءٍ مِنْهُ فَأَذَاهُ مِنْ أَذَاهِ مَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتَرُ هَذَا التَّسْتَرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ أَوْ أَدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يَبْرُئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَىٰ فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحِجْرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَأَنَّ الْحِجْرَ عَدَا بِثُوبِهِ فَأَخَذَ مُوسَىٰ عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحِجْرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثُوبِي حِجْرٌ ثُوبِي حِجْرٌ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عَرِيانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَبَرَّأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحِجْرَ فَأَخَذَ ثُوبَهُ فَلَبَسَهُ وَطَفِقَ بِالْحِجْرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنْ بِالْحِجْرِ لَنَدْبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا<sup>(١٦٩)</sup>». «وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ وَهَمَّامِ بْنِ مَنْبَهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ هَمَّامٍ عَنْهُ بِهِ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ الْعَقِيلِيِّ عَنْهُ. «وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ كَانَ مِنْ وَجَاهَتِهِ أَنَّهُ شَفَعَ فِي أَخِيهِ عِنْدَ اللَّهِ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ وَزِيرًا فَأَجَابَهُ اللَّهُ إِلَىٰ سُؤَالِهِ وَأَعْطَاهُ طَلْبَتَهُ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا كَمَا قَالَ: «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا<sup>(٥٣)</sup>» ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَمًا فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ

ما أريد بها وجه الله فأتيت النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوزي بأكثر من هذا فصبر.» وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران عن الأعمش به وقال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن حجاج سمعت إسرائيل ابن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان عن زيد بن أبي زائد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئا فأني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر.» قال وأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مال فقسّمه قال فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة فثبتت حتى سمعت ما قالاً ثم أتيت رسول الله فقلت يا رسول الله إنك قلت لنا لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا وأني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشقّ عليه ثم قال: «دعنا منك فقد أوزي موسى أكثر من ذلك فصبر.» وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السدي عن الوليد به وقال الترمذي غريب من هذا الوجه وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّ بموسى وهو قائم يصلي في قبره ورواه مسلم عن أنس وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه مرّ ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلم عليه قال: «فسلمت عليه فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكي لأنّ غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممّا يدخلها من أمّتي.» وذكر إبراهيم في السماء السابعة وهذا هو المحفوظ وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس من أنّ إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل

كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أنّ الذي عليه الجادة أنّ موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة وأنّه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كلّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثمّ لا يعودون إليه آخر ما عليهم وأنفقّت الروايات كلّها على أنّ الله تعالى لما فرض على محمّد صلى الله عليه وسلّم وأمّته خمسين صلاة في اليوم والليلة فمرّ بموسى قال ارجع إلى ربك فسله التّخفيف لأمتك فإنّي قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشدّ المعالجة وأنّ أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فلم يزل يتردّد بين موسى وبين الله عزّ وجلّ ويخفّف عنه في كلّ مرة حتّى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة وقال الله تعالى هي خمس وهي خمسون أي بالمضاعفة فجزى الله عنّا محمّداً صلى الله عليه وسلّم خيراً وجزى الله عنّا موسى عليه السّلام خيراً وقال البخاريّ حدّثنا مسدّد حدّثنا حصين ابن نمير عن حصين بن عبد الرّحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوماً فقال: «عرضت عليّ الأمم ورأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق فقيل هذا موسى في قومه.» هكذا روى البخاريّ هذا الحديث ههنا مختصراً وقد رواه الإمام أحمد مطوّلاً فقال حدّثنا شريح حدّثنا هشام حدّثنا حصين بن عبد الرّحمن قال كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذي انقضّ البارحة قلت أنا ثمّ قلت إنّي لم أكن في صلاة ولكن لدغت قال وكيف فعلت قلت استرقيت قال وما حملك على ذلك قال قلت حديث حدّثناه الشّعبيّ عن بريدة الأسلميّ أنّه قال لا رقية إلا من عين أو حمة فقال سعيد يعني ابن جبير قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ثمّ قال حدّثنا ابن عبّاس عن النّبّيّ صلى الله عليه وسلّم قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النّبّيّ ومعه الرّهط والنّبّيّ معه الرّجل والرّجلان والنّبّيّ وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فقلت هذه أمّتي فقيل هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ثمّ قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقيل هذه أمتك

ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.» ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم لعلمهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم لعلمهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا قط وذكروا أشياء فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه.» فأخبروه بمقالتهم فقال: «هم الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يتطيطرون وعلى ربهم يتوكلون.» فقام عكاشة بن محيصن الأسدي فقال أنا منهم يا رسول الله قال أنت منهم ثم قام آخر فقال أنا منهم يا رسول الله فقال: «سبقك بها عكاشة.» وهذا الحديث له طرق كثيرة جدا وهو في الصحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأحوالها وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيرا وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مرارا وكررها كثيرا مطولة ومبسوطة ومختصرة وأثنى عليه بليغا وكثيرا ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه كما قال في سورة البقرة: «وَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(١٠١)</sup>». وقال تعالى: «الم<sup>(١)</sup> اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ<sup>(٢)</sup> نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ<sup>(٣)</sup> مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ<sup>(٤)</sup>». وقال تعالى في سورة الأنعام: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ<sup>(١١)</sup> وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ<sup>(٩٦)</sup>»  
فأثنى تعالى على التّوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحا عظيما وقال  
تعالى في آخرها: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ  
وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ<sup>(١٥٤)</sup> وَهَذَا  
كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ<sup>(١٥٥)</sup>». وقال تعالى  
في سورة المائدة: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ  
الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ  
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْرَوْا  
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ<sup>(٤٤)</sup>  
«إلى أن قال: «وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ<sup>(٤٧)</sup> وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ  
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ». الآية. فجعل القرآن  
حاكما على سائر الكتب وجعله مصدقا لها ومبيئا ما وقع فيها من  
التّحريف والتّبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من  
الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصورها لهذا دخلها ما  
دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهمهم وقصورهم في علومهم  
ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم  
القيامة ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما  
لا يحد ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف وقال تعالى في سورة  
الأنبياء: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ<sup>(٤٨)</sup>  
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ<sup>(٤٩)</sup> وَهَذَا ذِكْرُ  
مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ<sup>(٥٠)</sup>». وقال الله تعالى في سورة  
القصص: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ  
مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا  
وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ<sup>(٤٨)</sup> قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا  
أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ<sup>(٤٩)</sup>». فأثنى الله على الكتابين وعلى الرّسولين

عليهما السلام وقالت الجن لقومهم إننا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى وقال ورقة بن نوفل لما قصّ عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم خبر ما رأى من الأول الوحي وتلا عليه: «اقرأ باسم ربك الذي خلق<sup>(١)</sup> خلق الإنسان من علق<sup>(٢)</sup> اقرأ وربك الأكرم<sup>(٣)</sup> الذي علم بالقلم<sup>(٤)</sup> علم الإنسان ما لم يعلم<sup>(٥)</sup>». قال سبوح سبوح هذا التاموس الذي أنزل على موسى بن عمران. وبالجملة فشرية موسى عليه السلام كانت عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألبياء وملوك وأمراء وسادات وكبراء لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قرده وخنزير ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.» وذكر ابن كثير أيضا حجة موسى عليه السلام في كتابه فقال: «حجته عليه السلام إلى البيت العتيق. قال الإمام أحمد حدثنا هشام حدثنا داود بن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بوادي الأزرق فقال: «أي واد هذا؟» قالوا: «وادي الأزرق.» قال: «كأنّي أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جوار إلى الله عزّ وجلّ بالتلبية.» حتى أتى على ثنية هرشاء فقال: «أي ثنية هذه؟» قالوا: «هذه ثنية هرشاء.» قال: «كأنّي أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة (قال هشيم يعني ليفا) وهو يلي.» أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعا إنّ موسى حجّ على ثور أحمر وهذا غريب جدًا وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عديّ عن ابن عون عن مجاهد قال كنّا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال إنّه مكتوب بين عينيه ك ف ر قال ما يقولون قال يقولون مكتوب بين عينيه ك ف ر فقال ابن عباس لم أسمع قال ذلك ولكن قال أمّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم وأمّا موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ انْحَدَرَ مِنَ الْوَادِي يَلْبِي قَالَ هَشِيمُ الْخَلْبَةُ اللَّيْفُ ثُمَّ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَسْوَدَ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةَ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَيْتُ عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ فَأَمَّا عَيْسَى فَأَبْيَضُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ وَأَمَّا مُوسَى فَأَدَمُ جَسِيمٌ قَالُوا فإِبْرَاهِيمَ قَالَ انظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا يُونُسُ حَدَّثَنَا شَيْبَانُ قَالَ حَدَّثَ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ حَدَّثَنَا ابْنُ عَمَّ نَبِيِّكُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى بْنَ عَمْرَانَ رَجُلًا طَوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ وَرَأَيْتُ عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيْضِ سَبَطَ الرَّأْسَ.» وَأَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ بِهِ وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ حَدَّثَنَا مَعْمَرُ قَالَ الرَّهْرِيُّ وَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُسْرِي بِي لَقِيتُ مُوسَى فَنَعْتَهُ فَقَالَ رَجُلٌ قَالَ حَسْبَتْهُ قَالَ مُضْطَرِبَ رِجْلَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ وَلَقِيتُ عَيْسَى فَنَعْتَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَبِيعَةُ أَحْمَرَ كَأَنَّهَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ يَعْنِي حَمَامًا قَالَ وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُهُ وَلَدٌ بِهِ الْحَدِيثُ وَقَدْ تَقَدَّمَ غَالِبُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي تَرْجُمَةِ الْخَلِيلِ. «ذَكَرَ وَفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.» - قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (وَفَاةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ) حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُوسَى حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنْبَأَنَا مَعْمَرُ عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ أَرْسَلَ مَلِكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ فَقَالَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدِ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ قَالَ ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِمَا غَطَّتْ يَدَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةَ قَالَ أَيُّ رَبِّ ثُمَّ مَاذَا قَالَ ثُمَّ الْمَوْتَ قَالَ فَالآنَ قَالَ فَسَأَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَدْنِيهِ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَةً بِحَجَرٍ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَوْ كُنْتُ ثُمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكُثَيْبِ الْأَحْمَرِ.» قَالَ وَأَنْبَأَنَا مَعْمَرُ عَنْ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلّم نحوه وقد روى مسلم الطّريق الأوّل من حديث عبد الرزّاق به ورواه الإمام أحمد من حديث حمّاد بن سلمة عن عمّار بن أبي عمّار عن أبي هريرة مرفوعاً وسيأتي وقال الإمام أحمد حدّثنا الحسن حدّثنا ابن لهيعة حدّثنا أبو يونس يعني سليم بن جبير عن أبي هريرة قال الإمام أحمد لم يرفعه قال جاء ملك الموت إلى موسى عليه السّلام فقال أجب ربّك فلطم موسى عين ملك الموت ففقاها فرجع الملك إلى الله فقال إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت قال وقد فقا عيني قال فردّ الله عينه وقال ارجع إلى عبدي فقل له الحياة تريد فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة قال ثمّ مه قال ثمّ الموت قال فالآن يا ربّ من قريب تفرّد به أحمد وهو موقوف بهذا اللفظ وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال معمر وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله فذكره ثمّ استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله أنّ ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السّلام كما جاء جبريل في صورة أعرابي وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أوّلاً وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك ولطمه ففقا عينه لأنّه دخل داره بغير إذنه وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن ثمّ أورد الحديث من طريق عبد الرزّاق عن معمر عن همّام عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه قال له أجب ربّك فلطم موسى عين ملك الموت ففقا عينه.» وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاريّ ثمّ تأوّل على أنّه لما رفع يده ليلطمه قال له أجب ربّك وهذا التّأويل لا يتمشّي على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله أجب ربّك فلطمه ولو استمرّ على الجواب الأوّل لتمشّي له وكأنّه لم يعرفه في تلك الصّورة ولم يحمل قوله هذا على أنّه مطابق إذا لم

---

يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة وكان قد سبق في قدرة الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه كما سنبيته إن شاء الله تعالى وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت رب أدني إلى الأرض المقدسة رمية حجر ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتية وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيد البشر ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكتيب الأحمر». وقال الإمام حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وسليمان التيمي عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكتيب الأحمر». ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به وقال السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوف هارون فانت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها وإذا هم ببيت مبني وإذا هم بسير عليه فرش وإذا فيه ریح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه قال يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير قال له موسى فتم عليه قال إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب علي قال له لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فتم قال يا موسى نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد حسه قال يا موسى خدعتني فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء فلما رجع موسى إلى قومه

---

وليس معه هارون قالوا فإن موسى قتل هارون وحسده حب بني إسرائيل له وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى وكان في موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال لهم ويحكم كان أخي أفتروني أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين ثم دعا الله فنزل السّير حتى نظروا إليه بين السّماء والأرض ثم إن موسى عليه السّلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها السّاعة فالتزم موسى وقال تقوم السّاعة وأنا ملتزم موسى نبي الله فاستلّ موسى عليه السّلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع فلما جاء يشوع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا قتلت نبي الله فقال لا والله ما قتلته ولكنّه أستلّ منّي فلم يصدّقوه وأرادوا قتله قال فإذا لم تصدّقوني فأخروني ثلاثة أيّام فدعا الله فأتى كلّ رجل ممّن كان يحرسه في المنام فأخبر أنّ يوشع لم يقتل موسى وإنّا قد رفعناه إلينا فتركوه ولم يبق أحد ممّن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح وفي بعض هذا السّياق نكارة وغرابة والله أعلم وقد قدّمنا أنّه لم يخرج أحد من التّيه ممّن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرّجلان المذكوران فيما تقدّم اللّذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدّخول عليهم وذكر وهب بن منبّه أنّ موسى عليه السّلام مرّ بملاً من الملائكة يحفرون قبراً فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج فقال يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد من عباد الله كريم فإن كنت تحبّ أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدّد فيه وتوجّه إلى ربّك وتنفّس أسهل تنفّس ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فصلّت عليه الملائكة ودفنوه وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنّه مات وعمره مائة وعشرون سنة وقد قال الإمام أحمد حدّثنا أمية بن خالد ويونس قال حدّثنا حماد بن سلمة عن عمّار بن أبي عمّار عن أبي هريرة عن النّبي صلى الله عليه وسلّم قال يونس رفع هذا الحديث إلى النّبي صلى

الله عليه وسلّم قال كان ملك الموت يأتي النَّاسَ عيانا قال فأتى موسى عليه السّلام فلطمه ففقا عينه فأتى ربّه فقال يا ربّ عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعتبت عليه وقال يونس لشققت عليه قال له اذهب إلى عبدي فقل له فليضع يده على جلد أو مسك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه فقال له فقال ما بعد هذا قال الموت قال فالآن قال فشمّه شمّة فقبض روحه قال يونس فردّ الله عليه عينه وكان يأتي النَّاسَ خفية وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدم عن حمّاد بن سلمة به فرفعه أيضا. «وكتب طاجيك: «ولولا أنّي أخاف الإطالة لأطلت ولأفضت؛ ولكتّها أويقات صفاء أغتتمها بين الفينة والفينة لأنسى؛ لأتدارك ما فاتني من أمري، وقد كنت أحسب أنّ الله تعالى قد منّ عليّ بقرب الفرج، فإذا أيّامي كما هي، مداومة على وحدة دون زوجة أو أبناء أو والد يفرّج قلبه عنيّ أو والدة أرتاح إلى جوارها؛ والله الأمر... وأنا على العهد الذي قطعته على نفسي أن أنهي ما بدأت فيه من هذه الأحاديث التي أمزج فيها بين ما أجده في أسفار العهد القديم وما تسنح الفرصة للعثور عليه في كتب المتقدمين وبعض المتأخّرين من مؤرّخي الإسلام جزاهم الله عنّا خير الجزاء؛ و....» أخذته سنة خفيفة، لم ير أخفّ منها على النَّفس، ولكن رغم خفتها فلها ثقل على القلب الذي تزايدت ضرباته، وأصبح كأنّما قائم عليه ضارب على طبل لا ينفكّ على نقره صعودا ونزولا، وهو يرى قلبه حتّى وهو نائم؛ وفي مكان خفيّ من باطنه الذي لا يرى بدا له أنّه يسمع صراخا أو عويلا، وكلّما ارتفع ذلك الصّراخ أو العويل يحسّ كأنّ منخسا ينغرز في حشاشة قلبه فيحدث ذلك ألما في نفسه؛ ويروم التّعبير عن الألم الذي يحسّه، عن قلّة حيلته وقلّة صبره؛ فلورام ذلك وطاوعته جوارحه لكان استغاث، طلب نجدة ممّن هو قريب منه أو بعيد عنه، ولوشت استغاثته بمكانه، فجاءه ممّن كان سمع لينقذه ممّا هو فيه من التّهافت، من السّقوط، الذي كان يشدّه إلى الأعماق،

إلى هوة ما لها قرار... وهو يريد أن يعرف صاحب الصّراخ على الأقل، أن يعرف مصدر ألمه، فيركّز عينيه، يستجمع كلّ قواه في نظراته التي كانت ترتدّ إليه خاسئة وهي حسيرة؛ وبعد المجاهدة والمكابرة على الاستسلام، بدأت تتضح لعينيه كما من وراء ستار أو كأنما أخيلة على جدار، مجرد ظلال على حائط، ذكّرت به بشيء كان رآه في إحدى حواضر الإسلام حين سأل قال له قائل إنّه شيء يتخذونه في المسامرات لإلهاء الناس، ويسمونه عندهم مسرح الظلّ، لا يرى أجسادا حقيقية رغم أنّ الأصوات التي كانت تصدر هي أصوات آدمية، والشّيء الوحيد الذي كان يذكر بما هو بشريّ في تلك القعدات كانت الحركات وحدها، التي قال له ذلك القائل إنّ هناك أشخاصا في مكان ما هم الذي يحركون تلك الدّمى التي كانت تأتي تلك الحركات؛ وقد كان ذلك شيئا جديدا عليه، ولم يصدّقه بينه وبين نفسه، بل كان يضحك عليه في سرّه؛ ولكنّه يراه الآن يتكرّر من جديد أمام ناظره؛ وكان الذي يراه في البداية كأنما شخص جالس، وكأنما شخص آخر يجلس قبالته على مبعدة، وكان أحدهما يلقن الآخر أو يعلمه أو يشهده؛ وذكّره ذلك بمجالس درسه في بغداد؛ إلا أنّ البون بين تلك المجالس وما يراه الآن أمامه كبير، ولا يوصف، ولا يمكن الإحاطة بمداه، فليس هناك كتب ولا دفاتر، ولا كنانيش صغيرة، ولا أقلام قصب، ولا مداد ولا حبر، ولكن كان الدّرس تمرينا على الصّراخ، كان تمرينا على إحداث الألم بالكلمات أو الإشارات، أو كأنما كان تمرينا على الوسواس وبالوساوس... والأيدي، والأفواه، وكلّ الجوارح كانت تعمل في نفس الوقت، وأصوات دقوف تأتي من أكثر الاماكن بعدا؛ وذاتك الشّخصان يفصحان أخيرا في ظلالهما، ويتحوّل أحدهما إلى شيخ، والاخر شاب أو شابّ يستعدّ لمفارقة شبابه إلى كهولته؛ وما أن تبدأ أصوات الدقوف حتّى تبدأ الكلمات، ويخفّ الصّراخ، ويسمع النّغم والجرس آتئين من جهة الشّيح الذي كان ظلّه يقول إنّ له لحية كثة كبيرة، وإنّ يديه اللّتين

كانتا تتحرّكان كأنّ وجدا باطنا كان يحركهما فتنتطلقان إلى الأعالي كانتا رقيقتين مستدقتين. وإنّ عينيه كانتا مغلقتين بينما كان الفم يرحل في مساررة بلا حدود؛ وفي سنته الخفيفة كان طاجيك يحاول أن يفهم تلك الكلمات التي كانت تأسره، كانت تشدّه إليها فتبعث فيه خدرا، تبعث فيه لذاذات لم يجربها من قبل في حياته؛ وأخيرا بعد جهد سمع، خيل إليه أنّه يشهد المبعث، أنّه يشهد الولادة، ويشهد الخلق من عدم، وصوت الشّيخ يسافر فيه، وذلك الجالس قبالته يغبر مع تغييره، يردّد ما كان يقوله ليتعلّم، ليصعد مع النّبر، وتتردّد روحه في الجرس الصّاعد إلى ذرى وسماوات لا تدرك: «قال رضي الله عنه: طس، سراج من نور الغيب، وبدا وعاد، وجاوز السّراج وساد، قمر تجلّى من بين الأقمار، برجه في فلك الأسرار، سمّاه الحقّ «أميّا» لجمع همّته، و «حرميّا» لعظم نعمته، و «مكيّا» لتميكنه عند قربه. شرح صدره، ورفع قدره، وأوجب أمره فأظهر بدره، أضاء سراجة من معدن الكرامة. ما أخبر إلّا عن بصيرته، ولا أمر بسنته إلّا عن حقّ سيرته، حضر فأحضر، وأبصر فخبّر، واندلّ فحدّد، ما أبصره أحد على التّحقيق سوى الصّدّيق؛ لأنّه وافقه ثمّ رافقه لئلاّ يبقى بينهما فريب، ما عرفه عارف إلّا جهل وصفه: «الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون.» أنوار النبوّة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في النّوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم، همّته سبقت الهمم ووجوده سبق العدم وإسمه سبق القلم؛ لأنّه كان قبل الأمم ما كان في الأفاق ووراء الأفاق ودون الأفاق أظرف وأشرف وأعرف وأنصف وأرأف وأخوف واعطف من صاحب هذه القضيّة، وهو سيّد البريّة، الذي إسمه أحمد، ونعته أوحد، وأمره أوكد، وذاته أوجد، وصفته أمجد وهمّته أفرد يا عجبا ما أظهره وأنظره وأكبره وأشهره وأنوره وأقدره وأبصره لم يزل كان، كان مشهورا قبل الحواديث والكواين والكوان

ولم يزل كان مذكوراً قبل القبل، وبعد البعد والجواهر والألوان جوهره صفويّ، كلامه نبويّ، علمه علويّ، عبارته عربيّ، قبيلته لا «مشرقيّ ولا مغربيّ» جنسه أبويّ، رفيّه رفويّ، صاحبه أميّ، بإشارته أبصرت العيون، به عرفت السرائر والضّمائر، والحقّ أنطقه، والدليل صدّقه، والحقّ أطلقه، هو الدليل والمدلول، هو الذي جلا الصدأ عن الصّدر المغلول. هو الذي أتى بكلام قديم، لا محدث ولا مقول، ولا مفعول بالحقّ موصول غير موصول، الخارج عن المعقول، هو الذي أخبّ عن البداية والنّهيات، ونهايات النّهاية. رفع الغمام، أشار إلى البيت الحرام. هو التّمَام، هو الهمام، هو الذي أمر بكسر الأصنام، الذي أرسل إلى الأنام، والأجرام فوقه غمامة برقت وتحتة برقة لمعت، أشرقت، وأمطرت، وأثمرت، العلوم كلّها قطرة من بحره، الحكم كلّها غرفة من نهره، الأزمان كلّها ساعة من دهره، الحقّ به، وبه الحقيقة هو الأوّل في الوصلة، هو الآخر في النّبوة، والباطن بالحقيقة، والظاهر بالمعرفة، ما وصل إلى علمه عالم، لا اطّلع على فهمه حاكم، الحقّ ما أسلمه إلى خلقه؛ لأنّه هو، وأتى هو، وهو هو، ما خرج عن ميم (محمّد)، وما دخل في حائه أحد، حاؤه ميم ثانية، والدال ميم أوّله، دالّه دوامه، ميمه محلّه، حاؤه حاله، حاله ميم ثانية، أظهر مقاله، أبرز أعلامه، أشاع برهانه، أنزل فرقانه، أطلق لسانه، أشرق جنانه، أعجز أقرانه، أثبت بنيانه، رفع شأنه. إن هربت من ميادينه فأين السبيل؟ فلا دليل، يا أيّها العليل، وحكم الحكماء عند حكمته كئيب مهيل..»

وفي الظلال بين الظلّ والظلّ، والأصوات ترتفع وتنخفض، ولا أنيس سوى الشّيخ والجليس، ولا نور إلّا ما كان من نور يصدر عنهما، فيجليّ الخفاء، خفاء النفوس والظلمات الدّاجيات، وعلى ذبالة نور قرأ، خيل إليه على حائط خارج الظلال، «الحلاج، حلاج القلوب والنفوس، ومجليّ كدوراتها، القائل بالحقّ، العالم بأسرار الأرواح، من خالف الزّمان إلى ما بعد الزّمان، وأوجد مخرجاً من المكان خارج المكان، أبو

المغيث الحسين بن منصور، بيضاء فارس مسكنه، وبواسط العراق محله... صحب السادة والمشايخ أهل الأحوال، الجنيد، وأبا الحسن النوري، وعمرا المكي، والفوطي، وغيرهم من أفاضل زمانهم... والمشايخ في أمره مختلفون. رده أكثر المشايخ، ونفوه، وأبوا أن يكون له قدم في التصوف. وقبله من جملتهم أبو العباس بن عطاء؛ وأبو عبد الله، محمد خفيف؛ وأبو القاسم، إبراهيم بن محمد نصر آبادي؛ وأثنوا عليه، وصححو له حاله، وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحققين: حتى قال محمد بن خفيف: «الحسين بن منصور عالم رباني». قتل ببغداد بباب الطاق، يوم الثلاثاء، لست بقين لذي القعدة، سنة تسع وثلثمائة.<sup>\*\*\*</sup>

١ - سمعت عبد الواحد بن بكر، يقول: سمعت أحمد بن فارس، يقول: سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((حجيم بالاسم فعاشوا؛ ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا؛ ولو كشف لهم الحجاب عن الحقيقة ماتوا)). ٢ - قال، وكان الحلاج، يقول: ((إلهي! أنت تعلم عجزى عن مواضع شركك، فاشكر نفسك عني، فإنه الشكر لا غير)). ٣ - قال، وسمعت الحلاج، يقول: ((من لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له؛ ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال)). ٤ - وسمعت عبد الواحد، يقول: سمعت أحمد بن فارس، يقول: سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((أسماء الله تعالى، من حيث الإدراك إسم؛ ومن حيث الحق حقيقة)). ٥ - قال، وسمعت الحسين، يقول: ((خاطر الحق هو الذي لا يعارضه شيء)). ٦ - قال، وسمعت الحسين، يقول: ((إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله تعالى إليه بخاطره، وحرس سره أن يسبح فيه خاطر غير الحق)). ٧ - قال، وسئل الحسين: ((لم طمع موسى - عليه السلام - في الرؤية وسألها؟)). فقال: ((لأنه انفرد للحق، وانفرد الحق به، في جميع معانيه. وصار الحق مواجهه في كل منظور إليه، ومقابله دون كل محظور لديه؛ على

الكشف الظاهر إليه، لا على التَّغْيِب؛ فذلك الَّذِي حمّله على سؤال  
الرؤية لاغير)). ٨ - سمعت أبا الحسين الفارسيّ، قال: أنشدني ابن  
فاتك، للحسين ابن منصور: أنت بين الشَّغاف والقلب تجري مثل  
جري الدَّموع من أجفاني وتحلّ الضَّمير، جوف فؤادي كحلول الأرواح  
في الأبدان ليس من ساكن تحرك إلا أنت حرّكته. خفي المكان ياهللاً،  
بدا لأربع عشر لثمان، وأربع، وثنتان)). ٩ - سمعت عبد الواحد  
السياريّ، يقول: سمعت فارسا البغداديّ، يقول: سألت الحسين  
بن منصور عن المريد، فقال: ((هو الرّامي بقصده إلى الله عزّ وجلّ:  
فلا يعرج حتّى يصل)). ١٠ - وبه قال: سمعت الحسين بن منصور،  
يقول: ((المريد الخارج عن أسباب الدّارين، أثرة بذلك على أهلها)).  
١١ - سمعت محمّد بن محمّد بن غالب، يقول: قال الحسين بن  
منصور: ((إنّ الأنبياء - عليهم السّلام - سلّطوا على الأحوال، فملكوها،  
فهم يصرفونها، لا الأحوال تصرفهم. وغيرهم سلّطت عليهم الأحوال،  
فالأحوال تصرفهم، لاهم يصرفون الأحوال)). ١٢ - وبه قال، سمعت  
الحسين بن منصور يقول: ((الحقّ هو المقصود إليه [بالعبادات،  
والمصمود إليه] بالطّاعات، لا يشهد بغيره، ولا يدرك بسواه. بروائح  
مراعاته تقوم الصّفات، وبالجمع إليه تدرك الرّاحات)). ١٣ - وبه قال،  
سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((لا يجوز لمن يرى أحدا، أو يذكر  
أحدا، أن يقول: إنّي عرفت الأحد، الَّذي ظهرت من الأحاد)). ١٤ - وبه  
قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((السنة مستنطقات، تحت  
نطقها مستهلكات. وأنفس مستعملات تحت استعمالها مستهلكات)).  
١٥ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((حياء الرّبّ أزال  
عن قلوب أوليائه سرور المنّة؛ بل حياء الطّاعة أزال عن قلوب أوليائه  
شهود سرور الطّاعة)). ١٦ - وبه قال، أنشدت للحسين بن منصور:  
((مواجيد حقّ، أوجد الحقّ كلّها وإن عجزت عنها فهوم الأفكار وما  
الوجد إلاّ خطرة، ثمّ نظرة تثير لهيبا بين تلك السّرائر إذا سكن الحقّ

السَّريرة ضوعفت ثلاثة أحوال، لأهل البصائر وحوال به رمت ذرى السَّرِّ فانثنت إلى منظر أفناه عن كلِّ ناظر)) ١٧ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((من أسكرته أنوار التَّوحيد، حجنته عن عبادة التَّجريد: بل من أسكرته أنوار التَّجريد، نطق عن حقائق التَّوحيد: لأنَّ السَّكران هو الَّذي ينطق بكلِّ مكتوم)) ١٨ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((من التمس الحقَّ بنور الإيمان، كان كمن طلب الشَّمس بنور الكواكب)) - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول لرجل من أصحاب الجبَّائي: ((لما كان الله تعالى أوجد الأجسام بلا علة، كذلك أوجد فيها صفاتها بلا علة. وكما لا يملك العبد أصل فعله، كذلك لا يملك فعله)) ٢٠ - وبه قال، سمعت الحسين بن منصور، يقول: ((ما انفصلت البشريَّة عنه، ولا اتَّصلت به)) «وهو لا يريد أن يتحدَّث عن نفسه، ويتحدَّث بلسان من لزمه قربه، ومن لم تجافه مجالسته، وكان في قربه بعد، وفي بعده قرب، وأسرار القلوب لا تحدّها الحدود، ولأنَّه عرف فقد تجافى وابتعد، وظنَّه من لم يعرف جاهلاً قد تسربل في ظنونه، وفي مجافاته قد احتجنه جنونه، فقارق ولم يقارب؛ وكان الوحيد في جماعة، وخارج الجماعة، وأغروا به فنابذوه، وأوغروا صدور الخلق عليه فناكفوه؛ ورغم وحدانيته فقد كان قريباً، وكان للحقِّ نسيباً، فلم يلهه بغض الخلق عن الغرق في بحار الشَّوق، ولم يلهه غباره عن دثاره، ولا أوظاره عن أذكاره، وكان يتكلَّم بغير لسان، وإذا أشار فإتما كانت إشارته بالبنان، فيعرف من عرف عنه، أنه كان بالجنان أهيب، وفي وضع الفرديَّة أصوب، فقال، ولم يقل، وأفهم ولم يفهم، وكان النَّاس في أمره شذرمذر، بين مشفق شفيق، وبين مبغض لا يرضيه من أمره إلا أن يورده موارد الهلكة... وتطلَّع إلى القادم من أرض النُّور، وهو نور، ورغم الحداثة في طريق السُّلوك كان قد عرف أشياء كثيرة من مخاطر الطَّريق، ومن خطرات القلوب، وغيره كان رأى آخرين، وعرف من أحوالهم، والتبس بلباسهم، وصار واحداً من

---

جملة من حضر، وواحدا من جملة من غاب فكان حاضرا؛ وأشار إليه ليفهمه، ومن ثم أشار إلى جوار المباحدة في الزمان، والمسكنة في تلافيف المكان، فكان في زيّ اليفاعة، مع شيخ من الشيوخ، في بغداد أو واسط، أو الكوفة، أو البصرة، ولم يكن من أمر الأسماء ما بهم سوى أنّ يظلّ أثرا لمن ضيّع، أو علامة لمن رام الرؤية بالعين التي هي خلاف رؤيا القلب بغير بصر الناظرة. وهي العين... وكان رأى، وكان يرى بعد أن رأى، ولم تفارقه مرائيه، وكان يجد منها همّ المهمومين، وضنك المشرفين على الموت، وحاول أن ينسى أنّه ابتلي بالرؤيا، فجاء الشيخ، جانبه قليلا، وجلس منه على مبعده... كان الشيخ يراه في غير حاله، وعلم من أمره شيئا يسيرا فأمسك، وترك له أن يفصح.

قال:

- رأيت، يا شيخي؛ فماذا أفعل؟

أجابه شيخه،

- اكنم ما وسعك الإمكان.

قال:

- لقد كتمت فما وسعني الكتمان؛ فماذا أفعل، يا شيخي؟

قال الشيخ:

- اكنم. إنّ أمرك ليس ممّا تتّسع له الصّدور، وتنفّث له أذهان

النّاس فيفهمونه؛ ولو سمعه سامع منك لحرّض عليك؛ ولسبقتك

العامة قبل الخاصّة إلى الوثوب بك؛ وأنت وحيد...

قال:

- إنّني لست وحيدا. معي الله.

قال الشيخ:

- ونعم بالله؛ ولكنك ستكون في مقام البلاء... وستكون في مقام

الابتلاء...

كان صدره يمور، وكان تقاطبه الكثير من الأمور، واستحال إلى

كلام من غير كلام، ورام أن يكتم، أن يترك الصّوت حبيسا ، فجاش باطنه، واستنارته أحزان، ووطن العزم على الخوض في الغمار وتحدي الأخطار... والشيخ يرى اليافع الذي كانه، فتخضلّ لحيته بدموع فرحة علوية، وهوروح شاقّة بعد أن كان جسدا خالصا وكانت الرّوح سجيّنة فيه، والرّوح اليوم هفافة، تطير من غير أجنحة، والعين طاقة على ما كان، ولم يكن في الحسبان؛ وقال للنور، الذي ما كان نورا، وصار اليوم نورا على نور دون نور الله... وقد قال حين أعجزه الكتمان، وقال أمام شيخه، ما لا يحيط به لسان، قبل أن تتلقّفه الأزقة والنّواصي، وقبل أن يسافر إلى بلدان وراءها بلدان، وهو المقيم الطّاعن الذي لم يسافر... وتفكر الجالس قبالتة على مبعده يسيرة وذكر لقاءه مع العدوية، وكيف أسرته بشعرها وكلامها، وكيف كان يصغي إليها، وهو يريد أن يتعلّم، يريد أن يخطو أولى خطوات على الدّرب الذي يضيق إلاّ على السّالّكين، الواصلين من أهل الله؛ وبينما ذكره تحمله إلى الأفاصي، كان شيخه الجديد يتطلّع ببصر حديد كأنه يرى الأمور عيانا بيانا، وبإشارة جديدة من يده كان يريه مقامات الوقوف، في ذلك المكان الذي ربّما كان واسط أو بغداد، أو البصرة أو الكوفة، وكان اليافع يقول شعرا، وكأنه يلفظ مع كلّ كلمة أو حرف فلذة من كبده:

(والله ما طلعت شمس ولا غربت\* إلاّ وحبك مقرون بأنفاسي/  
ولا جلست إلى قوم أحدثهم\* إلاّ وأنت حديثي بين جلاسي/ولا ذكرتك  
محزونا ولا فرحا\* إلاّ وأنت بقلبي بين وسواسي/ولا هممتُ بشرب الماء  
من عطش\* إلاّ رأيتُ خيالاً منك في الكاس/ولو قدرت على الإتيان  
جنتكم\* سعياً على الوجه أو مشياً على الرّاس/ويا فتى الحيّ إن غنيت  
لي طرباً\* فغنّي وأسفاً من قلبك القاسي/ما لي وللناس كم يلحونني  
سفاً\* ديني لنفسي ودين الناس للناس)

وخرج من مسالك طريق إلى طريق، وامتدّ به الطّريق، وهو يريد أن يفصح، أن يدلّهم عليه بما كان ينشد، لأنّ الكلام لم يعد قادرا على جلاء ما كان بالنّاس محصورا؛ وقال إنّ الحقّ هو غير الحقّ الذي كانوا يعرفونه، وأنّه جاء إليهم ليعلمهم أنّ الأوان قد حان، وأنّ العيان ليس عيان العين المجرّدة، وأنّ هناك حقيقة أخرى، لا بدّ لمن رام معرفتها أن يجلّي النّفس عن كدوراتها ويرى بعين قلبه، فالقلب موطن الأسرار، ومصدر المواجيد؛ وأوشك أن يقول شيئا، أن يقول لهم كما قال يسوع لمن كان يلتقيهم من حواريه، اتركوا أموالكم، اتركوا كلّ ما تملكون، واتبعوني إلى الملكوت، أحجم لأنّه أحسن أنّ الأوان لم يحن بعد، ولكنّ الأوان قد آن لهم لأن يصلبوه، لأنّهم أيسوا من مجادلته وخافوا على أنفسهم من حقيقته؛ وكان قال لهم إنّ ما يعبدون ليس ما يعبد، وما يعبدون دنيا زائلة، غرارة، فمن كان همّه المال اهتمّ به، وترك من هو أهل الهمة والاهتمام، وقال لهم أفيقوا من غفوتكم، أفيقوا من نومتكم؛ وكان أكثر ما أثقل عليهم منه شعره وشطحاته، وروعاته حين تأخذه السنّة، ويغشى عليه، وكان واضحا أنّ مقامه ليس مقامهم، وأنّهم في وادي، وهو في وادي آخر، على الضّفة الأخرى من الحياة، حياتهم الفانية الزائلة... وحين يفيق، يقول بعلو الصّوت فيسمعه القاسي والدّاني، وكأنّه من فلاة يؤدّن لمحشر قريب:

(لبيك لبيك يا سرّي ونجوائى\* لبيك لبيك يا قصدي ومعنائى/  
أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل\* ناديت إياك أم ناجيت إياي/ يا  
عين عين وجودي يا مدى هممي\* يا منطقي وعباراتي وإيماني/ يا كلّ  
كلّي يا سمعي ويا بصري\* يا جملي وتباعيضي وأجزائي/ يا كلّ كلّي وكلّ  
الكليّ ملتبس\* وكلّ كليّ ملبوس بمعنائى/ يا من به علقت روعي فقد  
تلفت\* وجدّا فصرت رهينًا تحت أهوائي/ أبكي على شجني من فرقتي  
وطني\* طوعًا ويسعدني بالنّوح أعدائي/ أدنو فيبعدني خوف فيقلقني\*

---

شوقاً تمكّن في مكنون أحشائي/ فكيف أصنع في حبّ كلّفتُ به\* مولاي  
قد ملّ من سقمي أطبائي/ قالوا: تداو به منه، فقلت لهم: يا قوم هل  
يتداوى الداء بالدائي/ حيّ لمولاي أضناني وأسقمني\* فكيف أشكو إلى  
مولاي مولائي!)

وجاءه الشيوخ، أصحاب العمائم، وتقاطروا عليه من كلّ حذب  
وصوب، وتركوا حلقات درسهم، وكتبهم، وأضايروهم، وأنهوا صلّاتهم  
على عجل، واصطحبوا معهم العامّة، وكانوا قد أزمعوا صلبه في ذلك  
اليوم؛ وخلال أيام كان الحاضر ينذر الغائب، وعلم الجميع أنّه على  
مفارقتهم مقيم، ولم يفهموا منطقته، وحسبوه يجدف، وقالوا إنّ  
ترك المحجّة، وترك الملّة، واستفتوا فجاءت الفتيا بفعل الأفاعيل به،  
وجاوزوا قليلاً ما سنّه الشرع في ذلك... وقالت طائفة: «نعمل به ما ذكر  
الله في كتابه في حدّ المفسد في الأرض.» وفتح أحدهم الكتاب الشريف  
الذي كان بين يديه، فتحه على سورة المائدة، وقرأ: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ  
يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا  
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ  
فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(٣٣)</sup>». واستدرك عليهم أحدهم  
فقال: «نستتبه، فقد قال الله تعالى بعد تلك الآية مباشرة: «إِلَّا الَّذِينَ  
تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>(٣٤)</sup>».

قالوا له يريدون تخويله من الموت:

- تب إلى الله. اشترحياتك بالتوبة قبل فوات الأوان.

قال:

- حبيبي أدرى بحالي.

قال أحدهم مستهجنًا:

- ومن حبيبيك؟

فأجابه واحد منهم:

- يعني الله.

قال شيخ معمم:

- الكافر، ويتقوّل على الله أيضا. فمتى كان الله حبيبا لأحد؟...

فقاطعهُ شيخ آخر كان يقف إلى جانبه، وتعمّد أن يسرّ إليه وأن لا يسمعه الآخرون، فقد أراد ان يلفت نظره إلى شيء موجود في كتاب الله وذكره الله في سورة آل عمران يؤكّد أنّه لا غضاضة في أن يحبّ الله عباده وأن يحبّهم وأن يحضّهم على محبّته ومحبّة رسوله:

- يا شيخ إذا كان يعني ذلك فلا ضرر منه فالله تعالى يقول: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»<sup>(٣١)</sup>.

تراجع الشيخ قليلا، غير أنّه ظلّ على رأيه في استتابته:

- تب إلى الله... قل إنّي أبراّ إليه ممّا أقول.

قال:

- المحبّون لا يتراجعون عن حبّ من يحبّون؛ فإذا كان ثمن حبّهم الموت فمرحى ومرحى...

وقال أناس ممّن حضر محاكمته، وكانوا لا يريدون أن يتحمّلوا جريرة إهدار دمه:

- فلنكتف بتعزيزه... فلندراً حدّ موته بشبهة أنّه التاث، وأنّه ليس في وعيه وهو يقول على الله ما يقول...

ولكنّ أصحاب العمائم كانوا يصرون على قتله، على كتم صوته، على قتل الشّعرفيه، لأنّ شعره كان يحمل شيئا لا يفهمونه، ربّما كان الله هناك، وهم لا يريدون أن يروا الله في شعر المحبّين، لأنّهم طوال حياتهم كانوا يحاربون الشّعراء؛ والله الذي أنزل فيهم ما أنزل لا يمكن لأيّ مجدّف أن يقحمه في أبيات الشّعركما تقحم الجمل الاعتراضية الاعتباطية في الجمل المفيدة؛ وما زالوا يقرؤون، ويجلدون أسماع معارضهم بالآية تلو الآية من سورة الشّعراء... «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

الْعَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦). « (غير أن أحدا منهم وإن كان يتلو بقية الآيات في سره وجهه، وصلاته، وقيامه وقعوده، لم يظن إلى الاستثناء الذي ذكره الله؛ وقد كان فريق من الصحابة الكرام فيهم من هو شاعر قد اهتم لتلك الآيات وخاف من عذاب الله حين أنزل ما أنزل فسألوا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فطمأنهم وأخبرهم أن الشعر ليس كله سواء فمن رام فيه القصد وناجح فيه عن الدين كما كان حسان ابن ثابت. رضي الله عنه. يفعل فلا خوف عليه من ذلك؛ ونزل جبريل الأمين ببقيّة الآيات، فكانت بردا وسلاما على الشعراء من أصحاب النبي؛ وما زالت الآيات تتلى وتتردد. وفيها طمأنة وسكينة، وفيها إقرار من الله تعالى وهو يقول: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.»

وأخذوه... قطعوا يده اليمنى، وهو يترنم ويقول:

(عجبتُ منك ومنيّ\* يا مُنيّة المُتمنيّ/ أدنيني منك حتّى\* ظننتُ أنّك أني/ وغبتُ في الوجد حتّى\* أفنيتني بك عنيّ/ يا نعمتي في حياتي\* وراحتي بعد دفني/ ما لي بغيرك أنسٌ\* من حيث خوفي وأمني/ يا من رياض معانيه\* قد حوت كلّ فيّ/ وإن تمنيت شيئا\* فأنت كلّ التمنيّ)

وأخذوه ثانية فقطعوا يده اليسرى، وهو يترنم أيضا. كان مع مولاه، ولمولاه، وهو يعلم أنهم سيقتلون فيه جسدا لطالما سجن روحه التي ما فتئت تتمرد، تريد أن تفارق سجنها إلى الأعلى، إلى الأقصاي التي لا يعلم مداها إلا من أحبّ بشوق، أحبّ بحرقة، أحبّ بصدود، وأحبّ بقرب، وأحبّ في البعد، وهو الدائم الاتصال، ودائم الانفصال، وهو القريب البعيد، المتباعد المتداني، الذي يدرك الحدود ولا تدركه الحدود... وكان يترنم ويقول، والشّيخ الذي كان جالسا على مبعده يري

النّور صاحب النّور ما كان يقول:

(أنا من أهوى ومن أهوى أنا\* نحن روحانِ حَلَلْنَا بَدَنًا/ فإذا أبصرتني أبصرتَه\* وإذا أبصرتَه كان أنا/ روحُه رُوحِي وروحي رُوحُه\* من رأى رُوحِيْنَ حَلًّا بَدَنًا)

وأخذه مرّة ثالثة... أخذه أمام الملاء، إلى طرف قصي من أطراف المدينة. أطراف بغداد التي ما ضاقت يوماً بالوافدين عليها، وقد ضاقت اليوم بأحد أبنائها، وهو يحمل ليصلب، وقبل صلبه، يقطعون فيه كلّ شيء يمكن أن يقطع؛ وقطعوا هذه المرّة رجله اليمنى، فما أحسنّ شيئاً، ولم يتأثر بألم البتر، وكأنّ الجسد الذي يقطع هو جسد لرجل آخر، أو لكائن آخر، ولم يبق فيه شيء كان يشعر أنّه منه، ولا يمكن أن يفصل عنه غير لسانه، وهو يترنّم، وهو يشدو، وهو لا يتوقّف عن التّغيير، فكان النّاس من حوله يسمعون ولا يفهمون، ولم يحضر محنته من أصحابه وخلائه وأهل مودّته إلا القليل، وهؤلاء وحدهم كانوا يفهمون عنه، ولا يدرون أيكون أم يضحكون. يبكون لأنّهم لم يروا أحداً فعل به كما يفعل الآن بسيدهم، بشيخهم، ويضحكون لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّه يرحل إلى عالم غير عالمهم، إلى أرض تنعدم فيها العوارض، ولا تبقى من الإنسان سوى جواهره التي لا يحتويها وعاء، وتظلّ تسافر من سماء إلى سماء؛ وكانوا ينظرون إليه، وتمنّوا لو كانوا معه، أو كانوا مكانه، وهو يقول:

(يا موضع الناظر من ناظري\* ويا مكان السرّ من خاطري/ يا جملة الكلّ التي كلّها\* أحبّ من بعضي ومن سائري\*\* سكوتٌ ثمّ صمتٌ ثمّ خرّسٌ\* وعلمٌ ثمّ وجدٌ ثمّ رمسٌ/ وطينٌ ثمّ نارٌ ثمّ نورٌ\* وبردٌ ثمّ ظلٌّ ثمّ شمسٌ\*\* من سارروه فأبدى كلّما ستروا\* ولم يراع اتّصلاً كان غشاشاً/ إذا النفوس أذاعت سرّاً علمت\* فكلّ ما خلت من عقلها حاشاً\*\* أنعى إليك نفوساً طاح شاهدها\* فيما وراء الحيث يلقى شاهد القدم/ أنعى إليك قلباً طالما هطلت\* سحائب الوحي فيها أبجر الحكم\*\* أشار لحظي

بعين عليم\*بخالصي من خفي وهم/ولانح لاح في ضميري\*أدق من فهم  
وهم همي\*\*لم يبق ببني وبين الحق تباني\*ولا دليل ولا آيات برهان/هذا  
تجلى طلوع الحق نائرة\*قد أزهرت في تلالها بسultan\*\*عجبت منك  
ومني\*يا منية المتمني/أدنيته مني حتى\*ظننت أنك أني\*\*أقتلوني  
يا ثقاتي\*إن في قتلي حياتي/ومماتي في حياتي\*وحياتي في مماتي\*\*إذا  
دهمتك خيول البعاد\*ونادى الإياس بقطع الرجا/فخذ في شمالك  
ترس الخضوع\*وشد اليمين بسيف البكا\*\*وأي أرض تخلو منك  
حتى\*تعالوا يطلبونك في السماء/تراهم ينظرون إليك جهرا\*وهم لا  
يبصرون من العماء\*\*وأطلب منك الفضل من غير رغبة\*فلم أرقلي  
زاهدا فيك راغب/كفى حزناً أتى أناديك دائماً\*كأنني بعيداً أو كأنك  
غائب\*\*سر السرائر مطوي بإثبات\*في جانب الأفق من نور بطيات/  
فكيف والكيف معروف بظاهره\*فالغيب باطنه للذات بالذات\*\*أنتم  
ملكتم فؤادي\*فهمت في كل وادي/ودق علي فؤادي\*فقد عدمت  
رقادي\*\*الحب ما دام مكتوماً على خطر\*وغاية الأمن أن تدنو من  
الحذر/وأطيب الحب ما نم الحديث به\*كالنار لا تأت نفعاً وهي في  
الحجر\*\*فيا من بات يخلو بالمعاصي\*وعين الله شاهدة تراه/أتطمع  
أن تنال العفو ممّا عصمت وأنت لم تطلب رضاه\*\*كانت لقلبي  
أهواءً مفرقة\*فاستجمعت مذراءتك العين أهوائي/فصار يحسدني  
من كنت أحسده\*وصرت مولى الورى منذ صرت مولائي\*\*حقيقة  
الحق مستنير\*صارخه بالنبا خبير/حقيقة الحق قد تجلت\*مطلب  
من رامها عسير\*\*أنت الموله لي لا الذكر ولهني\*حاشا لقلبي أن يعلق  
به ذكري\*الذكر واسطة تخفيك عن نظري\*إذا توشح من خاطري  
(فكري)

أرادوا أن يضعوا شيئاً على فمه، أن يكتموه، أن يسكتوا صوته،  
الذي كان كأنه يخرج ليس من جوفه ولكن يأتي من أمكنة وزوايا

متعدّدة، من الأرض، ومن تحت الأرض، ومن أجواز السّماء العلى؛  
وتقدّم رجلان صليبان من أهل القوّة والشّجاعة المعروفين في الكرخ  
والرّصافة، وأمسكه أحدهم من عضده، وسارع الآخر إلى إغماض  
عينيه بخرقة سوداء، ثمّ شدّ على حلقه شدّة قويّة وأدخل شيئاً مثل  
الحبل بين شفّتيه ولفّه حول رأسه وهو يروم إخماذ تلك الأصوات التي  
كانت تأتي من اللامكان... ولكن كان صوته يخرج دائماً، أقوى من ذي  
قبل، والشعر الذي كان يؤذهم لم يكن ليتوقّف أبداً؛ ولما أعياهم أمره  
تقدّم منه نفر من التّاس وقطعوا رجله اليسرى، وكان هو أثناء ذلك قد  
طلّق الأرض مرّة، وإلى الأبد، وكانت روحه التي لم تخرج بعد تضطرب  
بين جنبات جسده، وتريد أن ترفرف، أن تحلّق بعيداً، في حرّيّة، في  
الفضاء الرّحب بعيداً عن القهر، والملاحاة، والمظنّة، ووسوسات  
الشكّ، وخطرات الخوف... وكانت تروم اليقين؛ وكان هو يترنّم... كان  
ينشد، وهو يعلم أنّه بعد قليل سيفارق، سيفادر هؤلاء إلى أولئك،  
وسينتبد ممّن يعدّبونه مكاناً قصيًّا، فيه من الملذّات أفانين، ومن  
الصّحبة أجملها، ومن الحديث أمتعّه وأثره على النّفس، ومن الحبّ  
ما مدارجه في العشق والوجد والهيام، ومن النّفس ما شفّت وهفت  
إلى القربى، ومن المشاعر أجزلها وأوفرها، ومن اليقين أصفاه، ومن  
القوّة أوثقها، « في سِدْرٍ مَخْضُودٍ <sup>(٢٨)</sup> وَطَلْحٍ مَنضُودٍ <sup>(٢٩)</sup> وَظِلِّ مَمْدُودٍ <sup>(٣٠)</sup>  
وَمَاءٍ مَسْكَوبٍ <sup>(٣١)</sup> وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ <sup>(٣٢)</sup> لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ <sup>(٣٣)</sup> وَفَرْشٍ  
مَرْفُوعَةٍ <sup>(٣٤)</sup> »:

(مواجيدُ حقٍّ أوْجدَ الحقُّ كلّها\* وإنّ عجزتْ عنها فهوم الأكابر/وما  
الوجد إلاّ خطرة ثمّ نظرة\* تنشّي لهيباً بين تلك السّرائر\*\* عقد النّبوة  
مصباح من النّور\* معلق الوحي في مشكاة تأمور/بالله يُنفخ نفخ الرّوح  
في جلدِي\* بخاطري نفخ إسرافيل في الصّور\*\* لأنوار نور الدّين في الخلق  
أنوار\* وللسرّي سرّ المسرّين أسرار/وللكون في الأكوان كون مكوّن\* يكنّ  
له قلبي ويهدي ويختار\*\* سكنت قلبي وفيه منك أسرار\* فلمّ ينك الدّار

---

بَلْ فَلِمَ نَكَ الْجَارُ/ مَا فِيهِ غَيْرِكَ مِنْ سِرِّ عَلِمْتُ بِهِ\* فَانظُرْ بَعَيْنِكَ هَلْ فِي الدَّارِ دِيَارٌ\*\* غَبْتُ وَمَا غَبْتُ عَنْ ضَمِيرِي\* وَصَرْتُ فَرِحْتِي وَسُرُورِي/ وَانفصل الفصل بافتراق\* فصار في غيبيتي حضوري\*\* يا شمس يا بدر يا نهار\* أنت لنا جنة ونار/ تَجَنَّبُ الإِثْمَ فِيكَ ثُمَّ إِثْمٌ\* وَخَاصِيَّةُ الْعَارِفِيكَ (عار)

وأخذه، وكان الجمع من حوله محتشد، والكل بين مهلل ومكبر، وصلبوه على جذع نخلة، وطرحوا ذلك الجذع على أحد مداخل بغداد، وتركوه هناك ثلاثة أيام بلياليها؛ وكان الذين يمرّون عليه في صباحهم ومساءهم يقولون: «عَمَّا قَرِيبِ سَفُوحِ رَائِحَةِ جَنَّتِهِ الْكَرِيمَةِ، عَمَّا قَلِيلٍ سَيَنْتَشِرُ وَبَاءَ عَفُونَتِهِ، عَمَّا قَلِيلٍ سَيَأْتِي جُنُودُ الْخَلِيفَةِ وَيَزْلُونَهُ ثُمَّ يَرْمُونَهُ فِي حَفْرَةٍ مَهْجُورَةٍ وَيَهِيلُونَ عَلَيْهِ التُّرَابَ...!!»

وقال الشيخ الذي مات للنور الذي كان يجلس قبالته، ولم يعد جسدا وإن كان طاجيك يراه الآن مكتمل الهيئة سليم الأعضاء والجوارح:

- لقد خاب ظنهم، لأنّي لم أكن أتا جر مع الشيطان، وقلبي كان متعلّقا بالله...

ثم صمت مليا وأشار إلى ألواح كانت تلوح على البعد عليها قراءة لم يميزها طاجيك، وقرأ فخرج صوته كما كان يخرج في تلك الأيام بردا وسلاما على من يحبه ونقمة على الذين كانوا يبغضونه ويكرهون شعره:

- كانت بدل الرائحة التي كانوا يؤملونها رائحة المسك ورائحة العنبر وروائح أخرى لم يشم أهل بغداد مثلها؛ وبلغ الأمر الخليفة وأصحاب العمائم فخافوا الفتنة، وكان يحزنهم أن أتحوّل عند العامّة إلى شهيد من شهداء الحقّ؛ فجاء الجنود ليلا وأنزلوا تلك الجثة التي ظنّوا أنّها جثتي وأخفوها في مكان لا يعلمه غيرهم .

---

سمع طاجيك بدر النور وهو يقول للشَّيخ الَّذِي كانت أنواره تحفّه:  
- فجئته من كانت تلك الجئة؟

قال الشَّيخ:

- كانت تلك جئة الفاني الأوّل.

ولم يزد على ذلك.

سأله بدر النور مرّة ثانية:

- وهل هناك فان آخر غير الَّذِي يعرفه كلّ النَّاس؟

قال الشَّيخ:

- هناك فاني الدّنيا.

قال الجالس قبالتة:

- وهذا نعرفه، يا شيخي؛ فمن يكون الفاني الثّاني؟

قال الشَّيخ، وكانت الألواح الّتي يقرأ منها تتّضح شيئاً فشيئاً:

- إنّ الفاني الثّاني هو فاني الحقّ؛ إنّه فاني العشق... وفاني الدّنيا  
قد ذهب، وأخفوه، وفاني الحقّ حملته روحه إلى أشواقه ومنبع  
مسارراته...

وكانت الألواح تتلو الألواح، وكانا وهما يجلسان أحدهما قبالة  
الأخر كأنّما وجدا هناك ليشهداه، هو الثّائم أو اليقظان، أو في مقام  
بين بين بينهما... وبدا له أنّه يسمع صوتاً يناديه، وكان صوت أشبه  
بالمناجاة: «طاجيك... طاجيك، يا ابن لامار!» التفت لإرادياً ناحية  
مصدر الصّوت فوجد النور الَّذِي كان يلاحقه، كان يطارده منذ أيام،  
ومن مكان إلى مكان، وحال بينه وبين من يحبّ، حال بينه وبين أشواق  
قلبه؛ وربّما حدس ذلك النور. الَّذِي كان شيخه أو شيخ بدر النور أو  
شيخهما معاً، لأنّ الَّذِي كان يريه ما يرى لم يقل له إن كان هو هو أو هو  
آخر، إن كان هو بدر النور، أو طاجيك الَّذِي اشتراه سيّده، وكان أسره  
الأعداء فأتوا به إلى بغداد بعد أن تخلّصوا من عائلته وفرّقوا بينه  
وبينها: «طاجيك، يا ولدي، لا أريدك أن تحقد عليّ؛ ولا يذهب في خلدك

---

أني حرمتك وحلت بينك وبين قوت القلوب؛ هناك أشياء ستفهمها في حينها، وأنا عبد مأمور أتيت لأوقظك من سبات ولأطلعك على ما لم يحط به الآخرون... إنك، يا ولدي، تتقلب في مجاز المقامات والأحوال؛ والأحوال والمقامات لا تنضبط بوقت أو بمكان، لأنّها، يا ولدي، في كلّ زمان ومكان...!!»

وقال له:

- انظر!!

ونظر طاجيك إلى حيث أشار له أن ينظر، فقرأ على نور من فوقه نور ومن تحته نور وعلى شماله نور وعلى يمينه نور. ومن بين يديه نور ومن خلفه نور. ومن تحته نور ومن فوقه نور: «أفهام الخلائق لا تتعلّق بالحقيقة، والحقيقة لا تتعلّق بالخليقة، الخواطر علائق، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق. والإدراك إلى علم الحقيقة صعب، فكيف إلى حقيقة الحقيقة؟ الحقّ وراء الحقيقة، والحقيقة دون الحقّ. الفراش يطير حول المصباح إلى الصّباح، ويعود إلى الأشكال، فيخبرهم عن الحال، بالطف مقال، ثمّ يمرح بالدّلال، طمعا في الوصول إلى الكمال، ضوء المصباح علم الحقيقة، وحرارته علم الحقيقة، والوصول إليه حقّ الحقيقة، لم يرض بضوئه وحرارته، فيلقي جملته فيه، والأشكال ينتظرون قدومه، فيخبرهم عن النّظر، حين لم يرض بالخبر. فحينئذ، يصير متلاشياً متصاعراً متطائراً، فيبقى بلا رسم ولا جسم وإسم ووسم، فلاي معنى يعود إلى الأشكال؟ وبأيّ حال بعد ما حاز؟ صار من وصل إلى النّظر، استغنى عن الخبر. ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النّظر. لا تصحّ هذه المعاني للمتواني، ولا الفاني، ولا الجاني، ولا لمن يطلب الأمان، كأني كأني، وكأني هو، أو أتي، لا توق عتي، إن كنت أتي. يا أيّها الظّانّ، لا تحسب أتي أنا الآن، أو يكون أو كان، (يا ربّ لا تظنّ أنّي أنا، أو أكون، أو كنت، إلا أنّي العارف المتجلّد، وهذا هو حالي غير نزيه، إن كنت له، ليس أنا هو). إن كنت

تفهم فأفهم، ما صحّت هذه المعاني لأحد سوى أحمد («ما كان محمّد أبا أحد»)... إلى النّبیین، وغاب عن الثّقلین، وغمض العين عن الأین حتّى لم یبق له رین ولا مین، فكان قاب قوسین، حين وصل إلى مفرزة علم الحقيقة أخبر عن الفؤاد وخبر؛ ولما وصل إلى حقّ الحقيقة ترك المراد، واستسلم للجواد، وحين وصل إلى الحقّ عاد فقال: (سجد لك سوادی، وأمن بك فؤادی)، لما وصل إلى غاية الغایات قال: (لا أحصي ثناء عليك)، وحين وصل إلى حقيقة الحقيقة قال: (أنت كما أثبتت على نفسك). جحد الهوى فلحق المني: (ما كذب الفؤاد ما رأى) عند سدرة المنتهى، ما التفت يميناً إلى الحقيقة، ولا شمالاً إلى حقيقة الحقيقة: (ما زاغ البصروما طغى)».

وقال له النور الذي هو شيخه: وكانت ما تزال الألواح تتواترين يديه في نورها، فكان نورها كأنه نوره ونوره هو نورها:  
- أنظر، يا ولدي!

ونظر حيث أشار له أن ينظر، فكان ذلك النور الآخر هناك، وهو يقرأ لبدر النور الذي كان يجلس قبالته: «الحقيقة دقيقة، طرقها مضيق، فيها نيران شهيقة، ودونها مفاوز عميقة. الغريب سلكها، يخبر عن قطع مقام الأربعين مثل: مقام الأدب، والرهب، والسبب، والطلب، والعجب، والعطب، والطرب، والشهر، والتزه، والصفاء، والصدق، والزفق، والعنق، والتسويح، والترويح، والتّماني، والشهود، والوجود، والعدّ، والكّد، والرّدّ، والامتداد، والاعتداد، والانفراد، والانقياد، والمراد، والشهود، والحضور، والرياضة، والحيطة، والافتقاد والاصطلاح، والتدبير، والتّحير، والتّفكر، والتّصبر، والتّغير، والرّفص، والنقض، والرّعاية، والهداية، والبداية، فهي مقام أهل الصّفاء والصّفويّة. ولكلّ مقام معلوم مفهوم وغير مفهوم. ثمّ دخل على المفازة وحازها، ثمّ جازها، فما لأهل المهمل من السهّل والجبل: «فلما قضى موسى الأجل» ترك الأهل حين صار للحقيقة أهلاً ومع ذلك رضي بالخبر

---

دون النظر، ليكون فرقا بينه وبين خبر البشر، فقال: لعلّي أتاكم منها بخير فإذا رضي المهتدي بالخبر، فكيف لا يكون المقتدي على الأثر؟ من الشجرة من جانب الطور ما سمع من شجرة، ما سمع من برزه ومثلي مثل تلك الشجرة، هذا كلامه. فالحقيقة، والحقيقة خليقة، دع الخليقة لتكون أنت هو، أو هو أنت من حيث الحقيقة؛ لأنّي واصف، والموصوف واصف، والواصف بالحقيقة، فكيف الموصوف؟ فقال له الحق: «أنت تهدي إلى الدليل، لا إلى المدلول، وأنا دليل الدليل: صيرني الحق بالحقيقة/هناك سرّي وذي الطريقه\* شاهد سرّي بلا ضميري/ هناك سرّي وذي الطريقه\* قال الحق: وحدّثني عن قلبي، ومن علم بلساني، وقربني له بعد بعدي وجعلني من الخواص واصطفاني..»

وقال له:

- انظر.

فكان ينظر ويقرأ من الألواح.

وقال له:

- انظر.

فينظر، وكان في الألواح عجب من الأعاجيب؛ وكانت أنوار، وما كانت الأنوار التي ظلّ يراها في دنيا الفانين هي أنوار الأنوار التي يراها الآن، وقد استحالت كلاما لم يسمع به من قبل، ولا تعلّمه في مجالس علمه ببغداد: وتساءل بينه وبين نفسه: «أين كان هذا النور على أفواه الذين يراهم الآن أمامه؟» ورأى أيضا ما لم يكن رآه في حياته، وطويت له الأزمنة. وأزمنة الأزمنة، ورأى العدويّة، وأبا المغيث، والنقريّ، وأبا يزيد البسطاميّ، وأبا القاسم الجنيد، والشّبليّ، وغيرهم من الأصفياء الأنقياء؛ وقد شهد أيضا صلب من صلب، وشهد مشهد من كان قتل؛ وكان يتعلّم وهو ينظر؛ وتساءل عن النور الذي كان هو بدر: «كيف خرج؟ ومتى خرج؟ ومن أخرجه؟» ورأى في لحظة من اللحظات شيئا لم يكن يعرفه أيضا، وتراءت له العتبة الخضراء، ومقام الشهيد سيّد

الشهداء رضي الله عنه أبي عبد الله الحسين بن عليّ وابن الزهراء رضي الله عنهما. وسبط النبيّ صلى الله عليه وسلّم؛ ورأى مقام السيّدة زينب، ومقام السيّدة نفيسة؛ والتبست الحقائق في ذهنه؛ وبدا له أنّ الزّمان لم يعد أزمنة زمانا زمانا، وأنّ الأماكن متعدّدة في واحد، وهي واحد؛ وتساءل أيضا عن الحقيقة، وكانت الحقيقة من قبل في ذهنه أواحد حقيقة وحقيقة وحقيقة. أي أنّ الحقيقة كانت من قبل حقائق؛ وانقلبت الآن إلى حقيقة واحدة أزليّة، وهي ليست الحقيقة التي كان يعرفها... واختلطت عليه الأمور، وهو بين بين، بين يقظة ومنام، وبين إقدام وإحجام، وانشطار وانسجام، ووقوف وقيام، ومظنّة وإيقان؛ وكان النور هناك، ينظر إليه ولا يتعجّب، وكأنه يعرف أمره من مبدئه إلى منتهاه، ويريد أن يريه فوق ما رأى في دنيا الفانين حقائق الواصلين السالكين ليتعلّم، أو ربّما ليعود إلى الأصل الذي كان عليه، ويلتبس بشبيهه، أو الذي كان هو هو، بدر النور؛ فإذا كان هو هو، ذلك القائم قبالة الشيخ الآخر، على ضفاف الحياة الأخرى، فما نفع الأسئلة التي كان سألها من قبل؟ وهل كان وهو يتصوّر أنّه يعرف لم يكن يعرف؟ وأنّ الذي كانه كان مجرد وهم من الأوهام، وأنّ الحقيقة هي غير الحقيقة التي كان يعرفها؟ وأنّه كان في زمان غير الزّمان الذي كان يجب عليه أن يكون فيه، وفي مكان غير مكانه؟ وهو وإن كان اليوم انشطار فهو التثام في الذي كان يراه على مبعده منه، وهو هو، وأجزاؤه أجزاءه وجوارحه جوارحه؛ وكانا كأنّما يتعلّمان في التّخاطر وإن كانا واحدا؛ فالسّفر لمن كان مقدّرا له أن يسافر في حاجة إلى رفيق طريق، فإذا اكتمل الطّريق رجعت العناصر إلى بعضها، وارتدّت الفروع إلى أصولها، والأشباه إلى حقائقها.

وقال له نور الشيخ الذي كان رآه في محنة زواجه:  
انظر، يا ولدي!

ونظر حيث أشار له أن ينظر فرأى لوحة أخرى من الألواح، وقد

انفصلت عن أخواتها، وقاربتة ودانته حتى كانت في مرمى عينيه تماماً، وهي تشع بالكتابة التي كانت عليها، فقرأ: «البراني ما وصل إليها والثاني وصل وانقطع. والثالث ظلّ في مفازة «حقيقة الحقيقة». الباء باب ثان في الدائرة مثل «ب». وهو ذلك الباب حيث الوصول، وفيه التيه، والثالث مفاوز الحقيقة، وهي حقيقة ذلك الباب، الذي كالباء، ويقابله بابان تحت الدائرة الثانية. وهيات من يدخل الدائرة، والطريق مسدود والطالب مردود، ونقطة الفوقاني همته. ونقطة التحتاني رجوعه إلى أصله، ونقطة الوسطاني تحيره. قرب الدائرة نقطة التحتاني، حيث رجوعه بالأصل يطلب النقطة التي في جهة اليمين، نقطة الوسطاني تحيره، وبالوسطاني تلك التي على يسار الدائرة. والدائرة ما لها باب. والنقطة التي في وسط الدائرة هي الحقيقة. ومعنى الحقيقة شيء لا تغيب عنه الظواهر والبواطن، ولا يقبل الأشكال. فإذا أردت فهم ما أشرت إليه: «فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك»: لأنّ الحق لا يطير. الغيرة أحضرتها بعد الغيبة، والهيبة منعها، والحيرة سلبتها، هذه معاني الحقيقة. وأدقّ من ذلك فهم الفهم، لإخفاء الوهم، ذا من حول الدائرة ينظر لا من وراء الدائرة. وأمّا علم الحقيقة حرمي، والدائرة حرمة، فلذلك سمّي النبي صلى الله عليه وسلّم «حرمياً» ما خرج من دائرة الحرم، وهو وراءه فقال: «أه».

وقال له نور الشيخ الذي كان رآه أول ما رآه في غرفته بالخان، حينما كان ما يزال حوشياً يكتب على حواشي سفر التكوين:  
- انظر، يا ولدي.

ونظر حيث أشار فقرأ على لوح من الألواح، الذي انتسب أخيراً إلى أخواته، فراها كأنما واحد في متعدّد أو متعدّد في واحد: «الدائرة الأولى مشيئته، والثانية حكمته، والثالثة قدرته، والرابعة معلومته وأزليته. قال إبليس: إن دخلت في الدائرة الأولى ابتليت بالثانية، وإن حصلت في الثانية ابتليت بالثالثة، وإن قنعت بالثالثة ابتليت بالرابعة.

فلا، ولا ولا، ولا، ولا. فبقيت على الأولى، فلعنت إلى الثاني وطرحت إلى الثالث، وأين متي الرابع، لو علمت أن السجود ينجيني لسجدت، ولكن قد علمت أن وراء تلك الدائرة الدوائر، فقلت في حالي: هب نجوت من هذه الدائرة كيف أنجو من الثانية، والثالثة، والرابعة. والألف الخامس هو (الحَيّ)»

وقال طاجيك: «ونظرت إلى نور الشيخ الذي كنت رأيته في المسجد الجامع في بخارى، وكان كأنما يستعدّ لرحيل وشيك، فأشار إليّ مرة إلى ذلك الشيخ الآخر الذي كانوا صلبوه على جذع نخلة حين كان آدمياً غير حرمي ولا منتسبي، وصار بعد صلبه روحانياً أثرياً هوائياً طائرياً من طوائر السماء المحلّقين بأجنحة مرة، وبغير أجنحة مرة أخرى؛ وأشار إلى بدر النور الذي ربّما كنت أنا فيه، أو كان هو فيّ أنا، وكنا متنافرين، وربّما أصبحنا متقاربين، بعد الذي كان من المرائي، ومرائي المرائي التي كانت دائماً تقود إلى المراقي، في عليّات لا يعلى عليهما؛ ثم أشار إلى الألواح التي كانت تطير، في البدء واحدة، ثم بعد ذلك متفرقة، ثم متفرقة، وبعد ذلك واحدة، وكان صفاؤها هذه المرة ليس ككلّ صفاء، ولا نقاؤها ككلّ نقاء، وأشار بعد ذلك إلى واحدة بعينها كانت تعلو على غيرها من الألواح، وقال: «اقرأ»، فقرأت على اللوح: «والحقّ واحد، أحد وحيد موحد. والواحد والتوحيد (في) و (عن). وصورة صورة في هذا المعنى. علم التوحيد مفرد، مجرد، صورة التوحيد هكذا. التوحيد، صفة الموحد، لا صفة الموحد، وإن قلت: (أنا)، قال: (أنا)، فلك، لا له، وإن قلت رجوع التوحيد إلى الموحد. وإن قلت: توحيد، كيف يرجع المتوحد إلى التوحيد؟ وإن قلت من الموحد إلى الموحد، فقد نسبته إلى الحدة. إن قلت: التوحيد خلق منه، فإنّي صيرت الذات ذاتين، والذي وجد ذات، وعندما لا يكون الذات ذاتا، فإنّه ذات، ولا يكون ذاتا، اختفى عندما ظهر، أين اختفى الذي (أين لا يكون)؟ إن (ما) و (إذا) لا يتضمّنان.»

قال طاجيك: «ورأيت النور يعلو قليلا، ولم أستطع أن أستثبت

وجوده أكان على الأرض تماما، ولم يكن على الأرض، أم كان قد جاز السماء، وانتقل من سماء إلى سماء، أم أنه خرج من إطار السماء. فلا هو كان أرضياً أرضياً، ولا كان سمائياً سماوياً؛ ورغم أنني كنت أسمع صوتاً، فلا أعلم أكان ذلك الصوت صوتاً، أم كان صوتاً غير صوت، وهو صوت: وتعجبت في أول أمري حين جاءني، وسألت عن سبب قدومه عليّ في مرة بعد مرة، وهل كان مجيئه لإشهادي، أم لتعريفي بنفسي، وقد جهلت نفسي من قبل، وحين جهلتها فقد جهلت قدرها، أم أنّ وجوده كان بقصد إخراجي من دائرة الشهود إلى دائرة الوجود، ومن شهد فقد رأى بعينه الناظرة، ومن وجد فقد خرج من ناظرته إلى باصرة غيره، وهو هو، في حال وجوده وعدمه، إلا أنّ العدم وجود بالقوة، والوجود هو وجود بالوجود وهو موجود. وقال لي: «اقرأ». فقرأت، على لوح من نور، محاط بكلّ الأنوار التي كانت تصدر عن أنوار تلك الألواح الأخرى: «الأسرار نازعة منه وإليه، وازعة فيه، وغير لازمة فيه، الأسرار منه فازعة، وإليه نازعة لأنه وازعة. ضمير التوحيد ضمائره، لأنّي مضمر، بل ضمير المضمر «هاؤه»، «هاؤه». إن قلت: «واه»، قالوا: «آه». ألوان وأنواع، والإشارة إلى المنقوص لا يلوص: «كأنهم بنيان مرصوص»، هي حدّ، والحدّ لا يستثنى عليه أحديته، والحدّ حدّ، وأوصاف الحدّ إلى المحدود، والموحد لا يحدّ. الحقّ مأوى الحقّ، لا الحقّ، ما قال التوحيد؛ لأنّ المقال والحقيقة لا تصحّان للخلق، فكيف تصحّان للحقّ؟ والذي لا يأخذ العرض لا يكون إلاّ جوهرًا. والذي لا يفارق الجسم لا يكون إلاّ جسمًا. لا يفارق الرّوح لحظة، ولا يكون إلاّ روحًا. إنّنا هضمة روحانية رجعنا إلى ما يتضمّنه. من مشموله وهاضمه، ومقوله وهاشمه، ومحموله. الأوّل مفعولات، والثاني مرسومات، لدوائر الكونين، والنقطة معنى للتوحيد، وليس التوحيد، ولو أنّ الدائرة منفصلة.»

قال طاجيك: «وما كنت في الزّمن السّالف ممّن اشتغل بالأسرار،

---

وكان كلّ إيماني بما هو معلوم بالضرّورة من مسائل الشريعة، وما كنت أتلقاه من سادتي الشيوخ الأجلّاء؛ وقد عرفت من الصّوفيّة بعض أحوالهم، وكان ذلك من باب العلم لا غير؛ ولم أكن أحسب أنّه سيصيبني منهم ما يصيبني الآن؛ وأنّ أسرارهم من الأشياء الّتي كانت متخفيّة فيّ، وقد كانت دائما تترّص لي: ولم أنزعج لذلك لأنّي أعلم أنّ المصائر أمور مقدّرة يقدرها صاحب الأمر، وهو الّذي أمر القلم أن يكتب ما هو صائر في الأزمنة الزّمن بعد الزّمن من مصائر الكون ومصائر العباد في الكون؛ وأزمنت أن أترك نفسي على سجيّتها، أن أخذ الأشياء على علاّتها؛ وقلت لنفسي: «ما نفع السّؤال؟ وما هي مزية هذا السّؤال إذا كان سيؤدّي إلى أسئلة أخرى ربّما لن تجد أجوبة لها؟ وهب أنّي عرفت الإجابات على أسئلتي، فما هو نفعها إذا كانت لا تجدي شيئا؟» ورضيت بمصيري، واكتفيت بالرّؤية البصريّة، وضربت صفحا عن المجادلات الّتي كانت تذكّرني بما كنت قرأته من مجادلات المجادلين من أمثال المعتزلة ومن لفّ لفّهم من أصحاب تغليب العقل على النّقل؛ وما أنذا الآن أكتشف أنّ وراء العقل عقولا، وأنّ النّقل ظاهره نقل، ووراء النّقل أحوال القلوب وفهوم وراء الفهوم الّتي نعرفها... وظللت أمّي نفسي، وأنا بين اليقظة والمنام، بإغماض جفني، ولم أدركم مرّعليّ من الوقت وأنا على تلك الحالة؛ واعتقدت أنّي قد مرّت عليّ ساعات بطولها، إلّا أنّ طيفا بداخلي كان يوسوس لي أنّها لم تكن سوى مجرد لحظات هي ما كان يستغرقها حلم من الأحلام، أو إن شئت رؤيا من الرّؤى؛ ورجّحت أنّها كانت رؤى، وإن لم تكن كذلك فهي حقيقة واقعة، لأنّ ما كنت أراه لم يكن جديدا عليّ؛ وهؤلاء الّذين كانوا يتداولون في أفق خيالي قد كنت عرفت بعضهم أو عرفتهم كلّهم في سابق أيّامي بهذه المدينة الّتي رأيت فيها الأعاجيب، مدينة بخارى... وقال لي نور الشّيخ، وكان يتلاشى كما تتلاشى آخر خيوط الظّلمة وهي تفسح المجال لأنوار النّهار الغازیة: «انظر». فنظرت فكان على آخر لوح

---

انفصل عن باقي الألواح التي كانت تطايرت في أجواز الفضاء واختفت تماما: «هذه الجملة، جمل حسب أقاويل أهل الملل، والمهل، والمقل، والسبل. هو الظاهر أولا، وهو الباطن ثانيا، وهو الإشارة ثالثا» يعني هذه الدوائر». هذه الجملة مكوّنة، ومتكوّنة، ومحوّرة، ومطروقة، ومسمورة، ومنكورة، ومغرورة، ومهورة. وفي الضمائر دائرية، ومائرة، وحائرة. وعائرة، ونائرة، وصائرة. هذه الجملة مكوّنة، والله منزّه عن هذه الأساطير. إذا أقول: «هو»، لا يقولون بالتوحيد. إذا أقول: أصبح صحيحا توحيد الحق يقولون صحيح. إذا أقول: بلا أرض. يقولون: إنّ معنى التوحيد تشبيهه، والتشبيه ليس بمناسب لأوصاف الحق، ولا ينسبون التوحيد، ولا إلى الخلق، لأنّه تجاوز عن الحدّ، إن تزد في التوحيد فهو حادث، والحادث ليس بصفة للحقّ، الذات واحد الحقّ، والباطل عن عين الذات. إذا أقول: التوحيد كلام، فالكلام صفة للذات. إذا قلت: حواسّ يكون واحدا، الإرادة صفة الذات، ومراد المخلوق. وإذا أقول: يكون الله توحيد الذات، ويكون توحيد الذات. إذا أقول: ليس بالذات، فأكون قد سمّيته مخلوقا. إذا أقول: الإسم والمسمّى واحد، فماذا يكون معنى التوحيد. إذا أقول: الله، الله، الله، يكون عين العين، و«هو هو». هذا مكان الطّاء والسّين في العلل، وهذه الدوائر مع هذه اللام صورة الألفاظ. الأوّليّ أزليّ، والثاني مفهومات، والثالث جهة، والرابع معلومات. لا يكون الذات من دون صفات. الأوّل يعي، ومن قبيل «العلم»، ولا يرى الثاني يعي، ومن قبيل «الصفاء»، ولا يرى، وليس بذات»، وليس بالسّين «شيء»، وليس بالقاف «قال»، وليس بالميم ماهيّته. العزّة لله الذي تقدّس بقدمه عن سبل أهل المعارف، وإدراك أهل الكواشف. هذه مكان الطّاء والسّين، والنّفي والإثبات. النّقش الأوّل فكر عامّ، والثاني فكر خاصّ، ودائرة علم الحقّ مدار الوسط، لهؤلاء اللّامات والألفات التي توجد بدائرة المحيط منزّهة عن جميع الجهات، هذان الحاءان حاملان

لجوانب الأجناب، يبغيان توحيد ما وراء هذه الحوادث. أفكار العوامّ تغوص في بحر الأوهام، وأفكار الخواصّ تغوص في بحر الأفهام، هذان البحران ينشقان، والطريق مقدّسة، وهذان الفكران ينقطعان، وهاتان النتيجتان تضمحلان، وهذان الكونان يفنيان، والحجج تروح، ويتلاشى العرفان. الله الرّحمان هو المنزّه عن الحدث، هو سبحانه منزّه عن كلّ العلل والنقائص، قويّ البرهان، عزيز السّلطان، ذو الجلال والمجد والكبرياء، واحد لا من حيث العدد، واحد لا كواحد، ليس له حدّ. ولا عدّ ولا ابتداء، ولا انتهاء، مبدع الكون، منزّه عن الكون. لا يعرفه إلاّ هو ذو الجلال والإكرام. والأرواح، والأجسام.»

لم أدر متى نمت. ولا متى أفقت؛ ولكيّ حين فتحت عينيّ كانت الظلمة ما تزال رائنة على الغرفة، وكان كلّ ما حولي صامتاً، ساكناً، كأنيّ في مقبرة، وكانّ الأصوات التي غالباً ما كنت أسمعها في الرّواق قد ولّت دون رجعة؛ وكان من عادة مسعود أن يأتيني في أوقات بعينها من التّهار فيسألني إن كنت سأتناول الغداء أو العشاء في مطبخ الخان أو أنني أفضّل أن يجلب لي الطّعام إلى الغرفة، فأمره بحسب ما يمليه عليّ مزاجي أحياناً، أو حسب ما تمليه عليّ مشاغلي في أحيان أخرى. قلت في نفسي: «قد أكون نمت ليلتين متواصلتين؟» وبدأ لي ذلك منطقيّاً بالنّظر إلى ما كنت رأيته لأنّه كان من الطّول بحيث لا يمكنه أن يستغرق مجرد ليلة أو بعض اللّيلة؛ ثمّ أعود فأقول لنفسيّ مرّة ثانية: «ولكن ما يديني أنّها مجرد ليلة أو بعض ليلة؟ فلماذا لا تكون مجرد لحظات كما قال لي ذلك الصّوت الموسوس بداخلي وهو يحاول إقناعي أنّ ما أراه ليس سوى حلم من الأحلام أو رؤيا من الرّؤى، وهذا أو تلك لا يستغرقان إلاّ وقتاً يسيراً؟» واختلطت عليّ الأمور فقررت أن أضع حدّاً لكّل هذه التّساؤلات التي لا تغني شيئاً، وفتحت باب الغرفة وأجلت بصري في الرّواق الذي كان غارقاً في سكّون مطلق اللّهمّ إلاّ ما كان من ذبالة نور لم تكن قادرة على تجلية كلّ الظلمة التي كانت تحيط

---

كلّ شيء من حولي... وأدركت أنّه اللّيل، ربّما نكون في هزيعه الأوسط أو الأخير، ورجّحت أنّي لم أنم سوى هذه اللّيلة، لأنّي لم أشعر بشيء غير عاديّ طرأ على جسمي، مثل ثقل مفاجيء أو تعب أو ما شابه، وهي أشياء غالبا ما تطرأ عليّ حين أكون أفرطت في النّوم؛ ولم ألبث أن سمعت أصوات الدّيكة وهي تعلو إيدانا بطلوع الفجر، فدخلت وتوضّأت وقرّ عزمي على أن أصليّ الفجر حاضرا في المسجد الجامع؛ وحين أنهيت وضوئي خرجت، وكانت بخارى تسعدّ لاستقبال يوم جديد...!!!

لم يأنس في نفسه نشاطا بعد الصلّاة حتّى يعرّج على القهوة أو يزور أيّاً من الأصدقاء الذين كان عرفهم طوال إقامته في بخارى، أو يحاول ولو مجرّد محاولة أن يرى كبير الشرطة في ديوانه أو يسأل عنه في البيت؛ وقال في نفسه إنّ من شأن ذلك أن ينكأ جروحه وأن يعيد إلى ذاكرته مشاهد تلك الليلة الأليمة التي جعلته يرتد كسيرا جريحا مهدورا شرف رجولته أمام المرأة التي كان يؤمّل أن تصبح له زوجة وأمّا لأولاده في قابل أيّامه؛ وفضّل أن يعود إلى غرفته ثانية ليقرا ما تيسّر، وليكتب ما تيسّر، وهو لا يعلم بعد ما يمكنه أن يفعل بعد ذلك... وقد كان تغير الطّقس المفاجئ، وبداية البرد الذي هجم على حين غرة في ذلك العام، والزّوابع التي كانت تثور في الفينة بعد الفينة، من شأنها أن تقنعه بالمكوث في غرفته مستأنسا بكتبه ودفاتره؛ ثمّ يتذكّر المقهى وصديقه علاء الدّين، فيقول: «لا بأس من أن أتخفّف قليلا من عبء الكتابة وأستريح لبعض الوقت في القهوة!!» خلال إقامته في بخارى تعود على كلّ شيء، على التّعب، على المسغبة، على الألم، على مواجيد قلبه الطّائرة، على الرّؤى التي كان يراها حيثما ولى وجهه، وعلى أكثر المواقف حرجا؛ إلّا أنّ الشّيء الوحيد الذي لم يكن يستطيع عليه صبرا هو الدّخان، الأركيلة بحضورها الأنثويّ الأخاذ، والشّرود، والهروب إلى أماكن قصية ينتفي فيها كلّ ما كان يعانيه، وهو يسحب الدّخان إلى صدره، مغمض العينين، محاولا أن ينسى كلّ شيء؛ حينئذ إلى بغداد، ومن خلفهم في بغداد، رحلاته الكثيرة التي كانت تقوده إلى مجاهل لم يكن يعلم عنها شيئا في حياته، آلامه، أسقامه... وهذه الأسقام لم تكن

سوى أسقام قلبه الذي بات غير قادر على إسعافه بالطمأنينة التي كان ينشدها... ومن مجاهر أعماقه يطلق آهة، ويقول: «ليت ما كان لم يكن!!» ثم يرتدّ إلى نفسه مرّة ثانية، ويقول: «سلم الأمر للقضاء، فهو للنفس أنفع!!» ويجلس إلى نضده، ويجمع من حوله كتبه ودفاتره، ويأخذ قلمه وهو يستعدّ لتدوين ملاحظاته، ولكنّ الباب ينفتح فجأة، ويدخل عليه مسعود وفي يده طبق الإفطار... كان منظر الخادم كفيلا بأن يذكره أنّه لم يأكل منذ زمن ليس باليسير، وأنّه إذا واصل على هذه الوتيرة ربّما يصاب بمرض لم يكن في الحسبان، من شأنه أن يمنعه من مواصلة ما كان بدأ فيه من سعيه لأن يكون عالما من العلماء. واستقبل الخادم بابتسامة امتنان، وأشار إليه أن يجلس ليتناول الإفطار معه. كانت تلك متعة لا تعادلها متعة بالنسبة إليه، ليس فقط لأنّ مسعودا كان أثيرا لديه، وهو الذي أعانه في أوقات شدّته على استكمال بعض ما كان فيه من العمل، ولكنّ مسعودا أيضا كان بوابته إلى مجاهر بخارى، إلى ما كان يحدث فيها من الأمر والأحداث؛ وقال له وهو يراه يجلس قبالتة:

- هيه، كيف حالك، يا مسعود؟

نظر إليه الخادم بعينين ملؤهما الامتنان. وهو يقول:

- الحمد لله، يا سيّدي.

سأله طاجيك ثانية من باب تشجيعه على الكلام، لأنّه كان يعتقد أنّ الجلوس على الطّعام من المناسبات التي يحلو فيها الكلام ويسود فيها الأناجيس والألفة، فيتقارب المتباعدون، وتسيل شجونهم، وينهار ما كان قائما بينهم من الحرج والكلفة:

- هل هناك من جديد؟

تريّت مسعود قليلا، وهو يرفع إصبعه في حركة عفوية إلى أرنبة أنفه، وقال بعد لأي. وهو يكاد يطير فرحا:

- لقد منّ الله عليّ أخيرا، يا سيّدي.

---

سأله طاجيك:

- خيرا إن شاء الله.

قال مجيبا:

- كلّ الخير، يا سيّدي. سأتزوّج أخيرا.

كان طاجيك على وشك أن يرفع لقمه إلى فمه، وما أن سمع كلمات مسعود الأخيرة حتّى غشيتته حالة من الحزن كانت من الوطاة بحيث استرعت انتباه مسعود الذي قال في إشفاق:

- أرى أنّ الخبر قد أزعجك، يا سيّدي.

أراد طاجيك أن يتدارك أمره بشكل ما، فدفّع باللقمة إلى فمه وهو يتظاهر بالابتسام؛ وقد أراد بتلك الحركة أن يعطي نفسه فرصة ليتدبّر ما يمكن أن يقوله، وقال بعد أن شعر أنّ ما به من الحزن قد بدأ يتطامن:

- أبدا. أبدا. لا تراع. إنّها مجرد حالة تطرأ عليّ من وقت لآخر. وليس

في الأمر إلاّ الخير إن شاء الله. مبارك عليك، يا أخي...

ثمّ بعد أن اطمأنّ تماما أنّه قد عاد إلى ما كان عليه من التّبسّط والصفاء:

- هيه، قل لي، يا مسعود، ومن سعيدة الحظّ التي ستحظى بقربك؟

أتراها من بخارى؟

قال مسعود:

- هي من بخارى وليست من بخارى، يا سيّدي.

سأله طاجيك متضاحكا:

- هل هذا لغز؟ كيف يكون الشّخص من مكانين مختلفين في نفس

الوقت؟

قال:

- هي من بخارى لأنّها نشأت فيها وترعرعت؛ إلاّ أنّ عائلتها جاءت من

سمرقند واستقرّت هنا منذ زمن بعيد.

---

قال طاجيك، وهو يمسح يديه محمداً، ثمّ وهو يأخذ كوب القرفة  
ويحسونه بضع حسوات:

- فهمت الآن. وهل عائلتها من العوائل المعروفة في البلد؟  
قال:

- إنّ والدها من النّساجين المعدودين؛ وعائلتها موسرة. وهم أناس  
طيّبون.

استغرب طاجيك بينه وبين نفسه كيف أمكن لخادم مثل مسعود  
في حاله ولا يملك الشّيء الكثير من أمور دنياه أن يرتبط بقرينة رجل هو  
من المعدودين في موسري أهل البلد: إلاّ أنّه مع ذلك لم يرد أن يجرح  
مشاعره. ولعلّ مسعود لاحظ ذلك في وجهه فأراد أن يجنّبه حرج  
السؤال، فقال بطيبة ولكن بثقة:

- ليس كلّ النّاس يبحثون عن المال، يا سيّدي؛ هناك من يعتبر أنّ  
السّرة هي أهمّ من المال بكثير؛ وقد كانت عائلة المرأة التي سأزوّجها  
عائلة متواضعة الحال، ولكن حين منّ الله عليها ظلّت على حالها من  
الطيّبة وكرم الأخلاق؛ وقد خبروني وأطلعوا على جليّة أمري، فأدركوا  
أنّي أهل للثّقة، وأنّي رجل يستأمن على بنات النّاس...

بدا لطاجيك أن يقاطعه، ليس من باب التّنذر لأنّه كان أبعد  
ما يكون عن ذلك، ولكن من باب الطّرافة وإبعاد ما يكون طراً على  
مسعود من الكدر جزاء ما يكون استنتجه من أنّه يكون قد استهان  
بأمره أو قلّل من شأنه:

- وكيف تعرّفت إليهم وأنت نادراً ما تغادر الخان؟  
فقال مسعود:

- إنّ أباهما غالباً ما يتردّد على الخان. وقد كان أثناء زيارته يراقبني  
عن قرب؛ وفي يوم من الأيام قال لي: «يا ولدي، إنك رجل طيّب ومؤمن،  
وأنا أريد أن أستامنك على شيء...» وانتظر قليلاً فقدرت أنّه يريد أن  
أقاطعه فأسأله، فقلت: «يا سيّدي، لم يسبق أن يكون هناك تعارف

بيننا، وأنت تريد أن تستأمني، فعمّاذاً تريد أن تستأمني؟» فقال، وهو يبتسم مشجعاً ومهوّناً عليّ بعض ما طرأ عليّ من المفاجأة: «يا ولدي، لا تستغرب؛ فأمثالنا من النَّاس الذين يخافون الله يريدون أن يستروا على بناتهم، فيبحثون لهنّ عمّن يمكن أن يكون لهنّ سندا في الحياة، وأنا أريد أن أستأمنك على فلذة كبدي، ابنتي.» فنظرت إلى حالي وقلّة ذات يدي وفقري، فقلت إنّ الرّجل يضحك عليّ أو يسخر منّي، فجاءته بكلّ ذلك، ولكنّه قال مهوّناً عليّ أمرّي: «يا ولدي، أنا لا أشتري فقرك وخصاصتك، ولكّني أشتري ثقتك ورجولتك وأمانتك.» فهوّن عليّ كلامه بعض أمرّي، وهكذا تمّ كلّ شيء على أحسن ما يرام ببركة الله.

قال طاجيك، وهو يستعدّ لإنهاء تلك الجلسة الصّباحيّة ليتفرّغ إلى فصل جديد من فصول أسفار العهد القديم، وما يمكن أن يضيف إليه من كتب المؤرّخين الذين كان يحتفظ بالشيء غير اليسر ممّا كتبوه:

- ومتى سيكون بناؤك بها إن شاء الله.

فقال مسعود وهو يحمل الطّبق الفارغ بين يديه، ويستعدّ للخروج:

- الخميس القادم، إن شاء الله.

ثمّ وهو يستدير ويستقبل الباب:

- هل أطمع أن تشرّفني، يا سيّدي، بالحضور؟

فردّ عليه طاجيك، وهو بين الفرح والحزن، الفرح لأنّه لا يريد أن يكسر خاطر هذا الرّجل الذي أحبّه من كلّ قلبه، والحزن لأنّه استذكر تلك اللّيلة وما وقع له فيها:

- سيشرّفني ذلك؛ وسأكون أوّل من يحضرومئذك، إن شاء الله.

وخرج مسعود أخيراً، فشعر طاجيك بالارتياح لأنّه سيفرغ إلى نفسه أخيراً، وبالامتنان لهذا الرّجل الذي ذكره بطعامه فلن يكون مضطّراً إلى الخروج ثانية وقطع حبال أفكاره من أجل إسكات جوعه... أخذ كتاب العهد القديم الذي لم يكن سوى مجموعة ضخمة من

الجلود الرقيقة التي كان بعضها مشدودا إلى البعض الآخر، وأخذ يقلبها في أناة، إلى أن انتهى إلى سفر التثنية، فبدأ يقرأ: «هَذَا هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي كَلَّمَ بِهِ مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ، فِي عَبْرِ الْأُرْدُنِّ، فِي الْبَرِّيَّةِ فِي الْعَرَبَةِ، قُبَالَةَ سُوفَ، بَيْنَ فَارَانَ وَتُوفَلٍ وَلَابَانَ وَحَضِرُوتَ وَذِي ذَهَبٍ. أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ حُورِيبَ عَلَى طَرِيقِ جَبَلِ سَعِيرَ إِلَى قَادَشَ بَرْنِيعَ. ٣ فَفِي السَّنَةِ الْأَرْبَعِينَ، فِي الشَّهْرِ الْحَادِي عَشَرَ فِي الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ، كَلَّمَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ كُلِّ مَا أَوْصَاهُ الرَّبُّ إِلَهُهُمْ. ٤ بَعْدَ مَا ضَرَبَ سِيحُونَ مَلِكَ الْأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَشْبُونَ، وَعُوجَ مَلِكَ بَاشَانَ السَّاكِنِينَ فِي عَشْتَارُوتَ فِي إِذْرَعِي. ٥ فِي عَبْرِ الْأُرْدُنِّ، فِي أَرْضِ مُوَابَ، ابْتَدَأَ مُوسَى يَشْرَحُ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ قَائِلًا:

٦ «الرَّبُّ إِلَهُنَا كَلَّمَنَا فِي حُورِيبَ قَائِلًا: كَفَاكُمْ قَعُودٌ فِي هَذَا الْجَبَلِ، تَحَوَّلُوا وَارْتَحَلُوا وَادْخُلُوا جَبَلَ الْأَمُورِيِّينَ وَكُلِّ مَا يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبَةِ وَالْجَبَلِ وَالسَّهْلِ وَالْجَنُوبِ وَسَاحِلِ الْبَحْرِ، أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ وَلُبْنَانَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. ٨ أَنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكُمْ الْأَرْضَ. ادْخُلُوا وَتَمَلَّكُوا الْأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لِآبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَهَا لَهُمْ وَلِنَسْلِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

٩ «وَكَلَّمْتُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَائِلًا: لَا أَقْدِرُ وَحْدِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ. ١٠ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ قَدْ كَثَّرَكُمْ. وَهُوَذَا أَنْتُمْ الْيَوْمَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ فِي الْكَثْرَةِ. ١١ الرَّبُّ إِلَهُ آبَائِكُمْ يَزِيدُ عَلَيْكُمْ مِثْلَكُمْ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَيَبَارِكُكُمْ كَمَا كَلَّمَكُمْ. ١٢ كَيْفَ أَحْمِلُ وَحْدِي ثِقَلَكُمْ وَحِمْلَكُمْ وَخَصُومَتَكُمْ؟ ١٣ هَانُوا مِنْ أَسْبَاطِكُمْ رِجَالًا حُكَمَاءَ وَعُقَلَاءَ وَمَعْرُوفِينَ، فَأَجْعَلْتُمْ رُؤُوسَكُمْ. ١٤ فَأَجَبْتُمُونِي وَقُلْتُمْ: حَسَنُ الْأَمْرِ الَّذِي تَكَلَّمْتَ بِهِ أَنْ يُعْمَلَ. ١٥ فَأَخَذْتُ رُؤُوسَ أَسْبَاطِكُمْ رِجَالًا حُكَمَاءَ وَمَعْرُوفِينَ، وَجَعَلْتُمْ رُؤُوسًا عَلَيْكُمْ، رُؤُوسًا أُلُوفٍ، وَرُؤُوسًا مِئَاتٍ، وَرُؤُوسًا خَمَاسِينَ، وَرُؤُوسًا عَشْرَاتٍ، وَعُرَفَاءَ لِأَسْبَاطِكُمْ. ١٦ وَأَمَرْتُ قُضَاتِكُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَائِلًا: اسْمَعُوا بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ وَأَقْضُوا بِالْحَقِّ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَأَخِيهِ وَنَزِيلِهِ. ١٧ لَا تَنْظُرُوا إِلَى

الْوُجُوهِ فِي الْقَضَاءِ. لِلصَّغِيرِ كَالكَبِيرِ تَسْمَعُونَ. لَا تَهَابُوا وَجَهَ إِنْسَانٍ لِأَنَّ  
الْقَضَاءَ لِلَّهِ. وَالْأَمْرَ الَّذِي يَعْسُرُ عَلَيْكُمْ تَقَدِّمُونَهُ إِلَيَّ لِأَسْمَعَهُ.<sup>١٨</sup> وَأَمَرْتُكُمْ  
فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِكُلِّ الْأُمُورِ الَّتِي تَعْمَلُونَهَا.

<sup>١٩</sup> «ثُمَّ ارْتَحَلْنَا مِنْ حُورَيْبٍ، وَسَلَكْنَا كُلَّ ذَلِكَ الْقَفْرِ الْعَظِيمِ الْمُخَوْفِ  
الَّذِي رَأَيْتُمْ فِي طَرِيقِ جَبَلِ الْأُمُورِيِّينَ، كَمَا أَمَرْنَا الرَّبُّ إِلَهُنَا. وَجِئْنَا إِلَى  
قَادَشَ بَرْنِيعَ.<sup>٢٠</sup> فَقُلْتُ لَكُمْ: قَدْ جِئْتُمْ إِلَى جَبَلِ الْأُمُورِيِّينَ الَّذِي أَعْطَانَا  
الرَّبُّ إِلَهُنَا.<sup>٢١</sup> أَنْظُرُوا. قَدْ جَعَلَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الْأَرْضَ أَمَامَكَ. اصْعَدْ تَمَلِّكُ  
كَمَا كَلَّمَكَ الرَّبُّ إِلَهُ آبَائِكَ. لَا تَخَفْ وَلَا تَرْتَعِبْ.<sup>٢٢</sup> فَتَقَدَّمْتُمْ إِلَيَّ جَمِيعَكُمْ  
وَقُلْتُمْ: دَعْنَا نُرْسِلَ رَجُلًا قَدَامَنَا لِيَتَجَسَّسُوا لَنَا الْأَرْضَ، وَيَرُدُّوا إِلَيْنَا  
خَبْرًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي نَصْعَدُ فِيهَا وَالْمَدِينِ الَّتِي نَأْتِي إِلَيْهَا.<sup>٢٣</sup> فَحَسَنَ  
الْكَلَامَ لَدَيَّ، فَأَخَذْتُ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا. رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ كُلِّ سَبْطٍ.  
<sup>٢٤</sup> فَأَنْصَرَفُوا وَصَعِدُوا إِلَى الْجَبَلِ وَأَتَوْا إِلَى وَادِي أَشْكَوَلِ وَتَجَسَّسُوهُ،  
<sup>٢٥</sup> وَأَخَذُوا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَثْمَارِ الْأَرْضِ وَنَزَلُوا بِهِ إِلَيْنَا، وَرَدُّوا لَنَا خَبْرًا  
وَقَالُوا: جَيِّدَةٌ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي أَعْطَانَا الرَّبُّ إِلَهُنَا.

<sup>٢٦</sup> «لَكِنِّكُمْ لَمْ تَشَاءُوا أَنْ تَصْعَدُوا، وَعَصَيْتُمْ قَوْلَ الرَّبِّ إِلَهُكُمْ،  
<sup>٢٧</sup> وَتَمَرَمَرْتُمْ فِي خِيَامِكُمْ وَقُلْتُمْ: الرَّبُّ بِسَبَبِ بُغْضَتِهِ لَنَا، قَدْ أَخْرَجَنَا  
مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لِيَدْفَعَنَا إِلَى أَيْدِي الْأُمُورِيِّينَ لِكَيْ يَهْلِكَنَا.<sup>٢٨</sup> إِلَى أَيِّنَ نَحْنُ  
صَاعِدُونَ؟ قَدْ أَذَابَ إِخْوَتُنَا قُلُوبَنَا قَائِلِينَ: شَعْبٌ أَعْظَمُ وَأَطْوَلُ مِنَّا.  
مَدُنٌ عَظِيمَةٌ مُحَصَّنَةٌ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَيْضًا قَدْ رَأَيْنَا بَنِي عَنَاقَ هُنَاكَ.  
<sup>٢٩</sup> فَقُلْتُ لَكُمْ: لَا تَرْهَبُوا وَلَا تَخَافُوا مِنْهُمْ.<sup>٣٠</sup> الرَّبُّ إِلَهُكُمْ السَّائِرُ أَمَامَكُمْ  
هُوَ يُحَارِبُ عَنْكُمْ حَسَبَ كُلِّ مَا فَعَلَ مَعَكُمْ فِي مِصْرَ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ<sup>٣١</sup> وَفِي  
الْبَرِّيَّةِ. حَيْثُ رَأَيْتَ كَيْفَ حَمَلَكِ الرَّبُّ إِلَهُكَ كَمَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ ابْنَهُ فِي  
كُلِّ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكَتُمُوهَا حَتَّى جِئْتُمْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ.<sup>٣٢</sup> وَلَكِنْ فِي هَذَا  
الْأَمْرِ لَسْتُمْ وَاثِقِينَ بِالرَّبِّ إِلَهُكُمْ<sup>٣٣</sup> السَّائِرِ أَمَامَكُمْ فِي الطَّرِيقِ، لِيَلْتَمِسَ  
لَكُمْ مَكَانًا لِيَنْزِلَكُمْ، فِي نَارٍ لَيْلًا لِيُرِيَكُمْ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسِيرُونَ فِيهَا، وَفِي  
سَحَابٍ نَهَارًا.<sup>٣٤</sup> وَسَمِعَ الرَّبُّ صَوْتَ كَلَامِكُمْ فَسَخِطَ وَأَقْسَمَ قَائِلًا:<sup>٣٥</sup> لَنْ

يرى إنساناً من هؤلاء الناس، من هذا الجيل الشِّرير، الأرض الجيدة التي أفسمت أن أعطيتها لأبائكم،<sup>٣٦</sup> ما عدا كالب بن يَفنة. هو يراها، وله أعطي الأرض التي وطئها، ولبنيه، لأنه قد اتبع الربَّ تماماً.<sup>٣٧</sup> وعلى أيضاً غضب الربُّ بسببكم قائلاً: وأنت أيضاً لا تدخلُ إلى هناك.<sup>٣٨</sup> يشوع بن نون الواقفُ أمامك هو يدخلُ إلى هناك. شدِّدهُ لأنه هو يقسمها لإسرائيل.<sup>٣٩</sup> وأما أطفالكم الذين قُلتمُ يكونون غنيمةً، وبنوكم الذين لم يعرفوا اليومَ الخيرَ والشرفَهم يدخلون إلى هناك، ولهم أعطيتها وهم يملكونها.<sup>٤٠</sup> وأما أنتم فتحولوا وارتحلوا إلى البرية على طريق بحرِ سوف.<sup>٤١</sup> «فأجبتهم وقُلتمُ لي: قد أخطأنا إلى الربِّ. نحن نصدع ونحارب حسب كلِّ ما أمرنا الربُّ إلينا. وتنتظمتُم كلُّ واحدٍ بعدة حربه، واستخففتُم الصعود إلى الجبل. فقال الربُّ لي: قلْ لهم: لا تصعدوا ولا تحاربوا، لأنِّي لستُ في وسطكم لئلا تنكسروا أمام أعدائكم.<sup>٤٢</sup> فكلمتكم ولم تسمعوا بل عصيتُم قول الربِّ وطعيتُم. وصعدتُم إلى الجبل. فخرج الأموريون الساكنون في ذلك الجبل للقائكم وطردوكم كما يفعل النحل، وكسروكم في سعيي إلى حرمة.<sup>٤٥</sup> فرجعتُم وبكيتُم أمام الربِّ، ولم يسمع الربُّ لصوتكم ولا أصغى إليكم.<sup>٤٦</sup> وقعدتُم في قادش أياماً كثيرةً كالأيام التي قعدتُم فيها.» وفي الدفتر الذي كان خطَّ فيه بعض ما جادت به عليه قريحته، خطَّ أيضاً: «وحسب ما ورد، ويعتقد بنو إسرائيل أنه هو الصحيح ممَّا ورد إليهم عن أخبار الأيام السالفة، أن الله قد مهَّد لهم الطريق بأن هزم أعداءهم من الأموريين والباشانيين: ثم أمر موسى عليه السلام أن يأمرهم أن يدخلوا تلك الأرض التي فتحها لهم بقدرته وعزته وجبروته، فتلكأوا عليه، وتباطأوا، وقالوا ليذهب منا من يتحسَّس أمر هؤلاء المهزومين: وقد كانوا في قرارهم يخشونهم لما علموا من قوَّة أجسامهم وشدة بطشهم: وقد عزت عليهم الحياة وأرادوا أن تأتهم الأمور على هيئة دون أن يبذلوا في ذلك جهداً أو مشقة فعوقبوا. كما أخبر بذلك السفر. أن لا يدخلوا تلك

الأرض إلا ما كان من أمر كالب بن يوفنا ويوشع بن نون اللذين أطاعا أمر الرب ولم يرتابا فيما كان أخبره... (وفي هذا الموضع، نقول إن أمر الرب لم يكن مؤجلاً، ولكنه كان معجلاً، فمن يعصي أمره يعاقب في حينه، ولا يؤجله الرب إلى فترة من الزمن ليتدارك أمره أو يتراجع بالتوبة - ولعل الأمر في ذلك، والله أعلم، أن الرب قد خربني إسرائيل وعرفهم على حقيقتهم، فهم دائمو التذمور والأمر عليه؛ فما من شيء يأمرهم به إلا راجعوه فيه؛ ولم يرضوا بمشيئته، وتكبروا عليه، لأنهم كانوا يعتبرون أنه واحد كأبيهم، وأن أمره فيه ما يقبل وما يرد؛ فلذلك كان عقابه إياهم مشدداً لا هوادة فيه؛ وفي القراء نجد بعض ما ذكر في السفر مجملاً، لأن الله تعالى حين يذكر الرجلين المؤمنين في سورة المائدة لم يخبر بإسميهما اللذين يذكرهما سفر التثنية، وهما كالب بن يوفنا ويوشع بن نون، فنقرأ في القراءان الكريم: « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ <sup>(٢٠)</sup> يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ <sup>(٢١)</sup> قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ <sup>(٢٢)</sup> قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ <sup>(٢٣)</sup> قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ <sup>(٢٤)</sup> قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ <sup>(٢٥)</sup> قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ <sup>(٢٦)</sup> ». فكما نرى فقد كتى الله تعالى على كالب بن يوفنا ويوشع بن نون بالرجلين اللذين يخافانه، وهما الوحيدان من بين جميع بني إسرائيل اللذان أطاعا أمر الرب ولم يرتابا لحظة واحدة في أن وعده الحق وأنه لا يمكن أن يخلف هذا الوعد... وأقول أنا طاجيك

---

بن لامار إن هؤلاء القوم لو كانوا بالله مؤمنين وعليه متوكلين لعلموا أنه حينما يأمرهم بشيء فقد مكن له منذ البداية وأن ما عليهم إلا أن يتوكلوا عليه ويعزموا؛ غير أنه كما قلنا أنفا من اعتبارهم الله تعالى واحدا كأئمتهم جعلهم يعتقدون في قصوره. تعالى الله عن ذلك علوا كثيرا. فكان العقاب مشددا وكانت النتيجة وخيمة بحيث حرمهم دخول تلك الأرض المقدسة، وزاد على ذلك بأن جعلهم يتيمون في الأرض أربعين سنة... وقد ذكر المؤرخون العرب هذين الرجلين المؤمنين وعرفوا بهما وأسهبوا في ذلك، فنجد أن الحافظ بن كثير مثلاً قد ذكر خبرا مختصرا عنهما في الفصل الموسوم بـ «جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام» حيث يقول: «قال ابن جرير في تاريخه لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: «ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين.» قال ابن جرير ثم من بعده كان القائم بأمر بني إسرائيل حزقيل بن يوزي وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.» غير أن الإمام أبا جعفر بن جرير حين ذكر الخبر عنهما قد أسهب في ذلك، ومما ورد فيما كتبه نجد المذكور بالرسْم: «ذكر يوشع بن نون عليه السلام. ثم ابتعث الله عز وجل بعد موسى عليه السلام يوشع بن نون بن إفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبيا وأمره بالمسير إلى أريحا لحرب من فيها من الجبارين فاختلف السلف من أهل العلم في ذلك وعلى يد من كان ذلك ومتى ساريوشع إليها في حياة موسى بن عمران كان مسيره إليها أم بعد وفاته. فقال بعضهم لم يسريوشع إلى أريحا ولا أمر بالمسير إليها إلا بعد موت موسى وبعد هلاك جميع من كان أبي المسير إليها مع موسى

---

بن عمران حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين وقالوا مات موسى وهارون جميعا في التيه قبل خروجهما منه. ذكر من قال ذلك . حدثني عبدالكريم بن الهيثم قال حدثنا إبراهيم بن بشار قال حدثنا سفيان قال قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال الله تعالى لما دعا موسى يعني بدعائه قوله: «رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»<sup>(٢٥)</sup> قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ. « قال فدخلوا التيه فكل من دخل التيه ممن جاوز العشرين سنة مات في التيه قال فمات موسى في التيه ومات هارون قبله قال فلبثوا في تمهم أربعين سنة وناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبارين فافتتح يوشع المدينة . حدثنا بشر قال حدثنا يزيد بن زريع قال حدثنا سعيد عن قتادة قال قال الله تعالى: «إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.» الآية، حرمت عليهم القرى فكانوا لا يهبطون قرية ولا يقدرون على ذلك أربعين سنة. وذكر لنا أن موسى مات في الأربعين سنة ولم يدخل بيت المقدس منهم إلا أبناؤهم والرجلان اللذان قالوا ما قالوا. حدثني موسى بن هارون الهمداني قال حدثنا عمرو قال حدثنا أسباط عن السدي في الخبر الذي ذكرت إسناده فيما مضى لم يبق أحد ممن أبي أن يدخل مدينة الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح ثم إن الله عز وجل لما انقضت الأربعون سنة بعث يوشع بن نون نبيا فأخبرهم أنه نبي وأن الله قد أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه فهزم الجبارين واقتحموا عليهم فقتلوهم فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها لا يقطعونها. حدثنا ابن بشار قال حدثنا سليمان بن حرب عن هلال عن قتادة في قول الله تعالى: «فإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ.» قال أبدا. حدثني المثني قال حدثنا مسلم بن إبراهيم عن هارون النحوي عن الزبير بن الخريت عن عكرمة في قوله فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ قَالَ التَّحْرِيمُ التَّيْه. وقال آخرون إنما فتح أريحا موسى ولكن

يوشع كان على مقدّمة موسى حين سار إليهم. ذكر من قال ذلك - حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق قال لما نشأت النواشي من ذراريهم يعني من ذراري الَّذِينَ أبوا قتال الجبارين مع موسى وهلك أبائهم وانقضت الأربعون سنة التي تمهوا فيها سار بهم موسى ومعه يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وكان فيما يزعمون على مريم ابنة عمران أخت موسى وهارون فكان لهم صهرا فلما انتهوا إلى أرض كنعان وبها بلعم بن باعور المعروف وكان رجلا قد آتاه الله علما وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم فيما يذكرون الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى. حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سلمة عن محمّد بن إسحاق عن سالم أبي النضر أنّه حدّث أنّ موسى لما نزل أرض بني كنعان من أرض الشّام وكان بلعم ببالعة قرية من قرى البلقاء فلما نزل موسى ببني إسرائيل ذلك المنزل أتى قوم بلعم إلى بلعم فقالوا له يا بلعم هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بني إسرائيل ويسكنها وإنّا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدّعوة فاخرج فادع الله عليهم فقال ويلكم نبيّ الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم قالوا مالنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرّعون إليه حتّى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجّها إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسيبان فما سار عليها غير قليل حتّى ربضت به فنزل عنها فضرّبتها حتّى أذلّقها فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتّى ربضت به ففعل مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتّى ربضت به فضرّبتها حتّى إذا أذلّقها أذن الله لها فكلمته حجّة عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب ألا ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع عنها يضرّبتها فخلّى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت حتّى إذا أشرفت به على جبل حسيبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشيء إلا

صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه أتدري يا بلعم ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت الآن مَيِّ الدنِّيا والأخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة فسأمر لكم وأحتال جملوا النساء وأعطوهن السِّلَع ثم أرسلوهنَّ إلى العسكر يبعثها فيه ومروهنَّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنه إن زنى رجل واحد منهم كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيّين اسمها كسّتي ابنة صور رأس أمّته وبني أبيه من كان منهم في مدين هو كان كبيرهم برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل حتّى وقف بها على موسى فقال إنّي أظنّك ستقول هذه حرام عليك قال أجل هي حرام عليك لا تقرّ بها قال فوالله لا نصّيعك في هذا ثم دخل بها قبّته فوقع عليها فأرسل الله الطّاعون في بني إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان رجلا قد أعطي بسطة في الخلق وقوّة في البطش وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطّاعون يحوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلّها ثم دخل عليهما القبّة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السّماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار فجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطّاعون فحسب من يهلك من بني إسرائيل في الطّاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا في ساعة من التّهارق من هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص بن العيزار بن هارون من كلّ ذبيحة ذبحوها القبّة والدّراع واللّحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها

بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته والبر من كل أموالهم وأنفسهم لأنه كان بكر العيزار ففي بلعم بن باعور أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم: « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا .» يعني بلعم بن باعور: «فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ .» إلى قوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.» يعني بني إسرائيل أتى قد جئتهم بخبر ما كان فيهم مما يخفون عليك لعلهم يتفكرون فيعرفون أنه لم يأت بهذ الخبر عما مضى فيهم إلا نبي يأتيه خبر من السماء. ثم إن موسى قدم يوشع بن نون إلى أريحا في بني إسرائيل فدخلها بهم وقتل بها الجبابرة الذين كانوا فيها وأصاب من أصاب منهم وبقيت منهم بقية في اليوم الذي أصابهم فيه وجنح عليهم الليل وخشي إن لبسهم الليل أن يعجزوه فاستوقف الشمس ودعا الله أن يحبسها ففعل عز وجل حتى استأصلهم ثم دخلها موسى ببني إسرائيل فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم ثم قبضه الله إليه لا يعلم بقبره أحد من الخلائق. فأما السدي في الخبر الذي ذكرت عنه إسناده فيما مضى فإنه ذكر في خبره ذلك أن الذي قاتل الجبارين يوشع بن نون بعد موت موسى وهارون وقص من أمره وأمرهم ما أنا ذاكره وهو أنه ذكر فيه أن الله بعث يوشع نبيا بعد أن انقضت الأربعون سنة فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وأن الله قد أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم وكان عالما يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفروا إلى الجبارين فقال لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون فكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء من عظمهن فكان ينكح أتاناً له وهو الذي يقول الله عز وجل فيه: « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا .» أي فبصر، «آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ .» إلى قوله: «وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ.» فكان بلعم يلهث كما يلهث الكلب فخرج يوشع يقاتل الجبارين في الناس وخرج

بلعلم مع الجبّارين على أتانه وهو يريد أن يلعن بني إسرائيل فكلمًا أراد أن يدعو على بني إسرائيل جاء على الجبّارين فقال الجبّارون إنك إنمّا تدعو علينا فيقول إنمّا أردت بني إسرائيل فلمّا بلغ باب المدينة أخذ ملك بذب الأتان فأمسكها وجعل يحركها فلا تتحرك فلمّا أكثر ضربها تكلمت فقالت أنت تنكحني بالليل وتركبني بالنهار ويلي منك ولو أنّي أطلقت الخروج لخرجت بك ولكنّ هذا الملك يحبسني فقاتلهم يوشع يوم الجمعة قتالا شديدا حتّى أمسوا وغربت الشمس ودخل السبّبت فدعا الله فقال للشمس إنك في طاعة الله وأنا في طاعة الله اللهم اردد عليّ الشمس فردّت عليه الشمس فزيد له في النهار يومئذ ساعة فهزم الجبّارين واقتحموا عليهم يقتلونهم فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرّجل يضربونها لا يقطعونها وجمعوا غنائمهم وأمرهم يوشع أن يقربوا الغنيمة فقربوها فلم تزل النّار تأكلها فقال يوشع يا بني إسرائيل إنّ لله عزّ وجلّ عندكم طلبه هلمّوا فبايعوني فبايعوه فلصقت يد رجل منهم بيده فقال هلمّ ما عندك فاتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت والجوهر كان قد غلّه فجعله في القربان وجعل الرّجل معه فجاءت النّار فأكلت الرّجل والقربان. وأمّا أهل التّوراة فإنّهم يقولون هلك هارون وموسى في التّيّه وإنّ الله أوحى إلى يوشع بعد موسى وأمره أن يعبر الأردنّ إلى الأرض الّتي أعطها بني إسرائيل ووعدّها إياهم وأنّ يوشع جدّ في ذلك ووجّه إلى أريحا من تعرّف خبرها ثمّ سار ومعه تابوت الميثاق حتّى عبر الأردنّ وصار له ولأصحابه فيه طريق فأحاط بمدينة أريحا ستّة أشهر فلمّا كان السّابع نفخوا في القرون وضجّ الشّعب ضجّة واحدة فسقط سور المدينة فأباحوها وأحرقوها وما كان فيها ما خلا الذهب والفضّة وأنية النّحاس والحديد فإنّهم أدخلوه بيت المال ثمّ إنّ رجلا من بني إسرائيل غلّ شيئا فغضب الله عليهم وانهزموا فجزع يوشع جزعا شديدا فأوحى الله إلى يوشع أن يقرع بين الأسباط ففعل حتّى انتهت القرعة إلى الرّجل الّذي

غَلَ فاستخرج غلولة من بيته فرجمه يوشع وأحرق كل ما كان له بالنار  
وسموا الموضع باسم صاحب الغلول وهو عاجر فالموضع إلى هذا اليوم  
غور عاجر ثم نهض بهم يوشع إلى ملك عايي وشعبه فأرشدهم الله إلى  
حربه وأمر يوشع أن يكمن لهم كميناً ففعل وغلب على عايي وصلب  
ملكها على خشبة وأحرق المدينة وقتل من أهلها اثني عشر ألفاً من  
الرجال والنساء واحتال أهل عماق وجيعون ليوشع حتى جعل لهم  
أماناً فلما ظهر على خديعتهم دعا الله عليهم أن يكونوا حطّابين وسقّائين  
فكانوا كذلك وأن يكون بازق ملك أورشليم يتصدّق ثم أرسل ملوك  
الأرمنيين وكانوا خمسة بعضهم إلى بعض وجمعوا كلمتهم على جيعون  
فاستجد أهل جيعون يوشع فأنجدهم وهزموا أولئك الملوك حتى  
حدروهم إلى هبطة حوران ورماهم الله بأحجار البر فكان من قتله البرد  
أكثر ممّن قتله بنو إسرائيل بالسيف وسأل يوشع الشمس أن تقف  
والقمر أن يقوم حتى ينتقم من أعدائه قبل دخول السبت ففعل ذلك  
وهرب الخمسة ملوك فاختلفوا في غار فأمر يوشع فسدّ باب الغار حتى  
فرغ من الانتقام من أعدائه ثم أمر بهم فأخرجوا فقتلهم وصلبهم ثم  
أنزلهم من الخشب وطرحهم في الغار الذي كانوا فيه وتتبع سائر الملوك  
بالشام فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً وفرّق الأرض التي غلب عليها  
ثم مات يوشع فلما مات دفن في جبل أفرابيم وقام بعده سبط يهوذا  
وسبط شمعون بحرب الكنعانيين فاستباحوا حريمهم وقتلوا منهم  
عشرة آلاف ببازق وأخذوا ملك بازق فقطعوا إبهامي يديه ورجليه  
فقال عند ذلك ملك بازق قد كان يلقط الخبز من تحت مائدتي سبعون  
ملكاً مقطّعي الأباهيم فقد جزاني الله بصنيعي وأدخلوا ملك بازق  
أورشليم فمات بها وحارب بنو يهوذا سائر الكنعانيين واستولوا على  
أرضهم وكان عمر يوشع مائة سنة وستاً وعشرين سنة وتديره أمر بني  
إسرائيل منذ توفّي موسى إلى أن توفّي يوشع بن نون سبعا وعشرين  
سنة...» قال طاجيك بن لامار: «وقد أوردت هذه الأطراف من كتب

المتقدمين من مؤرّخي المسلمين حتّى أسدّ ما يمكن أن يطرأ من الخلل بين ما هو موجود في أسفار العهد القديم ومثيلاتها من أسفار التّاريخ الكثيرة التي كان أمرها لا يخلو، في أحيان كثيرة، وعند الكثير من المشتغلين بصناعة التّاريخ، من إقحام الكثير من الإسرائيليات التي لم تثبت، وإنّما زيدت إمّا لهدف التّضليل أو التّهويل، أو غيرها من الأسباب المستترة... وفي الأخبار التي ذكرتها من طريق ابن جرير، يتّضح للعيان أنّ الرّجل إنّما كان يورد بدل الرواية الواحدة روايات، وبدل الراوي رواة متعدّدين، حتّى يجمع أكثر ما يمكن من البراهين؛ غير أنّه رحمه الله، لم يكن همّه أن يوازن بين هذه الروايات أو أن يجرح الأسانيد أو يعدّلها، وإنّما كان قصارى ما يقوم به أن يضع القارئ أمام خيار الاختيار بنفسه. ولعلّ القارئ إذا أعوزته ملكة التّمييز سيقف أمام هذه الروايات موقف من يعتبرها مادّة للمتعة باعتبارها قصّة أو مجرد خبر أو ما شابههما؛ وما دام ذلك كذلك، فلن يكون همّه التّمحيص، أو تخريج الأحاديث إن وجدت، أو إرجاع الآيات إلى سورها إن ذكر بعضها، لأنّ هذه الأشياء إنّما ستكون منوطة بمحدّث نحريّ أو عالم خبير. ثمّ إنّ طريقة المؤرّخين المسلمين في استنبات مادّتهم والاشتغال بعلمهم إنّما تختلف شكلا ومضمونا عمّا هو وارد في الأسفار؛ حيث أنّنا نجد بالأسفار ذكرا واحدا للخبر، وهذا الخبر لا يرد إلّا في سياق وحيد وبسند وحيد، وعلة ذلك، والله أعلم، أنّ تلك الأسفار في العهد القديم إنّما ينظر إليها على أنّها الحقيقة الكلّية المطلقة، لأنّ الذي أملاها أو أوحاها إنّما هو الرّبّ الذي لا يختلف القراءان ولا التّوراة على أنّه كلّ موسى عليه السّلام دون أن ينظر إليه؛ وفي القراءان الكريم أنّ موسى حين طلب من الله تعالى أن يراه، قال له جلّ ذكره: «إنّك لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإنّ استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا.»

كان وهو يكتب يريد أن يأتي بشيء جديد لم يسبقه إليه أحد؛ وكان

يعي أنه بمقارنته بين كتب التاريخ التي هي من وضع بشر فانيين وبين الأسفار أو غيرها من الكتب المعدودة فيما هو مقدس في الأديان يمكنه أن يستخلص ما عجزت عن تجليته كل من هذه الكتب منفصلة بعضها عن البعض الآخر؛ ولكن تظل هناك مسائل، (كان يقول في نفسه)، لا بد من توضيحها والإشارة إليها؛ وأول هذه المسائل أن السياقات ليست واحدة، ولو أن الأمر لا يخلو من أن بعض من كتب من المسلمين قد يكون اتصل ببعض أهل الكتاب من المعتقدين في التوراة، وقد كانت تجري بين الفريقين في الكثير من الأحيان مجادلات تنتهي بأن يأخذ أحد الطرفين من الآخر، ويعلم بعض ما كان مجهولا لديه، فيسد الرتق فيما كان يكتبه؛ وهكذا كان من شأن الرؤية أن تتسع في كل مرة، وأن تتصل عرى التواصل؛ وكان المستفيد في كل مرة هي هذه الكتب وهذه الأسفار، فيفصل فيها ما كان مجملا، وبالشروح عليها كان يذهب الغموض، وبالكتابة على الحواشي كانت تنجلي المشكلات تماما، وتصبح تلك الكتب معلومة للجميع، فيعمل من يريد العمل بها، ويتسنى للفقهاء أن يستخرج منها الأحكام، وللمتكلم أن يستقي منها البراهين، وللأصولي أن يستدل بها على ما يلزمه من إثبات وحدانية الله وربوبيته... (ورغم شغفه في أوقات بعينها ببعض مباحث الحياة اليسيرة إلا أنه خلال تلك الساعات التي كان يخصصها لكتابته يتلبسه عناد الخلو تماما إلى ما هو فيه والقبوع في غرفته، مكتفيا بالصمت ومحاوره تلك الكتب التي كانت تتحوّل إلى كائنات من لحم ودم يحاورها ويبثها أشجانها وتساؤلاته، وقلقه، وهو اجسه الكثيرة؛ وكانت تلك الكتب، على صمتها وجمودها، لا تبخل عليه بالقرب، وكان يحس ذلك فيما كان ينكشف له من أسرار، ومن فتوحات، ومن مغاليق كانت تترأى له مثبتة في أصول أبواب ضخمة كبيرة، ثم تتحرك تلك المغاليق فجأة في تلك الأبواب وتجلي له ما كان خافيا وراءها... ومن باب إلى باب، ومن

مجاز إلى مجاز، كان يرى ويتعجب، ويستغرب استغراب من يعلم علم اليقين أنّ العلم لا يحدّ، ولكن مع ذلك حين يظفر بفتح جديد يساوره شعور بالندم أنّ المعرفة ليست نهائية وأنه كلّما ظنّ أنّه اقترب من منبع المعرفة والكمال اكتشف أنّه ما يزال في بداية الطّريق... وكانت الأبواب لا تنتهي أبداً، والمغاليق تفضي إلى مغاليق جديدة: والغرفة التي كانت تسند وحدته كان يتصوّها في أوقات كثيرة قلعة من القلاع العصيّة، أو مخبأ من المخابئ كتلك المخابئ التي كان يخبئ فيها اللصوص كنوزهم؛ غير أنّ كنوزه هو لا تقدّر بثمن؛ وقد انضاف إليها كنز آخر هو أكبر من كلّ الكنوز - لم يكن يعلم الوقت تماما، وقد تناولت عليه الساعات، واستغرقتة الكتابة التي كانت تتشعب في كلّ مرّة؛ ولم يكن لديه إحساس ثابت بهمار كان يتصرّم أو ليل كان ينتشر يسيرا يسيرا فيغطي على كلّ شيء، ويتسرّب في أتونه كلّ ما كان ظاهرا في مملكة التّهار؛ والصّوت أو الطّرق على الباب، أو هكذا يخيل إليه، لا يستطيع أن يؤكّد لنفسه أنّه كان يسمعه كشيء حقيقي لا مرأى فيه؛ وربّما هذا ما جعله لا يتشجّع أن يترك أوراقه ويذهب إلى الباب لتفقد من عساه يكون هذا الذي يريد أن يقتحم عليه عزلته وانفراده، إن كان هناك من أحد أصلا؛ وكان قد ذهب بعيدا في المجازات التي كانت تتعقّبه، واجتاز أبوابا لم يعد يذكر عددها، وبانت له، ربّما في محيط خياله أو في الحقيقة الظّاهرة التي كانت هي تلك الأبواب والمغاليق وما يحيط بها من الأسرار التي كانت تأخذ في كلّ مرّة أشكالا لكائنات أو حيوانات صغيرة، أو وديان أو أنهار، أو جبال تغطّيها خضرة لم يرمثلها من قبل، وأشياء أخرى بمختلف الألوان والأحجام؛ وربّما لم يرها لا هنا ولا هناك، ولكن في المكان الذي لم يكن يتصوّر أن تفاجئه منه؛ ولم يكن يظهر منه حين تطلّعت إليه سوى خلوه وسهومه، وكانت هي تغرق في سوادها، وقد تنكرت في زيّ طارئ من طارئ الخان حتّى لا يتعرّف عليها أحد؛ وكان هوراها أو لم يرها، أو خيل إليه أنّه لم يرها؛ أو ربّما لأنّه ظنّ

---

أنّ أحدا ممّن يعرفهم من غير الممكن أن يتجشّم مشقّة إزعاجه في ذلك الوقت، فلم يقدّر أنّ ذلك الصّوت أو الطّرق الذي خيل إليه أنّه سمعه عند الباب قد يكون حقيقيّاً؛ وبدا له أنّه يراها أخيراً، ثمّ تراجع قليلاً وعزا إلى عينيه نيّة خداعه: واستمرّ في تهويماته عبر الأبواب والمغاليق، وبينما كان يستعدّ لقطع مجاز لم يعد يذكر من هيأته سوى أنّه كان مضاء إضاءة خفيفة، وتحيط به أشجار سرو عالية، وفي نهايته كان هناك جدول يجري بماء مثل اللّجين؛ وعلى بساط من الحشائش الياقوتية، تراءت له على البعد في حلّة قشبية بعد أن نزعت سوادها، وأشارت إليه قائلة، وقد التبتست شفتها اللّعساوان بابتسامة أضواء لها المجازوما حوله:

- تعال.

وفي مسافة العيان، الذي ليس بعده برهان: في تلك المسافة التي يرفدها الصّمت الذي كان يتكثّف من حوله، صمت أبكم، جفول، مشاكس حين يريد، وعنيد حين لا يريد أن يفضي أو أن يفضح ما بداخله من أسرار تمور مورا، بدا لطا جيك أنّ المكان خال تماماً، وأنّ بداخله، كما في خارجه في فضاء المكان الذي هو غرفته، لم يكن هناك سوى عقله الباطن الذي كان يزوّده بما يريد إملاءه أو كتابته؛ ثمّ تلي تلك المسافة من العيان مسافة أخرى، هي مسافة الوهم، وصمتها، وإشرافها عليه من أعالي لم يعتدها من قبل، فتحيط به من كلّ جانب وتملك عليه ليس صوابه فحسب ولكن كلّ أمره ولا تدع له مجالاً لأنّ ينشغل بغيرها؛ ففي تلك المسافة بالذّات لحظها، رآها، كما لو أنّه يرى شيئاً من وراء ستار أو من وراء حجاب، وكانت تظهر وتختفي، وتظهر وتختفي، كأنّما هي كائن وليست كائناً، أو هي حقيقة كانت تتداول مع الوهم الذي كان يمدّها بكلّ طاقة هي في حاجة إليها للتّخفي والمناوره... وكان قلبه ينازعه إليها، وكان عقله يقول: «تريث!!» فرتّبما كان كلّ الأمر مجردّ خطرة من الخطرات التي يفرزها في أغلب الأحيان ذهن مجهد

وقوى قد استغرقتها ليال بأكملها من التَّعب والضَّيِّ؛ وبين المسافتين (مسافة العيان ومسافة الوهم)، وبين المتوالين (حقيقة كانت أو خيالاً)، وبين رغبتيه (رغبته أن يكون ما يراه هو ما يرغب فيه حقاً ورغبة أخرى تجعله يودُّ لو تلتفي عيناه تماماً لأنَّهما ربَّما تكونان تخدعانه أو ترومان أن تلعبا معه لعبة ثقيلة ليس له قبل بما يمكن أن تجرَّه عليه من ضياع وقته هدرًا) - بين ذلك جميعاً، كانت تشير إليه؛ وظلَّ عينيه، ورأى فيما يرى النَّائم أو اليقظان كأنَّ تلك الَّتِي تجلس على ذلك البساط الياقوتيّ ترميه بكلِّ وجد قلبها، ترميه بكلِّ الأهات الدَّفينة في أعماقها الَّتِي لم يكن يعلم عنها شيئاً؛ وكانت أيضاً ترميه بحاءات الحبِّ من حلق كان يترقرق كأنَّما بشدو لم يسمع مثله من قبل في حياته، وترميه بأهات الوجدان الَّذِي كان يخرج مع الكلام ويسافر إلى وجدانه فيلتبس بالتياثات حنينه وأشواقه، وترميه بحروف كثيرة، حرف في إثر حرف، ولم يكن يعلم تماماً من أمرها شيئاً حين كانت تفعل ذلك: هل كانت تبتسم؟ هل كانت تضحك؟ هل كانت قائمة؟ أو كانت جالسة؟ هل كانت إنسيَّة أم جنبيَّة؟ أم كانت هي نفس الشَّخص في كلِّ مرَّة، بالإسم الَّذِي عرفها به في مكان لم يعد يذكر موقعه في خارطة ذاكرته أو تضاريس المدينة الَّتِي ضاعت وتلاشت في ذهنه؟ أو هي شخص كانت تروم أن تسجنه في إطار من سلطتها فتنزعه عنه كلِّ ملكات تمييزه ملكة بعد ملكة، وترسله إلى أقيانوسات ومجاهل من دونها مغاليق كتلك المغاليق الَّتِي كان يديرها في أبواب خياله، ومن دون المغاليق مجازات لا يحصي عددها إلا الله تعالى... وفي فسحة من زمن أثيريّ، رأى في نومته أو يقظته، في تهويماته أو أسفاروعيه، كما لو أنَّ شيئاً مثل عينها يسافر إليه؛ وليس عينها فحسب، بل وفمها أيضاً، ويدها، وكلِّ فتنها ومفاتها وهي تحوطه إحاطة السَّوار بالمعصم، وكانت وهي تفعل ذلك تتعلَّق بأفقه أصوات لم يسمع أجمل منها فيما ولَّى من سني عمره؛ وخيَّل إليه أنَّ جوقه

بأكملها، أو أنّ كورسا، بألته الكثيرة كان يغني من حوله؛ وبين مسافة الصمت العصي والكلام المتأني، بين الصمت الجفول أحيانا والكلام الحي، نبع من لاشيء العدم، فم رقيق، دقيق، شفتاه كأنهما هلالان اختفيا لشهور وشهور ثم ظهرا أخيرا أشبه بخطين بالكاد يراهما الناظر إليهما، غير أنّ فيهما فتنة لا توصف، ولم يكن مع الفم شيء آخر. فم ولا جسد، ولا كلام أيضا، والصمت الذي كان يحقه كان صمته موحيا، أو هو صمت ينتظر الوقت المناسب ليتدفق بما يمور به باطنه؛ وقد سمع أخيرا، في الوقت الذي كان فيه الكورس والجوقة يعلوان بطبقة قرار تتلوها طبقة جواب، وهكذا: سمع كلاما أشبه بالترتيل أو الوجد، وحينما نظر إلى الأعلى، كان مرتل، متسريل في البياض، يقول وكأنما يبكي، ويقول وكأنه يريد أن يسمع العالم، ويقول وكأنه يتجرد من كل شيء إلا من أثيرية روح كانت تندف بجناحها وتحلق في أجواز الفضاء الذي لا يرى - وكان المرتل يغني، بلا غناء، وببكي، دون بكاء، وكان الحب قد صار وجدا، وكل شيء صدر عنها كان يورد من جديد، ليلتئم مع كينونتها ووجودها، فأراها تستمع وقد استحالت إلى كوكب في السماء، أو نجمة من النجوم الجاربات دون توقّف، أو حورية من الحوريات التي كانت تشفّ بما تحت إهابها؛ وبكى مع المرتل، ولكن بكاءه كان بكاء تطفى عليه العبرات والغصص والدموع، وكان يغني معه، مع المرتل، وكان غناؤه نشوة ونشيجا في أن: «من حرّ الشوق بعينيها، عمد ترتيل الصمت بقلبي، يا ربّ الصمت العلوي الأدنى، حرّقي في أكناف سناها وسلواها، وانثر. يا ربّ الشعري. على ضلعي من نار لظاها، حميها أذقني لأعرف أوار الشكوى، وأعذر في الحب كل العشاق، ومن ذاقوا صبايات الفتنة والصبوة؛ تختال أمامي، تخطر كالمهرة تشبّ، ببنان تسكب من حرّ كياني، عيناها الماء الضالع في فوضى الكلمات، قراها الجوع الدائم، والنظرة تلو النظرة لا تدعو، وتقتل بالرمش المتهدّل، لا تدعو وتحيي بوعد الوصل، هي الأولى وأخراي المنذورة من طعم

الفصح ولون الخمر وبأساء الجسد المتلّفَع بالشوك وورد الشعراء، هي الهجعة والهجرة، ما يعرفو دمائي، ويجيش بخرفة الأحلام، أراها بحاءاتي الخمسين وازدادت عشرا، وباءاتي العشرين وانثالت عسرا، من بعد الإعسار سوار، وإساري عوارودوار، إعساري يداها وسناها، وبريق محيّاها... إعساري بلاياها... رباها وسهوب مداها... وإعساري أستدعي خطاها، وأراقب في الليل بريق اللّمع بالألاها، فلافمها الخمري، لميّاها تقيني فأوقّي حرفمها وحرّاها، ولا الليل المسدول المكحول يفرشني وطأه، يكسوني كما اللّحم المترع يكسو عظام الخلق، بعيد الإتراب، ومجّ النطفة في أصل الظلّمات السريّة، ثمّ الإنشاء من المضغة، حتّى العمر المرذول يوافي، أو قطع للعمر بمحكم آيات الهلكه، وهي شقائي ودوائي، وهي الداء المستأصل من شجر الرّقوم، المزروع بعمق خوائي، وهي الجلوة والحلكة، وهي الأسماء بلاءات التعريف جميعا، وهي الإنكار وكلّ التّنكير، وهي إذا قمت أراها، وإذا نمت أراها، وإذا صلّيت أرى الآيات تعبرفاها، أراها وأراها، ترقع تسجد، يا ربّ كأني أنا، فاغفر، يا ربّ لي ولها، جزعتي هواها، واقتلني إذا متّ شهيد حماها، وانثر، يا ربّ الشعري. على ضلعي من نار لظاها، حميّاها أذقني لأعرف سرّ الخوف وآلام الشعراء!!!!»

وسمعتها، أو خيل إليه أنّه سمعها تقول:

- تعال.

ورام أن ينظر ناحية الجهة التي ربّما تصوّر أنّها قابعة فيها؛ وحينما فعل أخيرا أراها في كلّ مكان، وكانّ عينيه تخدعانه مرّة أخرى فتصوّر أنّها له كأنّها انعكاس لصورة على عدد لا يحصى من المرايا؛ فأغمضهما بعنف وقد أصبح يخشى على نفسه من التّشظّي الذي لو طال به سيتذرى كما تتذرى حبّات من القمح في يوم كثرت رياحه وأعاصيره؛ وبينما هو في غفوته تلك توقّف صوتها عن النداء وترافق ذلك مع صوت المرتل، وهو يبكي من جديد، أو هو يغني، أو هو ينشج، أو يشطح

على طريقته التي لا يحذقها سواه: «تغمرنى . السّاعة . أشيائي بحجمي إذ أراني ممكنا؛ لا حرف للوصف، ولا صوت يقول البوح عكسا... لا اختبار... لا اختيار... كلّ شيء ممكن؛ حتّى الشّعور عارض... تمحوه أطياف النّهار... الخوف لا يكفي . إلهي! فامنح القلب الحزين شوقه، وأعطه، مجّده بنور، وانفض الغبراء عنه، سمّه من فيضك العلويّ أسماء، واسقه فصل الخطاب... الحرف لا يكفي، وقلبي ضالع في التّيه، لا تكفي الحروف كلّها... ماذا أسمّي هديها؟ ماذا أسمّي شوقها... شوقي لها؟! كيف أسمّي همسها... ترنيمها... ماذا أسمّي نزعها قلبي، ولثمي ريقها... تغريدها...؟! كلّ الحروف لعنة... كلّ الكلام، واللّغه!! يا ربّ، أنسى إذ أراها أن لي قلبا... وحرفا واحدا... وأنّ لي حدّا، وشوقا واحدا... أنسى إلهي أنّي من طين هذي الأرض، من أعطافها الدّنيا، ومن ماء مهين أسن... لا ذنب لي . يا ربّ . إلّا أنّي أحببتها؛ لكنني . يا ربّ . لا أدري لأيّ اسم وصفها... لأيّ نعت سحرها... لا ذنب لي . يا ربّ . إلّا أنّي عزّبتها وسرايها... لا ذنب يكفي ذنبا الفتان؛ فأعطني حرف الحروف كي أسمّي هديها شيئا جديدا... شيئا بحجم الأخيله... كي أعطي أشواقها مملكة، كلّ الهروب خلفها شوق إلى المجيء واحتفال بانشطار الأزمنه... صوتي هيوليّ العجيج، مثقل بالرّوع، مقصوص الشّفه!! ما ضرّ لو تسمي الحروف نغمة الكون، فتبني من سقوطي كلّ إمكان السّكون، تعتلي في سمّ روجي عجزها للقول... صه!! صمتا لنلأ... لو... وإني... أه... خوفي... والسّقوط: هذه حمى العذاب، أن ترى بحرا، فيأتي الماء رقرقا، وتمتصّ المياه شوقك الطّامي... تروم الكشف والإفصاح، لكن لا ضجيج غير أشتات من الحرف الرّكيك... هذه حمّاي؛ كيف أشتفي من لغة تضيق بالصّمت وأحرفها العتيقة... كيف يمسي صوتها نايا... ووجهها مرايا في بياض الياسمين... والشّفه: خطّين من طيب يثير القلب... يأتي بصمت الكون... يعطيني الخفايا... والمرايا... وانشطار الأزمنه... ثمّ اللّغه!!»

---

وسمعتها تقول للمرّة الثّالثة:

- تعال.

وحينما ولى وجهه قبلها كانت تحلّق على علوّ ليس بالمرتفع تماما ولا المنخفض تماما؛ ولم تعد تلك التي خيل إليه أنّها جاءت متنكّرة، ربّما من خلف الباب، أو من وراء مغاليقه ومجازاته، وإنّما كائن قد شفّ، وأصبح كلّه بياضا، ولم يكن به ما يعيب، لأنّه فارق تماما الجسد الذي كانه، وما بقي منه روح أعادت تكوينه بأجزاء جديدة أخذت من شفافيّتها وأثيريّتها؛ وكان يتطلّع إلى كلّ ذلك بين رجاء ويأس، بين إقبال ونكوص، بين وعيه أنّ هناك غشاوات من سديم تغشّي عينيه، وأنّه يرى فعلا ما يراه بلا مرأى، وهفت نفسه إليها، إلى عناقها في ذلك المسار الذي يمضي صعدا إلى سماء من ورائها سماء، ومن وراء تلك السّماء سماوات؛ وفي طريقه إليها كان هو أيضا يتخفّف من عناصره الأولى، من خلاياه، وأنسجته، وعضلاته، ولحمه، ودمه، وكان يرى بأمّ عينيه أنّه يتحوّل إلى كائن أثيريّ يشبهها في كلّ شيء - والتقيا في المنتصف من كونهما، وكان مغناطيسهما يجذبانهما واحدهما إلى الآخر، وكان واضحا أنّ لقاء جديدا على الحدود، بلا عراقيل، ولا أصوات، ولا موانع، ولا إكراه، سيعيد صياغة تلك المجازات التي رآها تتحوّل إلى عرائش من الفضة والذهب، وتلك المغاليق تستبدل بأخرى دائمة البريق ولا تمنع القادم قبلها من الولوج إلى جنان من العقيق مليئة بطيور صادحة، وأنهار جارية، وفرش مبعوثة عليها غلمان وجوار لم ير أجمل منهم، ربّما في حياة أخرى فانية، وكانت هناك عطور ما أن تلج الأنوف حتّى تخدّرها، وأباريق قد اشتملت على خمور لا غول فيها ولا تأثيم، وكانت الخضرة في كلّ مكان؛ وحين اعتنقها اشتمّ فيها روائح الصّبأ، ورأى في أقطابها التي لا تحدّها الحدود جمال الأزمنة الدّابرة، وأزمنة الحال، وأزمنة المأل؛ ورام الكلام فوجد أنّ القبلة التي طبعها على شفّتها كانت أبلغ من كلّ كلام الأرض... وكان الشّيخ هناك، كان

---

النّور على مبعده منه، على مبعده منهما، وبدا له أنّه يبتسم، وقبل أن يتكلّم. مدّ يده إلى وجهه الذي لم يكن باديا، كأنّه بهمّ بتعديل شيء ما، أو تجلية حلقه قبل أن يقول:

- مبارك، هذا اللقاء الذي سبق اللقاء!!

كان يريد أن يسأل، أن يقول:

- أيّ لقاء؟!

ولم يكن بيد علمها هي أنّها رأّت الشيخ، أو لحظت ذلك النّور، واستغربت قليلا نفرته، وهما على ما هما عليه من الانسجام، ولكن لم يلبث ذلك إلا قليلا لأنّ ذلك النّور الذي نبع فجأة قد اختفى فجأة... وكانت تلك الجوقة، وذلك الكورس، يغنون من حولهما، وهما يرقيان، وهما يجوزان: هي إلى سحابات قد واربتها تماما؛ وهو، حين فتح عينيه مرّة أخرى، كانت ذبالة الشمعة التي يستأنس بنورها وهو يكتب قد انطفأت، وطغت الظلمة على كلّ الغرفة... لم يستغرب ذلك الفراق المفاجئ لأنّه كان منذ البداية غير متوقّع لذلك الظهور، ولا ذلك الزّواج الأثيري الذي حمله على كفه إلى ذرى نشوة لم يذق الأحياء مثلها من قبل...!!! وانصرفت عيناه لإراديا إلى أسفاره وكتبه، وحينما جالتا على الأوراق وما كان كتبه بدا له أنّ هناك من الكتابة ما هو أكثر بكثير ممّا كان كتبه؛ وأنّ هناك كتابة ليس على دفاتره وحسب، وإنّما كذلك على الحواشي؛ وما استغربه حقّا أنّ تلك الكتابة كانت تتكلّم، أو هكذا خيّل إليه؛ أو حتّى يضع الحروف على النّقاط بشكل صحيح، كانت تلك الكتابة تنضح بألاف الأصوات التي تتكلّم في وقت واحد، وقد طغى عليها صليل سيوف، واشتباك رماح، والتحام جنود، ومنجنيقات كانت تقذف في الهواء عشرات الحجارة باتجاه قلاع غاية في الضخامة والطول... وكان صوت يقول، ويردّد في كلّ مرّة، فتتردّد نبراته حتّى تبلغ عنان السّماء:

- إنّه يوم من أيّام الله... الصّبر الصّبر... إنّما هو صبر ساعة وبعد

---

ذلك النَّصْرَانِ شَاءَ اللهُ...!!

كان ذلك صوتاً مألوفاً لديه، وإن كان غريباً بعض الشيء؛ ورغم بعده فقد كان قريباً منه، وكأنه يسمعه من الغرفة؛ وأرهف سمعه وهو يشترئب ناحية الجهة التي بدا له أن الصوت آت منها، فألفاه يلتبس بأصوات أخرى، وأن تلك الأصوات كانت من القوة بحيث كانت كافية لتقويض كل شيء، ليس فقط القلاع والحصون، بل واستئصال كل شيء في طريقها... وسمع صوته ثانية، صوت ذلك الرجل (إن كان رجلاً) الذي كان سمعه أول مرة، وكأنه يتلو شيئاً، أو يترنم بشيء، أو يأسف على شيء، أو يريد فقط أن يذكر نفسه حتى لا ينسى:

- قال موسى، نبي الله، وكنت أنا ساعده الأيمن؛ وكان جميع بني إسرائيل ميالين إلى تكذيبه، وحرصت أنا وكالب أن نكون معه... صحيح، كان معه أخوه هارون، وكان الرب قبل ذلك معه، ولكن كان لا بد أيضاً من عدد وعدة، ومن عزيمة ونحن نروم دخول الأرض المقدسة التي كتبها الرب لنا... قال لهم موسى: «إن الرب وعدني!» قالوا: «وما يديننا؟» ولم يكن ذلك منهم تكديباً له، ولكن ثقاقلاً عليه ومماطلة له لما كانوا يعلمون من قوة وبأس من أمروا بمحاربتهم؛ وقالوا له: «اذهب أنت وربك وأريانا ماذا بإمكانكما فعله...» وتلبثوا في أماكنهم، فحرم الله عليهم دخول الأرض التي وعدهم إياها وابتلاهم بالتيه - وإني، وأنا أهم بتحقيق الوعد ودخول أرض الجبابرة، لتدمع عينايا لأن معلمي ومولاي الذي لازمته طوال سني عمري قد قضى قبل أن تتكحل عيناها برؤية ما يراه تابعه وخادمه الآن؛ وإني لأذكر كل ما قاله لهم، وكان يعيد في كل مرة، ومرة بعد مرة، أمر الرب عليهم، وكان يخوفهم، وكانوا كلما ألح عليهم ازدادوا استهانة بأمر الله، وكانوا يقولون، بينهم وبين أنفسهم، وكلما خلا أحدهم إلى نفسه: «ليذهب الله ويقاقل عنا، فلا قبل لنا بجبابرة الكنعانيين!!» وقال موسى، نبي الله: «**ثُمَّ تَحَوَّلْنَا وَارْتَحَلْنَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ عَلَى طَرِيقِ بَحْرِ سُوفَ كَمَا كَلَّمَنِي الرَّبُّ، وَدُرْنَا بِجَبَلٍ سَعِيرٍ أَيَّامًا**

كثيرة. <sup>٧</sup> ثُمَّ كَلَّمَنِي الرَّبُّ قَائِلًا: «كَفَاكُمْ دَوْرَانِ هَذَا الْجَبَلِ. تَحَوَّلُوا نَحْوَ الشَّمَالِ. وَأَوْصِ الشَّعْبَ قَائِلًا: أَنْتُمْ مَارُونَ بِنُحْمٍ إِخْوَتَكُمْ بَنِي عَيْسُو السَّاكِنِينَ فِي سَعِيرَ، فَيَخَافُونَ مِنْكُمْ فَاحْتَرِزُوا جِدًّا. لَا تَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ، لِأَنِّي لَا أُعْطِيكُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَلَا وَطْأَةً قَدَمٍ، لِأَنِّي لِعَيْسُو قَدْ أُعْطِيتُ جَبَلَ سَعِيرَ مِيرَاثًا. طَعَامًا تَشْتَرُونَ مِنْهُمْ بِالْفِضَّةِ لِتَأْكُلُوا، وَمَاءً أَيْضًا تَبْتَاعُونَ مِنْهُمْ بِالْفِضَّةِ لِتَشْرَبُوا.» <sup>٨</sup> لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ قَدْ بَارَكَكَ فِي كُلِّ عَمَلٍ يَدُوكَ، عَارِفًا مَسِيرَكَ فِي هَذَا الْقَفْرِ الْعَظِيمِ. الْآنَ أَرْبِعُونَ سَنَةً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ مَعَكَ، لَمْ يَنْقُصْ عَنْكَ شَيْءٌ. <sup>٩</sup> فَعَبَّرْنَا عَنْ إِخْوَتِنَا بَنِي عَيْسُو السَّاكِنِينَ فِي سَعِيرَ عَلَى طَرِيقِ الْعَرَبَةِ، عَلَى أَيْلَةَ، وَعَلَى عَصِيُونَ جَابِرَ، ثُمَّ تَحَوَّلْنَا وَمَرَرْنَا فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةِ مُوَابَ.

<sup>١٠</sup> «فَقَالَ لِي الرَّبُّ: لَا تُعَادِ مُوَابَ وَلَا تُبْزِعْ عَلَيْهِمْ حَرْبًا، لِأَنِّي لَا أُعْطِيكَ مِنْ أَرْضِهِمْ مِيرَاثًا، لِأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أُعْطِيتُ «عَارَ» مِيرَاثًا. <sup>١١</sup> الْإِيمِيُّونَ سَكَنُوا فِيهَا قَبْلًا. شَعْبٌ كَبِيرٌ وَكَثِيرٌ وَطَوِيلٌ كَالْعَنَاقِيِّينَ. <sup>١٢</sup> هُمْ أَيْضًا يُحْسَبُونَ رَفَائِييْنَ كَالْعَنَاقِيِّينَ، لَكِنَّ الْمُوَابِيِّينَ يَدْعُوهُمْ إِيْمِيينَ. <sup>١٣</sup> وَفِي سَعِيرَ سَكَنَ قَبْلًا الْحُورِيُّونَ، فَطَرَدَهُمْ بَنُو عَيْسُو وَأَبَادُوهُمْ مِنْ قُدَامِهِمْ وَسَكَنُوا مَكَانَهُمْ، كَمَا فَعَلَ إِسْرَائِيلُ بِأَرْضِ مِيرَاثِهِمُ الَّتِي أُعْطَاهُمُ الرَّبُّ. <sup>١٤</sup> الْآنَ قَوْمُوا وَاعْبُرُوا وَادِي زَارَدَ. فَعَبَّرْنَا وَادِي زَارَدَ. <sup>١٥</sup> وَالْأَيَّامُ الَّتِي سَرَرْنَا فِيهَا مِنْ قَادَشَ بَرْنِيَعَ حَتَّى عَبَّرْنَا وَادِي زَارَدَ، كَانَتْ ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ سَنَةً، حَتَّى فَنِي كُلِّ الْجَبَلِ، رَجَالَ الْحَرْبِ مِنْ وَسَطِ الْمُحَلَّةِ، كَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لَهُمْ. <sup>١٦</sup> وَبَدَأَ الرَّبُّ أَيْضًا كَانَتْ عَلَيْهِمْ لِإِبَادَتِهِمْ مِنْ وَسَطِ الْمُحَلَّةِ حَتَّى فَنُوا. <sup>١٧</sup> «فَعِنْدَمَا فَنِي جَمِيعَ رَجَالِ الْحَرْبِ بِالْمُوتِ مِنْ وَسَطِ الشَّعْبِ، <sup>١٨</sup> كَلَّمَنِي الرَّبُّ قَائِلًا: أَنْتَ مَارَ الْيَوْمَ بِنُحْمٍ مُوَابَ، بَعَارَ. <sup>١٩</sup> فَمَتَى قَرُبْتَ إِلَى تَجَاهِ بَنِي عَمُّونَ، لَا تُعَادِهِمْ وَلَا تَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ، لِأَنِّي لَا أُعْطِيكَ مِنْ أَرْضِ بَنِي عَمُّونَ مِيرَاثًا، لِأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أُعْطِيتُهَا مِيرَاثًا. <sup>٢٠</sup> هِيَ أَيْضًا تُحْسَبُ أَرْضَ رَفَائِييْنَ. سَكَنَ الرَّفَائِيُّونَ فِيهَا قَبْلًا، لَكِنَّ الْعَمُونِيِّينَ يَدْعُوهُمْ زَمْرَمِيينَ. <sup>٢١</sup> شَعْبٌ كَبِيرٌ وَكَثِيرٌ وَطَوِيلٌ كَالْعَنَاقِيِّينَ، أَبَادَهُمْ

الرَّبِّ مِنْ قُدَامِهِمْ، فَطَرَدُوهُمْ وَسَكَنُوا مَكَاتِهِمْ.<sup>٢٢</sup> كَمَا فَعَلَ لِبَنِي عَيْسُو السَّاكِنِينَ فِي سَعِيرِ الَّذِينَ أَتَلَفَ الْحُورِيِّينَ مِنْ قُدَامِهِمْ، فَطَرَدُوهُمْ وَسَكَنُوا مَكَاتِهِمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ.<sup>٢٣</sup> وَالْعَوِيُّونَ السَّاكِنُونَ فِي الْقُرَى إِلَى غَزَّةَ، أَبَادَهُمُ الْكُفْتُورِيُّونَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ كُفْتُورَ وَسَكَنُوا مَكَاتِهِمْ.<sup>٢٤</sup> «فُومُوا ازْتَحَلُوا وَاعْبُرُوا وَاِدِي اَزْنُونَ. اُنْظُرْ. قَدْ دَفَعْتُ إِلَى يَدِكَ سِيحُونَ مَلِكُ حَشْبُونَ الْأُمُورِيِّ وَأَرْضَهُ. اِبْتَدَيْتُمْ تَمَلَّكَ وَأَثْرُ عَلَيْهِ حَرْبًا.<sup>٢٥</sup> فِي هَذَا الْيَوْمِ اِبْتَدَيْتُمْ اَجْعَلُ حَشَيْتِكَ وَخَوْفَكَ اَمَامَ وَجُوهِ الشُّعُوبِ تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ. الَّذِينَ يَسْمَعُونَ خَبْرَكَ يَرْتَعِدُونَ وَيَجْزَعُونَ اَمَامَكَ.<sup>٢٦</sup> «فَارْسَلْتُ رُسُلًا مِنْ بَرِّيَّةِ قَدِيمُوتَ إِلَى سِيحُونَ مَلِكِ حَشْبُونَ بِكَلَامِ سَلَامٍ قَائِلًا:<sup>٢٧</sup> اَمُرُّ فِي اَرْضِكَ. اَسْأَلُكَ الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ، لَا اَمِيلُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا.<sup>٢٨</sup> طَعَامًا بِالْفِضَّةِ تَبِيعُنِي لِأَكُلَ، وَمَاءً بِالْفِضَّةِ تُعْطِينِي لِأَشْرَبَ. اَمُرُّ بِرَجْلِي فَقَطُّ.<sup>٢٩</sup> كَمَا فَعَلَ بِي بَنُو عَيْسُو السَّاكِنُونَ فِي سَعِيرِ، وَالْمُؤَابِيُونَ السَّاكِنُونَ فِي عَارَ، إِلَى اَنْ اَعْبُرَ الْاَزْدَنَّ إِلَى الْاَرْضِ الَّتِي اَعْطَانَا الرَّبُّ الْهُنَا.<sup>٣٠</sup> لَكِنْ لَمْ يَشَأْ سِيحُونَ مَلِكُ حَشْبُونَ اَنْ يَدْعَنَا نَمْرًا بِهِ، لِأَنَّ الرَّبَّ اِلَهَكَ قَسَى رُوحَهُ، وَقَوَى قَلْبَهُ لِكَيْ يَدْفَعَهُ إِلَى يَدِكَ كَمَا فِي هَذَا الْيَوْمِ.<sup>٣١</sup> وَقَالَ الرَّبُّ لِي: اُنْظُرْ. قَدْ اِبْتَدَأْتُ اُدْفَعُ اَمَامَكَ سِيحُونَ وَاَرْضَهُ. اِبْتَدَيْتُمْ تَمَلَّكَ حَتَّى تَمْتَلِكَ اَرْضَهُ.<sup>٣٢</sup> فَخَرَجَ سِيحُونَ لِلْقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ إِلَى يَاهَصَ،<sup>٣٣</sup> فَدَفَعَهُ الرَّبُّ الْهُنَا اَمَامَنَا، فَضَرَبْنَاهُ وَبَنِيهِ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ.<sup>٣٤</sup> وَاَخَذْنَا كُلَّ مُدْنِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَحَرَمْنَا مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ: الرَّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا.<sup>٣٥</sup> لَكِنَّ الْهَيْئَاتِ مَهَبْنَاهَا لِأَنْفُسِنَا، وَغَنِيمَةَ الْمُدْنِ الَّتِي اَخَذْنَا،<sup>٣٦</sup> مِنْ عَرُوعِيرِ الَّتِي عَلَى حَافَةِ وَاِدِي اَزْنُونَ وَالْمَدِينَةَ الَّتِي فِي الْوَادِي، إِلَى جِلْعَادَ، لَمْ تَكُنْ قَرِيَّةً قَدْ اَمْتَنَعَتْ عَلَيْنَا. الْجَمِيعُ دَفَعَهُ الرَّبُّ الْهُنَا اَمَامَنَا.<sup>٣٧</sup> وَلَكِنْ اَرْضَ بَنِي عَمُونَ لَمْ نَقْرَبْهَا. كُلُّ نَاحِيَةِ وَاِدِي يَبُوقُ وَمُدْنُ الْجَبَلِ وَكُلُّ مَا اَوْصَى الرَّبُّ الْهُنَا.»

والتبس الصوت في ذهنه بصوت آخر، في ذلك التيه الكبير، وكأما الحرب التي كانت اندلعت فجأة قد خمدت أخيرا، وانهمز من انهمز،

وانتصر من انتصر، وبدل القلاع والحصون، عاد التّيه من جديد، وكأنّ الوعد الذي كان يدفع دائما إلى الأمام، قد بدأ يشدّ إلى الخلف، إلى روابي التّيه، وأطام المهامه، لا ليأخذ بني إسرائيل إلى أرض الوعد، وإنّما ليأخذه هو، أو يأخذ شخصا آخر كان رآه في زمن من الأزمنة، وفي مكان من الأمكنة الكثيرة التي باتت في ذهنه أكثر من أن يحصّيها، إلى صومعة الظلال، إلى مواقف المخاطبة، وأثار الشّهود، بعيدا عن المحاميل، والعوارض التي كانت طوال الوقت تشدّه إلى مجاثم الشّهوة وأوظار الجسد... وكان مكتوبا عليه، أو مكتوبا عليهما، لأنّه حين ظلّ عينيه بيديه، رأى بدر النور غير بعيد عنه، وبدل الشّيخ الذي كان يجيئه في كلّ مرّة، كان هناك شخص آخر، عالي الهمة في ثياب بيض لم ير أجمل منها في حياته، وكانت لحيته الطويلة البيضاء تصل إلى منتصف صدره؛ وكان يبدو عليه أنّه مستأنس في ذلك التّيه، في صومعته؛ ورغم انعزاله وانفراذه، وإيثاره البعد، لم يكن يفتنه شيء ممّا حوله، وكان يعرف كلّ شيء وقع في الأزمنة الدّابرة، أو الأزمنة الحاضرة، وكان يعرف كلّ الأمكنة، وكلّ حدث وحادث، وكلّ عرض وجوهر؛ وكان يعرف الكائنات والمكوّنات، والأشكال والهلاميّات، والمتجسّد وغير المتجسّد، ويروي عن الفلاسفة والعلماء، فلاسفة وعلماء سمع بهم وآخرين لم يسمع بهم في حياته؛ وكان يحكي عن النّجوم وما تقوله، وعن السّماء وما تظّله، والأرض وما تقلّه - ويعرف لغة الماء، ولغة الطّير ولغة الوحش، ويكشف سرّ الأعداد، وما تسرّه عقول العباد بمجرد أن ينظر في أعينهم؛ وكان قليل النّوم بالنّهار، كثير القيام في ليل لا دليل فيه ولا مؤنس؛ وحين عاشه لأيام، لم يره يأكل أو يشرب، فسأله:

- مولاي، لم أرك تأكل؛ أفلا يموت من لا يأكل؟

قال له، وهو يبتسم ابتسامة فيها كلّ شيء يعلمه وكلّ شيء لا يعلمه، وكانت بالأسرار مثقلة، وبين ألغاز الوجود معلّقة:

- ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.

---

وقال له بدر النور:

- هذا ما قاله يسوع في تعاليمه...

فقاطعه في غير شدة ولا وحشة:

- وهكذا قال غيره، عليه السلام.

وقال له بدر النور مرة أخرى:

- مولاي، لم أرك تشرب: أفلا يموت من لا يشرب؟

فأجابه:

- من كان شأنه ما أنا فيه من وجد وهيام، وتقلب في أمواج النور،

فلا حاجة له في ماء يهب ذهاب غلة للحظات ويترك ظمأ مقيماً... وأنا

أكل وأشرب، كأىكم. ولكن لا تراني أفعل ذلك، فمن يطعمني يطعمني

وهو برّبي، ولا يشغلني عن ذكرى، ومن يسقيني يسقيني، وهو أحنّ عليّ

من نفسي، ويسقيني، فلا يريني؛ وأجدني شبعان من غير طعام، وريان

من غير ماء؛ وأنا. كما ترى. صحيح البدن معافى...

وبدا لبدر أن يسأله مرة أخرى؛ ويسأله مرّات ومرّات لما كان يرى

من غرابة أمره، فأوماً إليه أن يتوقف؛ وسأله:

- ماذا تعرف عن المواقف؟

قال بدر:

- المواقف، يا مولاي، هي مواقف. موقفي بين يديك موقف:

وموقفك حيث أنت موقف.

فقال الشيخ، وهو يبتسم هذه المرة ابتسامة قد غطت كل وجهه:

- تلك، يا ولدي، مواقف أهل الدنيا.

سأله:

- وهل هناك غيرها؟

قال:

- أجل.

سأله:

---

---

- فما هي؟

قال:

- مواقف أهل العرفان.

سأله:

- فمن هم أهل العرفان؟

قال:

- الَّذِينَ جَمَعُوا فِي عِرْفَانِهِمْ بَيَانَ غَيْرِهِمْ وَبِرْهَانِهِمْ. وَهُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَصِفُوته من خلقه.

سأله:

- وكيف يعرف أهل العرفان أنهم أهل العرفان؟

قال:

- هو حدس يلقى الله في قلوبهم، فيعلمون أنّ قلوبهم بالله معلّقة؛ وأنّ دنيا غيرهم هي غير دنياهم، وأنّ دنياهم هي دنيا مونقة لا تحيط بها أذهان من تعلقت قلوبهم بزائل الأشياء وعارضها.

وسأله:

- مولاي، وهل أنت من أهل العرفان؟

فأجابه الشيخ:

- أنا من أهل المواقف... ما زلت أجهد في مخاطبات المبتدئين لتوصلني إليهم... أنا، يا ولدي، ما زلت أروم الرّمز والإشارة لتفصح لي عن مكنوني، وتحملني من ضفاف المياه الهدّارة إلى ضفاف الأسرار الموّارة...!!!

وأدهشه منه ما كان يعلمه عنه، فسأله:

- وأنت تعلم ما تعلم، ممّا لا يعلمه غيرك في ألف عام، وتقول إنك

ما تزال في المبتدئين؟

فقال له الشيخ:

- لو عرفت أهل العرفان، يا ولدي، لوجدتني أتضاءل أمامهم. إنّي

---

---

أجهد أن أكون مثلهم أو تابعا لهم، يرضيني منهم أن أنفض الغبار عن  
حذاء أحدهم أو أظفر بقبلة من شملته.

وبدأ له أن يسأله عن الوصول، وسمعه يذكر المخاطبات، فاعتقد  
أنّ هذه موصلة إليه، فأراد أن يسأله عنها:  
- وما المخاطبات التي ذكرت، يا مولاي؟  
قال:

- هي كلام.

سأله:

- مثل الكلام؟

قال:

- مثله وليس مثله.

سأل بدر:

- هل هذا لغز؟

قال له الشيخ:

- وهل ما نحن فيه سوى ألغاز، يا ولدي.

قال:

- صفها لي.

قال الشيخ:

- فرادى، واحدة واحدة، أو مجتمعة؟

قال بدر النور:

- شأنك، يا مولاي!

قال الشيخ:

- استمع إذن:

«أوقفني وقال لي أنت ثابت ومثبت فلا تنظر إلى ثبتك فمن نظرك  
إليك أتيت وقال لي انظر إلى مثبتي ومثبتك تسلم لأنك تراني وتراك وإذا  
كنت في شيء غلبت. وقال لي متى رأيت نفسك ثبتا أو ثابتا ولم ترني في

الرؤية مثبتا حجت وأسفر لك وجهك فانظر إلى ماذا بدا لك وماذا توارى عنك. وقال لي لا تنظر إلى الإبداء ولا إلى البادي فتضحك وتبكي وإذا ضحكت وبكيت فأنت منك لا مئي. وقال لي إن تجعل كل ما أبديت وأبديه وراء ظهرك لم تفلح فإن لم تفلح لم تجتمع عليّ. وقال لي كن ببني وبين ما بدا ويبدو ولا تجعل ببني وبينك بدوا ولا إبداء. وقال لي الأخبار التي أنت في عموم. وقال لي أنت معنى الكون كله. وقال لي أريد أن أخبرك عني بلا أثر سواي. وقال لي ليس لي من رأني وراه بأرائته إنما لي من رأني وراه بأرائته. وقال لي ليس من رأني وراه حكم رفق به، أليس فيه شرك لا يحسن به. وقال لي لا يحسن به كشف فيما رأني وراه، حجاب في الحقيقة. وقال لي الحقيقة وصف الحق، والحق أنا. وقال لي هذه عبارتي وأنت تكتب، فكيف وأنت لا تكتب...»

كان فيما مضى غفلا، له الحياة، وليس وراء الحياة التي له شيء؛ وما الحياة التي كانت له سوى أصوات ترجع، أصداؤها فقط تسمع، وما تحمله من جوهر يمضي، له أثر لا يستبينه؛ ولم يعرف، لأن نظره كانت تغشاه هنات ووسنات؛ ولم يسأل، حتى التقى بالعدوية والشيخ الآخر، وبعض من كل من كان يرى، في نوم أشبه باليقظة أو يقظة أشبه بالنوم - وكان ترك الورا لمن هم وراءه، وولى الشطر الآخر للدنيا، وما يترك من آثار تحمله ربح الوسن الغافي؛ ولم يسأل قبل عن الخافي... وبدت له الكلمات، والشيخ القائم قبالتة يحلمها، لا تحمل شيئا يعرفه بعد؛ وبدا له أن يسأل. قال:

- من الموقف، يا مولاي، ومن الموقوف؟

نظر إليه الشيخ وكأنه يؤوب من سفر طويل؛ ثم قال:

- هما في العدد اثنان وفي الجوهر واحد؛ يكون الموقوف هو الموقوف

أنا والموقوف هو الموقوف أنا؛ ولا يتكلم سوى الموقوف الموقوف ليعلم

من أوقف أن عليه ان يتأدب في حضرة مولاه...

سأله بدر النور، وما تزال الأمور لديه معميات لا تفهم:

---

- فهل من أوقف يعلم أنّ من أوقفه مولاه؟

قال الشّيخ:

- نعم يعلم، لأنّه كان في منتصف الطّريق إليه؛ وإذا علم من أوقف أنّه في منتصف الطّريق علم؛ ولكنّ العلم الذي علمه ناقص.

سأله:

- ولماذا هو ناقص؟

أجابه:

- لأنّه لم يعلم بعد من ناداه وناجاه؛ ولأنّه لم يعلم بعد أنّه هو المنادي والنّداء والمنادي، فلا شيء خارجه، والكلّ داخل في دائرة نجواه. كان بدر النور يحاول أن يفهم؛ وقد كان فهم أشياء، وما يزال المعنى وراء الكلمات مجهولاً، في حاجة إلى دليل يدلّه إليه:

- فهل الموقوف والموقوف واحد في جوهر؟

قال الشّيخ:

- نعم؛ لكن كان عليه، أو علمهما، أن يعلم، أو أن يعلم ذلك؛ هو الحقّ، وإذا علم الموقوف الحقّ، صار هو أيضاً حقّاً؛ ولكن أيضاً ليس الموقوف دائماً يعلم؛ وإذا لم يثبت في الرّؤية شيئاً لم يثبت مولاه، وغاب عنه الجوهر والمعنى...

وقال:

«أوقفني في البحر ورأيت المراكب تغرق، والألواح تسلم، ثمّ غرقت الألواح، وقال لي لا يسلم من ركب. وقال لي خاطر من ألقى نفسه ولم يركب. وقال لي هلك من ركب وما خاطر. وقال لي في المخاطرة جزء من النّجاة، وجاء الموج ورفع ما تحته وساح على السّاحل. وقال لي ظاهر البحر ضوء لا يبلغ، وقرعه ظلمة لا تمكن، وبينهما حيطان لا تستأمن. وقال لي لا تركب البحر فأحجبك بالآلة، ولا تلق نفسك فيه فأحجبك به. وقال لي في البحر حدود أيّها يقلّك. وقال لي إذا وهبت نفسك للبحر فغرقت فيه كنت كدابة من دوابّه. وقال لي غششتك إن دلتك على

---

سواي. وقال لي إن هلكت في سواي كنت لما هلكت فيه. وقال لي الدنيا لمن صرفته عنها وصرفتها عنه، والآخرة لمن أقبلت بها إليه وأقبلت به عليّ...»

وقال:

- ربّما أكون أخطأت المعنى؛ وما بحث به مجرد شكّ منّي، فالموقوف هو السّامع والموقف حقّ، كان على السّامع أن يصل إليه...  
قال بدر:

- وكيف له أن يصل إلى الحقّ دون أن يغرق في البحر؛ وقد حرّم عليه الركوب والمخاطرة...!!؟

قال الشّيخ:

- هناك وراء المجاز معنى؛ وبين الركوب والمخاطرة تكمن النّجاة، وبينهما أيضا يوجد الحقّ...  
وقال:

استمع.

«أوقفني في الوقفة وقال لي إن لم تظفري أليس يظفرك سواي. وقال لي من وقف بي ألبسته الزّينة، فلم ير لشيء زينة. وقال لي تطهّر للزّينة والأفضتلك. وقال لي إن بقي عليك جاذب من السّوى لم تقف. وقال لي في الوقفة ترى السّوى بمبلغ السّوى فإذا رأيته خرجت عنه. وقال لي الوقفة ينبوع العلم فمن وقف كان علمه تلقاء نفسه، ومن لم يقف كان علمه عند غيره. وقال لي الوقف ينطق يصمت على حكم واحد. وقال لي الوقفة نورية تعرف القيم وتطمس الخواطر. قال لي الوقفة وراء اللّيل والنّهار وما وراءهما من الأقدار. وقال لي الوقفة نار السّوى فأن أحرقتك بها وإلا أحرقتك بها. وقال لي دخل الواقف كلّ بيت فما وسعه، وشرب من كلّ مشرب فما روي، فأفضى إليّ وأنا قراره وعندي موقفه. وقال لي إذا عرفت الوقفة لم تقبلك المعرفة، ولم يتألّف بك الحدّثان. وقال لي من فوّض إليّ في علوم الوقفة فإلى ظهره

أستند، وعلى عصاه اعتمد. وقال لي إن دعوتي في الوقفة خرجت من الوقفة، وإن وقفت في الوقفة خرجت من الوقفة. وقال لي ليس في الوقفة ثبت ولا محو ولا قول ولا فعل ولا علم ولا جهل. وقال لي الوقفة من الصّمدية فمن كان بها ظاهره باطنه وباطنه ظاهره. وقال لي لا ديمومة إلا لواق. ولا وقفة إلا لدائم. وقال لي للوقفة مطلع على كلّ علم وليس عليها مطلع لعلم. وقال لي من لم يقف بي أوقفه كلّ شيء دوني. وقال لي الواقف يرى الأواخر فلا تحكم عليه الأوائل. وقال لي الوقفة تعتق من رقّ الدنيا والأخرة. وقال لي الصلّاة تفتخر بالواقف كما يفتخر بها السائر. وقال لي ما عرفني شيء، فإن كاد أن يعرفني فالواقف. وقال لي كاد الواقف يفارق كم البشريّة. وقال لي سقط قدر كلّ شيء في الوقفة فما هو منها ولا هي منه. وقال لي في الوقفة عزاء ممّا وقفت عنه وأنس ممّا فارقته. وقال لي الوقفة باب الرّؤية، فمن كان بها رأيي زمن رأيي بها وقف، ومن لم يرني لم يقف... وقال لي... وقال لي... وأنا أستمع إليه، وأحاول أن أثبته كما قال لي فتقوم بيني وبينه في كلّ مرّة كدورات أراها تغشى رؤيائي إياه؛ وكنت أخوض في لجة غير لجة البحر، وكان هو يدعوني، فقلت: مولاي... مولاي... أين أنت؟ وكان يدعوني ولم يجب. وأثبتّ صوته في باطني، فأغمضت عينيّ وانطلقت إليه، بوجداني، فاكتنفتني أسراره. وغرقت في بحاره، وأمسيت من بعد جهل به عالما، وله قاصدا، فأفرشني الوطأ، وأذهب عنيّ كلّ ما كان بي من التّعب والضّيق... وأثبتّ الألواح وقد قامت بعد أن غرقت، والمركب كان على ماء البحر... وصعدت...

ورأه بدر النور يمضي صعدا، ويعرج في سموات كانت تنفتح أمامه شيئا فشيئا، ثمّ تواريه أخيرا؛ وفي مقامه الأوّل، كان رجلان قد باعدت بينهما المسافة، رغم أنّه كان يراهما دون فواصل تفصلهما أو حواجز تحجز بينهما؛ وكان الأوّل في الشّام، وكان الثّاني في بلخ أو أرض الرّوم... وابتدره الأوّل، الشّاميّ، قائلا:

- السّلام عليكم، يا ولدي.

وقبل أن يردّ عليه السّلام، رآه يحتجز في كمّ قفطانه نجوماً ومذنبات وأقماراً وشموساً، وأكواناً بأسرها، وكائنات بمختلف الألوان والأحجام؛ وكان يقول لمن يدخل في كلّ مرّة من التّصوّرات والمصوّرات: أوبي، فأنت الآن في الوحدة، ولا خلاف بين الأشياء، فالكلّ واحد... وقال لبدر:

- قد كنت جاهلاً، يا ولدي، فجاءني، وقال لي اعزم وتوكل...

فعزمت وتوكلت، وكتبت الفتوحات، وقد كانت، يا ولدي، فتوحات حين قرأتها علمت أنّه لولا عزيمة مولاي لما كنت قادراً على إيفائها حقّاً أو استيفائها... وقد علمت أن المنشأ واحد وأنّ الخليقة واحدة، وأنّه لا فرق بين ما يبدو من ظاهر الشّرك وما خفي من الإيمان...

ونظر ناحية بلخ، وهو ما يزال يستمع إلى مرید الشّيخ أبي مدين، فرأى طرقاً كثيرة، وأزقة ملتوية؛ ورأى في إحدى تلك الطّرق، في زقاق من تلك الأزقة، شاباً كأحسن ما يكون الشّبان، ولم يروجه، لأنّه كان يتّجه صوب بيت كان مغلقاً، وعلى مبعده منه رأى رجلاً آخر يتبعه؛ ولكن لم يبد عليه أنّه أحسنّ به؛ وسمع الرّجل الثّاني يقول للأول:

- انتظر، يا جلال الدّين.

التفت الرّجل النّذي دعي «جلال الدّين»، ونظر ناحية المنادي فلم يبد عليه أنّه عرفه، غير أنّه أنس في نفسه انجذاباً إليه لم يعرف مثله لرجل من قبله؛ وابتدره بسلام المحبّين النّذين، وإن تباعدوا، ظلّ الودّ موصولاً بينهم؛ وأدخله إلى الدّار، وأغلق من دونهما باب غرفته؛ وقد كان من قبل جوالاً بين المساجد وحلقات الدّرس، وبين الخلان والأصحاب؛ وكانت له حياة الأحياء، على استحياء، فلما جاءه الغريب، صار كلّه للغريب، لا يأتمر بأمر غير أمره. ولا يسمع فيه واهياً أو عدولاً؛ وقد علّمه الأسرار، وكان اسمه «شمس الدّين» وينسبونه إلى «تبريز»

!!!

## ٧. المواجيد الصغرى والكبرى

\* كانت كلّ الأشياء تنطلق منه وتعود إليه، وهو يتأملها؛ فإذا تأملها كانت هي، وإن لم يتأملها لم تكن هي، وكان مشغوفاً بها، لأنّها كانت تشعره باقترابها منه، فيفسح لها في مجلسه؛ ويشير إلى جلسائه فيرقبونها وهي تتمسّح به، وتعلق بقلمه وهو يكتبها، بأجلى حرف وأعتق عبارة - لأنّ العبارة كانت عنده معتّقة بماء الحياة الأخرى حين نزعته عنها رداء البلى، وطلبت الانجذاب إلى العالم العليّ حيث مراقبها؛ وقال لها: اصمتي، حين بدا له أن يتفكّر قليلاً في معنى كان طلبه في زمان صباه واختفى عنه؛ وتساءل بينه وبين نفسه، وقبل أن يكتمل الجواب في خاطره جاءه المعنى فقال له: لبيك، يا سيدي!! فأسنده إلى قلمه قليلاً قبل أن يكتبه... ونظر إلى الأشياء التي كان الآخرون يرونها ولا يرونها، فأوماً بسبّابته، ثمّ قرن سبّابته بإبهامه فرسم دائرة، وقال لكلّ الأشياء في الغرفة وخارجها، والأشياء في كلّ مكان: ادخلي فدخلت، وقال لها جميعاً: أنت الآن برسم الدائرة. وقال فسمعه الجميع: «لو علمته لم تكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت: فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته! فهو هو لهو: لالك. وأنت أنت: لأنت وهو! فأنت مرتبط به، ما هو مرتبط بك. الدائرة. مطلقاً. مرتبطة بالنقطة. النقطة. مطلقاً. ليست مرتبطة بالدائرة... نقطة الدائرة مرتبطة بالدائرة...» ثمّ أرسل إصبعيه، وبدأ يكتب، فكان الكلام الذي يجري في قلبه ويسيل به لسانه، ينكتب في يسر على الرقاع التي كانت أمامه؛ وكان كلّما خرج حرف لينكتب هلّ، وأشار إلى نقطة الدائرة التي كانت تستقبل كلّ الكلام. وبدا له، وهو يضع الشّيء قبالة الشّيء، والشّيء إلى جانب الشّيء، والشّيء فوق،

---

والشيء تحت. أنه كيفما وضع هذا الشيء لا ينفرد عقده ويظل مشدودا إلى غيره، ومهما جهد في إبعاده ظلّ مشدودا إلى النقطة في قلب الدائرة؛ فقال: إنّ الأشياء مادامت تحنّ فهي واحدة ولا يكون الكون إلاّ بحنينه وهو واحد، وأنّ ما بزغ عنه ونبع منه، فهو واحد أيضا ويجتج بالنقطة والدائرة؛ ونظر إلى بدر النور، الذي كان أيضا يراقب جلال الدين وشمس الدين: «وأنت أيضا من الدائرة، فلا تسأل كيف جئت ولا متى جئت ولا إلى أيّ شيء انتهيت؛ واعلم أنّك واحد في مبدئك مع أحاد، وأنّ الأحاد وإن تفرقت، فهي مشدودة إلى الوحدة بحنينها الدائم إلى بعضها البعض...»

وسأله:

- أليس هناك اختلاف؟

قال له:

- الاختلاف مظهر من مظاهر الوحدة؛ وهو أقنوم للتكنية ليس إلاّ.

وسأله:

- فماذا تقول في أنا لست أنت وأنت لست أنا؟

قال:

- الأنائات أنا واحد؛ والتفرق في المبتدأ ضروري لتنجذب النفوس

إلى بعضها كما ينجذب المغناطيس بالمغناطيس؛ وهي نفوس مسكونة

بروح، والروح واحدة، وهي التي تخلق الائتلاف.

وسأله:

- فماذا عن الكفر والإيمان؟

فقال:

- هي مجرد رسوم وأثار لا معنى لها لأنّ المتعلّق الحقيقيّ مشدود

بين طرفي الروح، والروح لا انتسابية، فهي ليست بكافرة، وقد تكون

مؤمنة...

وقال، وكان دائما مع الشّعر على موعد، ومن المواجيد على أنسام

---

تحمله أتى توجهه وكيفما تقلب؛ وكانت كلماته كأن بها روحا كتلك الروح التي يتحدث عنها، بل هي تلك الروح تماما، لأن الأرواح عنده واحدة كما الخلائق واحدة: « إذا كان عين الحب ما ينتج الحب/ فما ثم من يهوى ولا من له حب\* فإن التباس الأمر في ذلك بين/وقد ينتج البغضاء ما ينتج الحب\* ولكنّه معني لطيف محقق/ يقوم بسرّ العبد، يجهله القلب\* لأن له التقليل في كل حالة/ به فترأه حيث يحمله الركب\* وذو الحب لم يبرح مع الحب ثابتا/ على كل حال يرتضها له الحب. » واتصل شعره اللاحق بشعره السابق، وكانت الكلمات تسيل وكأنها تجري، وكان هو المصرف لها دائما يتأني، يمشي الهوينا، يتخير الألفاظ كما يتخير صاحب الجواهر جواهره ليضعها في أماكنها من عقود الفريدة؛ وكان كل شيء لديه يدخل في كل شيء، والشعر يدخل في الشعر ويعضد الشعر، والأشياء تعضد الأشياء وتدخل هي الأخرى في الأشياء، وكان هناك مسلم وكافر، ومشرک وموحد؛ وبدت له أصائل أورفيوس والنمارق الأورفيوسية، والعقود الكورنثية في معابد ومساجد، وكنائس وأديرة، وكان يقول في الشعر أيضا بالحب، وإن في الحب ينتفي الاختلاف، ولا تبقى سوى الوحدة؛ وكان الشعر في مبتدأ الكلام، والشعر في آخره: «لقد صار قلبي قابلاً كل صورة/ فمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبانٍ\* وبنت لأوثانٍ وكعبة طائفٍ/ وألواح توراةٍ ومصحف قرآنٍ\* أدين بدين الحب أنى توجهت/ زكائبه فالحب ديني وإيماني\* لنا أسوة في بشر هندی وأختها/ وقيسٍ وليلى، ثم مي وغيلان\*\* يا بانه الوادي أرينا فتننا/ في لبن أعطاف لها أو قضا\* ريح صبا تخبر عن عصر صبا/ بحاجرٍ أو بمئي أو بقبا أو\* بالنقا، فالمنحني عند الحمى/ أو لعل حيث مراتع الطبا لا\* عجب لا عجب لا عجب/ من عربي يتهاوى العربا يفتى.\* إذا ما صدحت قمرية/ بذكر من يهواه فيه طربا\*\* ألمم بمنزل أحباب لهم ذمم/ سحت عليهم سحاب صوبها ديم\* واستنشق الريح من تلقاء أرضهم/ شوقاً لتخبرك الأرواح أين هم\* أظنهم خيموا

بالبيان من أضمٍ/حيثُ العرازُ، وحيثُ الشَّيْخُ والكتَمُ\*\*ألا يا نسيمَ الرِّيحِ  
 بَلَّغْ مَهَا نَجْدٍ/بأني على ما تَعَلَّمُونَ من العَهْدِ\*وقلْ لفتاةِ الحَيِّ موعدا  
 الجَمَى/غُدْيَةً يَوْمَ السَّبْتِ عندَ رَبِّي نَجْدٍ\*على الرِّبوةِ الحمراءِ من جانبِ  
 الضَّوَى/وعنْ أَيْمَنِ الأفلاجِ والعَلَمِ الفَرْدِ\*فإنْ كَانَ حَقًّا ما تَقُولُ،  
 وعندَها/إليَّ من الشَّوْقِ المَبْرَحِ ما عندي\*إلَيْهَا، ففِي حَرَ الظَّهْرِ تَلْتَقِي/  
 بخيمتها سرًّا على أَصْدَقِ الوَعْدِ\*فتلقني ونلقني ما نلاقي من الهوى/ومنْ  
 شِدَّةِ البَلْوَى ومن أَلَمِ الوَجْدِ\*أَضْعَاثُ أَحْلَامِ، أبْشُرِي مَنَامَةً/أُنطِقُ  
 زَمَانٍ كان في نُطْقِهِ سَعْدِي\*لعلَّ الَّذِي ساقَ الأمانِي يَسوقُها/عيانًا  
 فمهدِي روضُها لي جنى الوردِ.»

\*وتتحول عيناه، تنشالان، من مكان الأكبري القائم في لامكان وإن  
 كان في مكان؛ وتهجس في داخله منابع وسوسات، وتولجه من الباب إلى  
 داخل الغرفة المكسوة برياش، حيث رأى القادم والمضيف الذي صار  
 هونفسه ضيفا؛ وسمع شمس الدين يقول لجلال الدين، وكأنه يعرفه  
 من مبدأ الزمان أو من قبل الزمان؛ وكان كلما قال صدقه جلال الدين:  
 - جئت من الشوق والصفاء، فأنا الشوق والصفاء، ورأيتني فنقلت  
 شوقي وصفائي إليك، فصرت أنت أيضا شوقا من شوقي وصفاء من  
 صفائي؛ وكنا متفرقين في أمكنة المحمول وأزمنتته فصرنا الواحد في  
 الحامل؛ فأنا الحامل أنت وأنت المحمول في أنا، ثم بعد تعارفنا صرت  
 أنت الحامل في أنت، وسيكون عليك أن تتدرّب كي تصبح الحامل في أنا  
 - ولكن اطمئن، مادام القرب بيننا رسولا، فسيكون من اليسير عليك  
 أن تكون الحامل في أنا وأنت... وقال لي:- اذهب إليه، وأخبره أن في الحب  
 حياة، وأنه حب، فهو حياة، ولا تصلح الحياة بغير الحاء البينية ولا الباء  
 التي كانت بيني وبينه على مسافة، وضاعت المسافة، فعلمت أنك أن تحيا  
 بين مسافات الحب مسافة بعد مسافة... وقال لي: قل له إنه لم يحي  
 من قبل؛ وإنه لم يكن واحدا، بل اثنين في واحد؛ جسد يكبو، وروح  
 تسعى أن تشعل نار لقيانا؛ وقال لي: لا تدعه، يا شمس الدين يغيب

عن عينيك، فجئت، وأنا الوعد والموعد؛ وكنت عرفتك حتى من قبل أن أراك؛ وكنت إسما بلا شكل عندي، فصرت عندي الاسم والشكل. وقال لجلال الدين وهو يرنو إليه بعينين حانيتين فراه يفتح في قلبه أبوابا كثيرا، وتلك الأبواب تفتح على باحات بها أزهار وأطيّار، وبساتين بها من ثمر الدنيا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ وكان جلال الدين قبل أن يلتقي شمس الدين مغلقا، لا تأتيه سوى أصوات الظاهر غير المخفي. وحين أرسل الصوّت إليه نديم هواه صار يسمع دبيب النملة في حلقة الليل، وترنيم الحادي في صحارى لم يسمع بها من قبل، ويسمع ما دقّ وما خفي؛ وتعلّم أن ينشد، وأن يعطي الأشياء جميعا معانيها، فصارت تلك الأشياء معرفة وتحقيقا؛ وكان يعلم أنّ علمه من علم شمس الدين، وحين يتكلّم شمس الدين يغمض عينيه ويقول لأذنيه: اسمعي واستمعي؛ وما كان قد تعلّم بعد أن يشطح، أن يدور، وفي الشّطح والدوران يشدّ القرب إلى البعد، والبعد إلى القرب، ويرسم أقمارا على جدار قلبه، وشموسا في وجدانه، ويغني، ليرى شمس الدين الرّاحل، والمسافر والمقيم. وقال التبريزي لیسمعه: «الوحدة والخلوة شيان مختلفان، فعندما تكون وحيدا، من السهل أن تخدع نفسك ويخيّل إليك أنّك تسير على الطّريق القويم، أمّا الخلوة فهي أفضل لنا، لأنّها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنك وحيد. لكن في نهاية الأمر، من الأفضل لك أن تبحث عن شخص، شخص يكون بمثابة مرآة لك، تذكّر أنّك لا تستطيع أن ترى نفسك حقاً، إلا في قلب شخص آخر، وبوجود الله في داخلك.» وقال له أيضا وما تزال عيناه مغلقتان: «لا يوجد فرق كبير بين الشّرق والغرب، والجنوب والشمال. فمهما كانت وجهتك، يجب أن تجعل الرحلة التي تقوم بها رحلة في داخلك، فإذا سافرت في داخلك، فسيكون بوسعك اجتياز العالم الشاسع وما وراءه.» وكان حين يتكلّم ينساب كالخير، وكان جلال الدين يعلم أنّه بحر؛ وجلال الدين قبل أن يراه لم يكن سوى جدول مجهول قد أخفته

---

أحراش الحياة عن الأنظار، فلم يكن يراه أحد أو يهتم لأمره أحد. وسمع أوائل كلمات آخر، فأنصت؛ ورأى تلك الكلمات تأتي فتدغدغ سمعه، ثم تشقّ طريقها إلى ذهنه عبر مسارب من نور - وكانت كلمات شمس الدين هي النور: «يوجد معلّمون مزيفون وأساتذة مزيفون في هذا العالم أكثر عدداً من النجوم في الكون المرئي، فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السلطة وبين المعلمين الحقيقيين، فالمعلّم الرّوحي الصّادق لا يوجّه انتباهك إليه ولا يتوقّع طاعة مطلقة، أو إعجاباً تاماً منك، بل يساعدك على أن تقدّر نفسك الداخليّة وتحترمها، إنّ المعلمين الحقيقيين شفافون كالبلور، يعبرنور الله من خلالهم.» وكان يناديه: «يا معلّم!» ولم يكن تعلّم منه، وحين تعلّم منه، وزاد على العلم الذي تعلّمه، كان يطرد غرور نفسه حين تنازعه إلى الاعتراف لها بالعلم، فيقول: «أين المعلّم ممّن تعلّم!!» وكان جلال الدين يعلم شيئاً يسيراً قبل شمس الدين، وعلمه اختفاؤه أن يكون بحراً، وبحراً، وبحراً، وبحوراً؛ وعلمه اختفاء شمس الدين أن يكون شاعراً، وشوارع تفتح على شارع شارع في الشّعر، وكان شعره وجداً، واستدعاء لغياب الغائب حتّى يكون حاضراً.

وقال جلال الدين:

- وقالوا لي إنّي كنت أرقص حزناً على فراقه...

وبدا لبدر النّور أن يسأله فقاطعه:

- فلم كان رقصك؟!!

قال:

- لقد كان رقصي شوقاً إليه؛ فهو الذي علّمني الشّوق، وهو الذي

علّمني الحبّ؛ وحبّه الذي هداني...

وقال لبدر:

- وصيّتي إليك أن تحبّ، ولو كرهك كلّ النّاس؛ وأن تعشق، ولو لم

يبق على الأرض عاشق واحد.

---

وشمس الدّين الّذي كان يتكلّم لم يتوقّف: « لا تحاول أن تقاوم التّغيّرات الّتي تعترض سبيلك، بل دع الحياة تعيش فيك، ولا تقلق إذا قلبت حياتك رأساً على عقب، فكيف يمكنك أن تعرف أنّ الجانب الّذي اعتدت عليه أفضل من الجانب الّذي سيأتي.»

قال له جلال الدّين وقد فتح عينيه على اتّساعهما ليتشرب كلّ ملمح من ملامحه، وكأنّه كان يحدس أنّهما سيفترقان يوماً ما، وأنّه سيتعذّب بهذا الفراق:

- والحبّ، يا معلّم؟

قال له شمس الدّين سائلاً، وهو يشير إلى شيء فوق رأسهما كان يراه ولا يراه جلال الدّين:

- هل بإمكانك أن ترى ما أرى؟

أجاب جلال الدّين، وهو يتطلّع إلى النّاحية الّتي أشار إليها معلّمه (وكان لم ير شيئاً):

- إنّني لا أرى الّذي رأيت، يا معلّم: فكيف ترى ما لا يراه غيرك؟  
قال:

- إنّما الرّؤية بالقلب، فإذا أردت أن ترى فأغمض عينيك واترك لقلبك أن يقودك إلى حيث تريد المسير.

قال جلال الدّين:

- لقد حاولت، ولكن كان عبثاً دون طائل: فأخبرني، يا مولاي، عن حبّك، كيف هو، وما جوهره، ولمن يكون؟

التفت إليه شمس الدّين، وكان مشفقاً عليه، وهو يريد أن يعلمه علماً لم يعلمه من قبل، وقال:

- ابدأ في الحبّ بنفسك، وتدرّب أن تحيا بحبّك، قبل أن تفتح طاقة عشقك على غيرك؛ واعلم أنّه كلّما كان حبّك لنفسك صادقاً نقيّاً، سيكون حبّك لغيرك أنقى وأصفى؛ ولا تتبدّل مهما كان ظرفك، وتدرّع بالصّبر، وكن ممّن صبر فشكر، لتجزى على قدر صبرك... اصبر على

---

أشواك الطَّريق... اصبر على ظلمة اللَّيل... واصبر على شمس النَّهار...  
واصبر على صمتك وسكونك... واصبر على قول لا يعجبك... واعلم أنك  
إذا رددت فعلا تكرهه بفعل آخر يكرهه غيرك، استويت أنت وذلك  
الغير... اعلم أنَّ الحبَّ عطاء... اعلم أنَّ الحبَّ صفاء... وأنَّ الحبَّ  
نقاء...

وغاب شمس الدِّين فجأة، فتعلَّم جلال الدِّين من بعده الرِّقص  
والشُّطْح، وصار مولانا - وكان يقول: حيَّ له لا لشخص، لأنَّه كان هو  
الحبَّ؛ وهو حين يقول، يكون لا شخصا، ويكون هو الحبَّ يتحدث عن  
الحبَّ... وعلمني مولاي شمس الدِّين أنَّ أحبَّ، ولو عاداني في حيَّ كلَّ  
النَّاس. ورقصت حين أرسلت في طلبه ولم يعد، ولم يدري في خلدي أنَّ  
غيابه في رقصي يكون حضورا؛ فتمنَّيت لو كانت حياتي كلَّها رقصا فلا  
أمل من رؤياه...  
وقال لبدر:

- أن لنا ان نفترق، يا ولدي؛ فلم يعد هناك شيء تعلمه فوق ما  
علمته من مواجيد الموسوسين... ارحل، يا ولدي، وكن أنت أنت،  
وليس أنت آخر، وسر في طريق النور حتى ترى كما رأى غيرك...!!  
وقال له الأكبري:

- أنت منذ الآن في الدائرة ومشدود إلى النقطة؛ وقد عرفت وعلمت،  
فإذا كتب لك الرجوع فعلم ما علمت، وإن لم يكن، فأنت في الوحدة  
موجود وإلها مشدود، فاذا ذكر أصحاب الأخدود، وأنَّ لك ربًا معبودا؛  
واذكر، يا ولدي، أيُّ أنا الأكبري، وقد أجزتك.  
وقال طاجيك بن لامار:

وقد كانت هذه المواجيد الصَّغرى والكبرى، وقد شهدتها وأثبتت  
بعضا منها في وثائقي مع بقيَّة ما كنت كتبتة عن الأسفار وما قرأته في  
كتب المؤرِّخين من العرب المستعربين أو كتب المؤرِّخين المسلمين...  
ثمَّ أضاف:

- وبعد، فأني أحسّ إحساسا يكاد يرقى إلى اليقين أنّ هذه الرحلة قد أشرفت على الانتهاء؛ وسألت الله تعالى أن يعيدني إلى بغداد... سألته سبحانه أن يقيض لي من يسرّ أمر عودتي إلى والدي وبوران؛ ومَنبت النفس بالهيمن مرة أخرى في مجالي الرّصافة والكرخ، كما منّيتها بالظّرف بقت القلوب والعودة بها معي إلى مراع صباي؛ وقلت: «عسى الله تعالى أن يرزقنا أطفالا فتقرّبهم عيوننا وعيون أحبّابنا هناك...» ولم يشعر إلاّ والقلم يسقط من يده على النّضد، ويلفي عينيه وهو يغمضهما تلجان به إلى شوارع المحروسة بغداد؛ وكانت أصوات تناديه، وتلخّ في المناداة:

- أما أن لك أن تعود؟! أما أن لهذه الغربة أن تنتهي؟!!

فكان يجيب في كلّ مرة، وكأنّ القدر هو من يتكلم على لسانه:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

بيده الأمر وهو على كلّ شيء قدير...

وكان آخر شيء يسمعه وهو يغطّ في سبات عميق، صوت مرّتل كان

صداه يتردّد في الأفاق:

«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا

تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ حَبِيرٌ»<sup>(٣٤)</sup>.

٨. ما تيسّر من سفريوشع بن نون

بخارى لعشر ليال بقين من ربيع الأوّل سنة (... ) من الهجرة

الشّريفة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام: «خرجت على سير

عادتي من الغرفة إلى مطبخ الخان رغم أنّ البرد لم يكن لي مشجّعا

على الخروج فتناولت فطورا خفيفا مع كوب كبير من البابونج قلت

لتنشيط ذهني وإخراجه من الخمدة التي أصابته على حين غرة ولم

أكن أدري بعد مصدرها؛ ونازعني نفسي إلى القهوة وإلى عزلة صديقي

علاء الدّين. ثمّ أحجمت لأنّه بدا لي أنّ الأسفار بعد «التّثنية» ستكون ممتعة بما ستذكره من حكايات رسل بني إسرائيل وملوكهم؛ وكنت سأقيم مقارنة بين نبيّ الله موسى عليه السّلام وبين تلميذه يوشع بن نون، ولكنيّ تداركت أمري فجأة وقلت في نفسي «أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم. كيف يكون لنبيّ من أنبياء الله ذوي العزم والبأس أن يقارن بمن كان له تلميذا وتابعا.» وقلت أيضا: «إنّ يوشع بن نون وإن لم يكن ندّا لموسى عليه السّلام فهو الّذي يسّر الله على يديه هزيمة العماليق وجعل على يديه دخول الأرض المقدّسة؛ فهو إذن من الّذين باركهم الله وأجرى على يديه بعض معجزاته.» وتمنّيت لو كنت حافظا للأسفار بحذافيرها كما يحفظ أحدنا القرآن الكريم؛ ثمّ بدا لي أنّ هذا الأمر متعسر، وحاولت أن أجد لذلك مبررات فقلت: «عسى العيب يكون في أنّ هذه الأسفار لم تكن وحيا كما كان القرآن العظيم وحيا؛ أو لعلّها كانت وحيا، ثمّ حرّفت فعاقب الله أهل الكتاب بأن ختم على قلوبهم وحرّمهم نعمة حفظها؛ فلو كانت كلام الله حقّا لوجدنا من يحفظها كما يحفظ القرآن أثناء الليل وأطراف النّهار في المساجد أثناء الصّلوات وفي رمضان في صلاة القيام...» وقلت: «الحمد لله على كلّ حال أن كانت عندي نسخ منها أفرغ إليها كلّما سنحت الفرصة وساعد المزاج وصادف حسن الطّالع.» ووجدت كلّ شيء في مكانه في غرفتي ينتظرني، وفتحت الأسفار على سفر يوشع، وبدا لي هذه المرّة أن أكتب شيئا يسيرا على الحواشي بدل أن أزعج نفسي بكلام مطوّل في دفترتي الّذي كنت كتبت فيه شيئا ليس بالقليل. وكتبت في أعلى الورقة في الجانب الأيمن من السّفَر: «بسم الله الرّحمان الرّحيم» تبرّكا، لما كنت أعلمه من أنّ ذكر الجلالة من شأنه أن يفتّق الذّهن عن فرائده وييسّر الفتوح؛ وقرأت البدايات بإمعان، وتخيّلت نفسي واحدا من بني إسرائيل في ذلك الرّمن السّحيق، بعد وقاة نبيّ الله موسى، والقوم بعد عصيانهم لأمر الله تعالى في امتحان من حلّت به المهانة وركبه الشّين؛

ورأيت حتى وأنا تفصلني عن ذلك الزّمن قرون لا يعلم عددها إلا الله قلاع الكنعانيين الحصينة وحصونهم، وعددهم وعدتهم، وقضيتهم وقضيضهم، وبأسهم الذي لا يرام. وتساءلت بيني وبين نفسي: «ما الذي يجعل إنسانا أو أناسا يعصون أمر الله الصّريح في أن يفعلوا ما أمرهم رغم أنه وعدهم إن فعلوا ما يؤمرون به سيكون معهم ويشدّ أزهرهم وينصرهم على أعدائه؟ وهو القائل سبحانه: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون.» وهو القائل أيضا: «يا أيّها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبّونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوم لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.» فوعد الله تعالى إذن ليس أوضح منه: وما يجعل النّاس ينكصون عن أمر الله ضعف التوكل فيهم، وخوفهم من أن يخرجوا من سعة الدّنيا إلى ضيق البلاء: وهذا منطوق فاسد لأنّ الخير فيما أمر به الله؛ ولو أنّ ما يعتبره النّاس سعة لهم في الدّنيا لأدامه الله على من سبقهم، ولكنّه بعلمه يجزي على البلاء والحمد له في السّراء والضّرّاء والنّعماء والبأساء؛ والله وإن كان ختم على قلوب الغالبيّة الغالبة من أهل الرّيب والفتن فإنّه كان بحلمه وعلمه كتب النّجاة لفئة قليلة كانت تظهر دائما في الأوقات العصيبة لتذكّر أولئك الذين ختم الله على قلوبهم أنّ النّصر ليس بالعدد ولا بالكثرة ولكن بالإخلاص والإيمان: وقد ذكر الله شيئا من ذلك. ودائما في بني إسرائيل، على عهد طالوت، فقال عزّ من قائل: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهْرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ<sup>(٢٤٩)</sup>». وقد كان من الأمر ما أخبرت

به تلك الفئة القليلة التي آمنت برّبها ولم يرهها منظر أولئك الجبارين وقد قاموا على الطّرف الأخرى بالآلات حربهم فأخزاهم الله وردّهم خائبين؛ والله تعالى في خلقه شؤون وشؤون وهو يعلم من حالهم ما لا يعلمونه هم عن أنفسهم؛ وقد أخبرنا بفيض رحمته على نبيّه صلى الله عليه وسلم حين كان في قلّة من أصحابه وكان عدد المشركين يفوق عددهم بكثير؛ وذلك بأن كان يقلل لهم عدد المشركين حتّى تطمئن قلوبهم ويتشجّعوا على المصاولة والقتال، فوصف تعالى ذلك في أبلغ عبارة وأجلى وصف في سورة الأنفال حين يقول: «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ<sup>(٤٤)</sup>» وقد صدق الله تعالى وعده لرسوله، كما صدق وعده لجميع رسله؛ وإذا كان الرّسل يتفاضلون ففصيهم الفاضل والمفضول، فكذلك الشّان مع أقوام تلك الرّسل ففهم من أذعن إلى أمر الله ومنهم من بغى وتجبر ووضرب صفحا عن الوحي والأمور الشرعية التي كان سبحانه ينزلها لتصبح أحكاما ملزمة؛ ومن رحمة الله تعالى على هذه الأمة أن جعلها راضية مرضية منيعة إليه ولرسوله طائعة، فما كان أصحابه رضوان الله عليهم ليقولوا له كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام: « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.» ولكن كان لسان حالهم يقول دائما: « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما منطلقون.»...[ وقد أراني أطلت بعض الشّيء واستطردت فأخذني الاستطراد ونسيت ما كنت فيه من أمر السّفر والأسفار؛ وكنا قد وصلنا إلى ما كان من أمر قبض الله تعالى لموسى وبعثه يوشع بن نون على بني إسرائيل، فنقرأ في بداية السّفر: «وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ أَنَّ الرَّبَّ كَلَّمَ يَشُوعَ بْنَ نُونٍ خَادِمَ مُوسَى قَائِلًا: <sup>١</sup> «مُوسَى عَبْدِي قَدْ مَاتَ. فَالآنَ قُمْ اعْبُرْ هَذَا الْأَرْضَ أَنْتَ وَكُلُّ هَذَا الشَّعْبِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ أَيَّ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ. <sup>٢</sup> كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بَطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أُعْطِيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى. <sup>٤</sup> مِنْ الْبَرِّيَّةِ وَلَبْنَانَ هَذَا إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ

الْفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الْحِثِّيِّينَ، وَإِلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ يَكُونُ تَحْمُكُكُمْ. <sup>٥</sup> لَا يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلِّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. كَمَا كُنْتَ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لَا أَهْمِلُكَ وَلَا أَتْرُكَكَ. تَشَدَّدُ وَتَشَجَّعُ، لِأَنَّكَ أَنْتَ تَقْسِمُ لِهَذَا الشَّعْبِ الْأَرْضَ الَّتِي حَلَفْتُ لِآبَائِهِمْ أَنْ أُعْطِيَهُمْ. <sup>٦</sup> إِنَّمَا كُنْ مُتَشَدِّدًا، وَتَشَجَّعْ جِدًّا لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ الشَّرِيعَةِ الَّتِي أَمَرْتُ بِهَا مُوسَى عَبْدِي. لَا تَمِلْ عَنْهَا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا لِكَيْ تَفْلِحَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ. <sup>٨</sup> لَا يَبْرُحُ سِفْرُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ فَمِكَ، بَلْ تَلْهَجُ فِيهِ نَهَارًا وَلَيْلًا، لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ. لِأَنَّكَ حِينَئِذٍ تُصَلِّحُ طَرِيقَكَ وَحِينَئِذٍ تَفْلِحُ. <sup>٩</sup> أَمَا أَمَرْتُكَ؟ تَشَدَّدُ وَتَشَجَّعْ! لَا تَرْهَبْ وَلَا تَرْتَعِبْ لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ».

<sup>١٠</sup> فَأَمْرِي شَوْعُ عُرَفَاءِ الشَّعْبِ قَائِلًا: <sup>١١</sup> «جُوزُوا فِي وَسْطِ الْمَحَلَّةِ وَأَمْرُوا الشَّعْبَ قَائِلِينَ: هَيِّنُوا لِأَنْفُسِكُمْ زَادًا، لِأَنَّكُمْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تَعْبُرُونَ الْأَرْضَ هَذَا لِكَيْ تَدْخُلُوا فَتَمْتَلِكُوا الْأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكُمْ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لِتَمْتَلِكُوهَا». <sup>١٢</sup> ثُمَّ كَلَّمَ يَشُوعُ الرَّأُوبَيْنِيِّينَ وَالْجَادِيِّينَ وَنَصَفَ سَبْطَ مَنَسَّى قَائِلًا: <sup>١٣</sup> «اذْكُرُوا الْكَلَامَ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ قَائِلًا: الرَّبُّ إِلَهُكُمْ قَدْ أَرَاكُمْ وَأَعْطَاكُمْ هَذِهِ الْأَرْضَ. <sup>١٤</sup> نِسَاؤُكُمْ وَأَطْفَالُكُمْ وَمَوَاشِيَكُمْ تَلَبَّتْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَعْطَاكُمْ مُوسَى فِي عِبْرِ الْأَرْضِ، وَأَنْتُمْ تَعْبُرُونَ مُتَجَهِّزِينَ أَمَامَ إِخْوَتِكُمْ، كُلُّ الْأَبْطَالِ ذَوِي النَّبَاسِ، وَتُعِينُونَهُمْ <sup>١٥</sup> حَتَّى يَرِيحَ الرَّبُّ إِخْوَتَكُمْ مِثْلَكُمْ. وَيَمْتَلِكُوا هُمْ أَيْضًا الْأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيهِمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ. ثُمَّ تَرْجِعُونَ إِلَى أَرْضِ مِيرَاثِكُمْ وَتَمْتَلِكُونَهَا، الَّتِي أَعْطَاكُمْ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي عِبْرِ الْأَرْضِ نَحْوِ شُرُوقِ الشَّمْسِ». <sup>١٦</sup> فَأَجَابُوا يَشُوعَ قَائِلِينَ: «كُلُّ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ نَعْمَلُهُ، وَحَيْثُمَا تُرْسَلُنَا نَذْهَبُ. <sup>١٧</sup> حَسَبَ كُلِّ مَا سَمِعْنَا لِمُوسَى نَسْمَعُ لَكَ. إِنَّمَا الرَّبُّ إِلَهُكَ يَكُونُ مَعَكَ كَمَا كَانَ مَعَ مُوسَى. كُلُّ إِنْسَانٍ يَعْصِي قَوْلَكَ وَلَا يَسْمَعُ كَلَامَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُهُ بِهِ يُقْتَلُ. إِنَّمَا كُنْ مُتَشَدِّدًا وَتَشَجَّعْ»...

وكان مسترسلا في القراءة، وهو يمّتي النفس بأن يقضي عظم ذلك

---

اليوم في غرفته متسربلا في وحدته لا يعكّر عليه صفوه معكّر لولا ما طرأ عليه فجأة من الأمر حيث غامت عيناه وفقد بمثل السحر كلّ اتصال له بالواقع وسمع الأصوات من جديد وهي تناديه، وهي تدعوه، وتهيب به أن يستعدّ لجليل من الأمر... ورأى الشّيح النّورانيّ من جديد على مبعده. وقد أفصح وجهه فكان مثل فلق الصّبح جمالا. وكان ما تزال عليه ملابسه البيضاء التي لا شية فيها. ووجد نفسه مسلوب الإرادة كمن فقد كلّ حوّاسه وهو يسمع:

- قم وانهض...

انطلق صوت من داخله وكأنّ الشّيح أنطقه ولم يكن له في الأمر حيلة. وهو يسأل في حياء، في تردّد. في خوف. وإشفاق:  
- إلى أين؟

قال الشّيح وهو يتقدّم نحوه:

- هذا يوم الإقدام... هذا يوم الموت والحياة...

قال يسأل، وهو بين القدرة وعدم القدرة، وبين الإرادة وعدم الإرادة، وبين الفعل وعدم الفعل، وهويين المتناقضات:

- فأيّ موت وأيّ حياة؟!

ولكنّ الشّيح لم يزد على أن قال:

- اذهب فتزوّد قبل فوات الأوان.

سأله:

- أذهب إلى أين؟ وأتزوّد بماذا؟ ولماذا سيفوت الأوان؟

قال الشّيح:

- لا فائدة من الأسئلة. اذهب إليها فستجدها في انتظارك.

سأل ثانية، وثالثة، ورابعة، ولم يكن يملك إلا أن يسأل، وقد نسي

ما قاله الشّيح من عدم جدوى الأسئلة:

- هي من؟ ولماذا تنتظرني؟

قال الشّيح:

---

- سرعان ما نسيت!! هل ينسى المرء زوجه؟  
قال طاجيك، وقد تذكّر دفعة واحدة تلك اللّيلة وما أعقبها من  
خيبة وآلم، ومن جروح وقروح:  
- قوت القلوب ثانية!!؟  
قال الشّيخ:

- وثالثة ورابعة، وقوت القلوب دائما...

وألفى قدميه تشيلانه، وهو لا يعلم، وقد فقد علاقته تماما بما  
حوّله؛ ووصل إلى القصر، وصل إلى بيت عديله الذي صار قصرا  
منيفا، وكان كلّ شيء قد تحوّل فيه إلى أعمدة لا رونق فيها وأجساد  
لا حياة بها، إلا ما كان من أمرقوت القلوب التي كانت في انتظاره وقد  
تجرّدت له وتجرّدت لها، فكانا كفرسي رهان؛ أو كانت هي المهرة الجموع  
وهو الفرس الذي في جريه وراءها قد انقطع منه النّفس... وكانت تصعد  
في أجواز الفضاء وهو وراءها يرمي بوجده، وقلبه، وفؤاده، ومشاعره  
التي كانت تنبع داخله كما ينبع الماء من تحت الأرض؛ وكان كلّما اقترب  
منها التاث لرؤيا تلك السّهوب، والوهاد والنّجاد، والأطام التي كانت  
تفصح دون إفصاح؛ وقد كان يرى بداخله وهو يراها شهباً ومدنّبات،  
ومدارات تهوي، وكواكب يصطدم بعضها ببعض ثمّ تنفجر، ويسمع  
في أعماق أعماقه أصوات رعود تأتي من كلّ مكان ولا مكان، ووميض  
بروق، وصواعق كانت تنزل فجأة فتأخذ كلّ شيء معها؛ وهو في جريه  
وراءها يلهث ولا يبلغها، وكانت هي تشفّ، فيرى كلّ شيء منها، وتضحك،  
فيتضاعف بلاؤه، ويجري ويجري، وهي تجري أيضا حتّى بلغا مجازا بين  
مجازات في إحدى السّموات البعيدة التي كانت تحفل بمناظر لم ير  
مثلها في حياته؛ فكان يرى جبالا من زمرد وعسجد وزبرجد، وأنهارا  
من عسل ولبن وخمر لذّة للشاربين، وغلمانا وجواري كأنهم الأقمار،  
وحورا عينا كأمثال اللؤلؤ المكنون... وكان يرى فلا يصدّق عينيه،  
وكان في شغل عن كلّ ذلك لما كان اعتراه من جرّاء ملاحقة تلك المهرة:

وضاعف من جريه وراءها، فتضاعفت لذلك مشاعره، ووجد قلبه يحنّ إليها، وفؤاده أيضا، ووجده، وكلّ شيء فيه يستدعيها بأسمائها وغير أسمائها... وكانت كلّما تجاوزته بمرحلة ضحكت، حتّى يئست أخيرا من ظفريه بها، فعادت أدراجها إلى القصر... وداخل القصر ولجت غرفة لم يرف في الرياش الذي كان منتشرا فيها مثلها، ولا في ترتيبها مثلها، ولا في جمالها مثلها، وكان جمالها من جمالها، وبين كرفرف، وصهيل وصليل، وإقبال وارتداد، وصعود ونزول، وتطامن واستوفاز، امتلأ الجسد أخيرا، وحينما امتلأ أصابته خمدة الموت... وكانت هي تشهد كلّ ذلك، ولم تكن تتصوّر أنّ الذرّوة ستؤدّي إلى الفقد، فبكت من قلبها وهي متجرّدة؛ وعلى مبعده، في صمت الغرفة الذي التبس بصمت الميّت، رأت شخصا لم تكن رآته من قبل، وهو بين سماء وأرض، يسبح في بحار من نور، وكان يشير إلى شيء في ذلك الجسد الذي همد فجأة، فيخرج من بين جوانحه كائن شفيف، شفيف جدا بجناحين ناعمين أبيضين، ويلتحق بذلك الطائر الذي كان بدر النور...

قالت، في إعوالم وإشفاق:

- ارجع إليّ، يا حبيبي.

ولكنّ الأرواح لا تتكلّم. الأرواح تمضي صعدا إلى السّماء، ولا تتكلّم. وانطلقا سويا وهي تنظر إليهما - بدر النور وطاجيك بن لامار، وقد

غام من حوله كلّ شيء:

.بغداد المحروسة...

.والده وبوران...

.مراتع صباه...

.وجبال القفقاس...

وكان بدر النور ينظر فيرى كلّ شيء كما كان...

.العتبة الخضراء...

وموقفه من ذلك المكان الذي ما عاد يذكره...

---

ووالده... ووالدته...

وعبد المنعم وأخواته...

وكان يسمع أصواتا تناديه، ولكن لا يظنّ عالقا في خياله من كلّ تلك النداءات وهو يجوز السّماوات مع طاجيك، إلّا نداء وحيد كان يتردّد كما الصّدى في كلّ مكان:

وداعا، أيتها العتبة الخضراء...!!!

وداعا أيتها العتبة الخضراء...!!!

وداعا أيتها العتبة الخضراء...!!!

.انتهت.

كوبيك (كندا) في:

٢٠ حزيران ٢٠٢٠



© ماستر

